

# نظرات قرآنية

فاتحة الكتاب

للباحث : سيد محمد زهير



23 ش سكة المدينة - ناهايا - إمبابة - جيزة - ج.م.ع

تليفكس: 33250202 (+202) - محمول: 01224252934

ت: الباحث: 01284181619

E-Mail:ghad\_2008m@yahoo.com

## إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

مكونون الفتح والنور يربط بقوة بين صفوة الفتح القرآني.. وصفوة الفتح  
الإنساني.

فيها... إشراقه النور القرآني..

وبه إشراقه النور الإنساني.

اسمها.. "أم القرآن" وفاتحة الكتاب المبين..

وهو واسطة عقد النبيين ومقدمة المرسلين.

جماع الحمد فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾..

وهو حامل لواء الحمد ومن مادته سمي "محمد رسول رب العالمين"

تاجها بالثناء والتثنية: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾...

وهو الذي نزل فيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

دلالة المجد للمولى فيها أنه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾...

ومحمد الشفيق على وجه الاختصاص ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾.

سنامها: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وهو الذي أمره ربه أن يقول: ﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾

الغاية فيها: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾..

ورسولنا أقوم الصراط وقيمته وخاطبه ربه ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

فلا تعجب حينئذ إذا ألف المولى بين القرآن الحكيم ورسوله قائلاً:



﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

وذلك أنه إذا كانت دفقات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور فإن أشعة الوحي في الحبيب هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام

... فأليك - يا رسول الله - يا فاتحة النور الإنساني أهديك قصة هدايتي إلى هذه النظرات عن فاتحة النور القرآني وهي في الحقيقة منك وإليك.

- ومن مشكاة نور الفتح بالحبيب انبثق شعاع نور وارث رباني وفاتح قرآني امتزج بالقرآن روحاً وعقلاً، وامتزج القرآن به عطاءً وفضلاً.

**فاتح قرآني:** نقل الاهتمام بالقرآن من رواق التفسير المكتبي الخاص... إلى ميدان التفسير المجتمعي العام... دخلت خواطره القرآنية كل دار وكل محل... فتخلق من حولها الداني والقاصي بلا أدنى فاصلة تمييز بين الخاص والعام أو تفاضل بين الأمي والعادي والعالم...

من فتوحاته وفيوضاته الإيمانية والعرفانية واللسانية والبيانية استقى وارتوى صاحب هذه النظرات..

.. فألى روح الإمام القرآني شيخنا وأستاذنا "محمد متولي الشعراوي" أهدي هذه النظرات..

- وأهدي هذه النظرات أيضاً

إلى فاتحة من فواتح الاستقرار والهدوء في حياتي

زوجتي العزيزة التي وفرت وهيأت لصاحب النظرات جو التأمل والنظرات فرعت وضحت بالكثير وأعطت عن رضا ولم تطلب إلا القليل.

## تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ

جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ الكهف: ١٠٩

هل هو محض اتفاق.. أم محض توفيق من الله.. أن يبتدئ "التقديم" من حيث تنتهي "مقدمة الباحث".. ليؤكد حقيقة الطلاقة والإطلاق.. وليعلن تراسلا وتوصلا ما بين القارئ والباحث..

اللسان أو اللغة وسيلة إدراك.. واللفظ وعاء لمحتواها.. والله سبحانه وتعالى شأنه من شأن أسمائه الحسنی.. له إجماع كل شيء.. وإطلاق كل شيء.. وهكذا كتابه وقرآنه.. له قدسية إلهية في كلامه.. وقدسية ربانية في قوله.. وقدسية عطاء متجدد متفرد في نصه!.

واللفظ رغم أنه نفس اللفظ الذي نعرفه ويستعمله الناس.. إلا أنه يتسع ويتعالى اتساع وتعالى روح معانيه التي لا تنفذ ولا تفنى.. وهذا أعجب ما فيه!.

فاللفظ في القرآن — غيره عند الإنسان — ليس قيذا للمعنى.. بل هو جسد لروحه.. وروح المعاني في القرآن عالية لا متناهية.. والجسد في كل آفاقها يعانقها لا يغادرها..

وهكذا فالتحدي والإعجاز والتسليم لا نجده وحده في معاني القرآن.. بل في ألفاظه وحروفه!.. وهذا ما لا يجتمع في غير كلام الله تعالى وقرآنه الكريم.

ولبيان القرآن صراط مستقيم يقصر عنه وينحرف دونه كل صراط..  
ترسّمت حروف كتابه على غير مثال معهود فيما عُرف "بالرسم القرآني"..  
وتنغمت أحرف تلاوته على غير مثال معروف فيما عرف "بعلم التجويد"..  
وتوازنت عدة حروفه وكلماته وآياته وفق نسق معجز غير مسبوق وغير  
ملحوق فيما عرف "بالإعجاز العددي" أو السياق الرقمي.. وتهانفت فتعاونت  
وتراسلت كلماته عبر السور والآيات، فتعاونت وتكاملت.. فأهدت لنا أنساقا  
منوعة من الأفكار، ورؤىً متعددة من الموضوعات فيما عرف "بالتفسير  
الموضوعي".

فكان الامتياز والتفرد والصيانة القالبية والقولية لكلام الله تعالى.. فكما  
هو الله وحده لا شريك له ولا ند له.. فهو كلامه وقرآنه وكتابه وحده لا  
شريك له ولا ند له.

ومن ثم فالفارق بين كلام العبد وكلام الرب.. فارق في القدرة.. والعلم..  
والحكمة.. فارق في الروح والحياة.. فارق ما بين بحيرة من ماء - مهما  
اتسعت - مغلقة على نفسها.. ما تأخذ منها حتى تنفد.. فارق بينها وبين نهر  
جار فياض متجدد الأمواج لا ينقطع له منبع.. ولا ينحسر دونه مصب.. مهما  
أخذت منه لا ينفد !!..

وتأتى فاتحة الكتاب في مقدمة الكتاب.. فاتحة لمعاني كل الكتاب التي لا  
تنضب ولا تنفد.. مع كونها لا تعدو صفحة من الكتاب وقليلًا من الكلمات..  
ولتبقى الفاتحة - مع هذا الحيز وهذه المساحة - فاتحة أبدا.. ولكل نصيبه  
من الفتح فيها..!!

وهكذا.. كان لباحثنا نصيب من الفتح في " نظراته حول سورة الفاتحة .. فلنرَ كم هذا الفتح.. وكم هذا النصيب ؟

وتأتى "نظرات" باحثنا في دراسته المتميزة.. دراسة لغوية بالأساس.. يستنفر فيها ويستجيش إليها كل الأدوات اللغوية الممكنة.

هو بحث من الداخل مستغرق على صيد الدرر والأحياء النادرة من الأعماق.. فغواصوه قليل.. وليس مشغولا ولا معنياً بصيد الأسماك من صفحة الماء الظاهرة.. فصيادوه كثير !

هو إذن.. بحث من الداخل.. وليس إسقاطا على الخارج.. وإن لم تخل منه الإشارة.. وعليه فهو أقرب ما يكون للمادة البحثية الواسعة التي يرجع إليها.. ويستفاد منها.. أو يقام عليها.

ويتسع تطواف الباحث إلى العديد والعديد من آيات الكتاب.. وكأنه لا يكتفي أن يصف لك الكعبة الحرام.. بل يشد إليها أقطار العالم المشدودة الراحلة إليها.. فإنه يراها بعين "أم القرى" فيضم إلى "أم القرى" كل القرى من حولها..

وهكذا لا يقنع أن يصف لك "فاتحة الكتاب".. بل يرد إليها – ما أمكنه الجهد والاجتهاد – إشعاعات آيات الكتاب.. فإنه يراها بعين "أم الكتاب".. فيضم إلى "أم الكتاب".. كل الكتاب!!

إن أدوات البحث وملكة التحقيق لديه تأبى الفصام بين الأم والكتاب!!.. وهذا وإن عدَّ من خصوصيات هذه الدراسة.. فهو من نتائجها أيضا..

ويتضح هذا جليا في تلك "السياحة المعجمية لألفاظ القرآن" والتي تستعيد اكتشاف السياق بزوايا ورؤى جديدة.. حتى وكأنما تسعى قدراته سعيا إلى

استلهم صيغ " التباديل والتوافيق " حلاً وتركيباً !!.. وقدرات الباحث نستوضحها بجلاء في هذا المجال.

– وهي قدرات مطواعة التشكيل.. لا تنحصر عند نمط واحد.. فمثلاً.. وقوع الباحث على معنى الفتح جذراً ومفتاحاً.. جعله يتعقب أحرف الكلمة في مواقعها المتصرفية في آيات القرآن ويستنبط منها علاقات الفتح بالفاتحة فاتحة الكتاب.. وقل نفس الشيء في علاقة كلمة "يمين" في الكتاب بـ "اليمن" في الفاتحة..

– ونمط ثان من طواعية التشكيل لديه.. فقد رد – في نهاية دراسته – المعاني التفصيلية لأربع من السور الطوال إلى المعاني الكلية في سورة العصر.. ثم رد تلك المعاني الكلية لسورة العصر إلى المعنى الكلي الأم للفاتحة أم الكتاب...

ونمط آخر عن آيات "الصراط المستقيم" على لسان عيسى عليه السلام.. نجده يردّها مفسراً ومبيناً لها في ضوء مراحل حياة عيسى عليه السلام نفسه..

– وتزخر دراسة باحثنا مع فاتحة الكتاب بكثرة هائلة من "التشبيهات والتصويرات".. مثل كون الفاتحة: عرفة.. النية الجامعة.. الركن والمقام.. الحجر الأسود.. الطواف والمسعى.. هي اليد اليمنى في الكتاب.. مركز المجرة.. مركز الدائرة.. المنشور الزجاجي.. مجمع البحرين.. والبيت المعمور..

ومرجع تلك الكثرة التصويرية إلى " خاصة " الفاتحة.. وكونها " أم الكتاب " التي يجتمع فيها كل ألوان طيف الكتاب!.

وأينما التفت نظر الباحث.. وجد وراء الأفق آفاقاً جديدة.. ولا يملك قلم الباحث إلا أن يسجل له تصويراً أو تشبيهاً جديداً.. وسوف تظل فاتحة الكتاب أكثر سور الكتاب عرضة للتمثيل والتصوير والتشبيه.. وغاية القول وفصل الخطاب.. أنها " أم الكتاب"!!.

– وكما تزخر "فاتحة" الباحث "بالتشبيهات" .. عنيت كذلك "بالفروقات والمتشابهات" .. وكأن الباحث يتمثل في دراسته خصوصية القرآن وهو كونه "كتاباً متشابهاً مثنائي" .. وعذر الباحث كذلك معه.. فهو يتعرض لفاتحة هي "أم المحكمات" وهي "المثنائي" و "أم الكتاب" ..

ولا ننس أن عنوان الدراسة " نظرات حول سورة الفاتحة " .. فتعددت نظراته للآية الواحدة.. حتى يحسبها القارئ أحياناً تكراراً أو تشابهاً.. نعم قد يحرص المؤلف على تأكيد الفكرة وبذات العبارة أحياناً.. ولكن الحال أنه أشبه بالساقى يأتي إلى معين الفاتحة فيدلى دلوه.. ثم يذهب منطلقاً هنا وهناك في كل أنحاء ومناحي الكتاب.. ثم يعود سيرته الكرة بعد الكرة متردداً بين معين أم الكتاب.. وسُقيا الآيات في الكتاب.. وهو في كل مرة.. يأتي دلوه بماء جديد.. وإن كان من ذات ماء المعين !!.

وفي كل ما تقدم.. يتجلى انحياز الباحث إلى مدرسة "التفسير الموضوعي" .. وهو لا شك من أنصارها.. إن لم يكن من فرسانها – وللمؤلف شغف بالغ بالرسم القرآني – أو المصحفي أو العثماني: سمّه ما شئت – وكذلك بتطبيقات علم التجويد.. إلى الحد الذي إذا أردت معه أن "تَسْتَلَّ" خيوط حديثه عن الرسم القرآني والتطبيق التجويدي من "نسيج" هذه

الدراسة.. لأمكنك أن تستقل ببحث خاص يمكن تسميته بـ " الرسم القرآني -  
أو التجويد - الموضوعي في سورة الفاتحة" ..

فإنه لا يكاد يدع آية من آياتها دون التفات أو توجه.. وهو في كل ذلك  
يستجمع ما أمكنه كل دلالات الصوت والصورة والحركة بكل ما فيها من  
ظلال إيمانية نفسية واجتماعية وكونية.. وهو ما يمكن أن نطلق عليه " فقه  
الرسم والتجويد في القرآن".

هذا الشغف للباحث يستمد طاقته من قناعة علمية تامة.. وملكة بحثية متميزة..  
قناعة علمية بأن كل ما يمكن أن يؤدي إلى استضاءة الفكرة واستيضاح  
المعنى.. يمكن أن نعهده أداة تفسيرية تقليدية كانت أو غير تقليدية..

فإن الرسم القرآني وأداته البصر.. والنغم التجويدي في القرآن وأداته الأذن..  
والسياق الرقمي وأداته العقل الحسابي.. كل ذلك - وغيره - يصلح أن يكون  
أداة للدلالة التفسيرية.. وإنه لا ينبغي الاكتفاء بالوقوف عند حد التوقيف.. فهذا  
حد العلم والتسليم.. بل يحسن الالتفات إليها وتفعيلها والإفادة منها.. وهذا وجه  
الحكمة والمعرفة..

- كما تتبدى لنا خصيصة أخرى من خصائص هذه الدراسة الموسعة.. وهي  
عنايتها بدلالات "الفروق بين المفردات" والتفريع فيها.. كما في الفروق بين  
الحمد والتسبيح.. بين ملك ومالك ومليك.. بين الصراط والسبيل والطريق  
والقسطاس.. وغيرها كثير..

ويتبدى من خلاله نزوع قوى لدى الباحث إلى "التصريف اللغوي" .. وهو  
ينضم به إلى إخوته من ملكاته البحثية اللغوية والدلالية المتميزة..

وكما في نظراته الأولى حول سورة الكهف: أفرد بحثا خاصا لدلالات المعاني ما بين " الرُّشْد والرُّشَد والرَّشاد "

ها هو في نظراته الثانية حول سورة الفاتحة: يفرد بحثا خاصا آخر لدلالات معاني " الهدى " ما بين المتعدي بذاته.. والمتعدي لغيره بـ "إلى" .. وبـ"اللام " ومن جميل الاتفاق أن كلا الباحثين في كلا الكتابين يتآلفان ويتناغمان ويتكاملان معا في انبثاقهما من مشكاة " الصراط المستقيم " في فاتحة الكتاب.. تلك المشكاة التي استضاء الباحث أنوار هداها في الكتاب كله مع صراط إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.. وكيف جمع وآلف ووجد صراطهم المستقيم.. مع التمييز في وشائج القربى والاختصاص ما بين صراط إبراهيم ومحمد.. وصراط موسى ومحمد.. وصراط عيسى ومحمد.. وصراط النبيين والمرسلين جميعا.. ومحمد ﷺ خاتمهم " بأكمل وأتم الصراط" .. وأفضلهم " بأهدى الصراط " .. وأخصهم "بأصل الصراط" في الكتاب.. صراط الفاتحة: الصراط المستقيم..

ثم لا ننس تأصيل الباحث في علاقة الحب الخاص والرحمة الخاصة بين رسول الإسلام ﷺ وأمة الإسلام.. كما كشفها لنا في فصله المقارن بين: أرحم الراحمين.. وخير الغافرين.. وخير الراحمين.. وكذلك ما فعله في سورة الفتح.. وما فعله ختاماً في فصله الموسع عن الصراط المستقيم وموقع الرسول وأمتة منه!!.



## - ومن نتائج وفرائد هذه الدراسة الموسعة القيمة:

- ما استحسنته الباحث عن "الإمام بن القيم" انسجاما واتفاقا يصل إلى حد التطابق مع نتائج بحثه: بأن الله قد استوى على أوسع مخلوقاته وهو العرش.. بأوسع صفاته وهو الرحمن..

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥.

- وقول الباحث: إن النسبة بين: "الله" و "الرحمن" و "الرحيم" هي كالنسبة بين: "الذات" و "التجلي" و "اتساع مشيئة البسط والنشر" - وعقده ما بين اسم الذات الجامع: "الله".. ورسول أسمائه الحسنى: الرحمن.. فجمع بينهما بدلالة الجوار "بسم الله الرحمن الرحيم".. وجمع بينهما بتفرد الذكر الخاص في الكتاب.. كما جمع بينهما من جهة التجويد: "الله .. الرَّحْمَنِ" .

- ثم وقفته مع دلالة "المليك" - مع آخر سورة القمر - بلوغا لقمة الاستيلاء والاستعلاء والاستقرار والتمكين ملكا ومالكا.. مع آخر سدول مشاهد الحساب في الآخرة.. وأول منازل الاستشراف في الجنة تطلعا بالكرامة العظمى تطلعا إلى وجه "الرحمن" .. مع أول سورة الرحمن التي تلي القمر.

- ثم خلوصه في سورة "الرحمن" - مع تفصيل وتعيد - إلى اسم الرحمن وصفته في الكتاب.. وأنه. ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

وبصدد اسم "الرحمن" وسورة "الرحمن" .. فلا أخفي القارئ ما أسرَّ به إليَّ أنه ودَّ لو تمكن من إتمام بحث مستفيض عن اسم "الرحمن" وعلاقة أحرفه: "الر - حم - ن" .. بالأحرف النورانية أوائل بعض السور: آلر. حم. ن.

ولكن البحث الآن حال دون لحوقه " بنظرات الفاتحة " أمران: أنه لازال قيد الدراسة والتأصيل.. وربما - أيضا - حتى لا يبدو بحث " الرحمن " بالتوسع فيه مستقلا عن سورة الفاتحة.. وإن كان في المبدأ جزء منها !!.. ومن ثم لزم منا الاستدراك والتنويه.

- وعودة إلي أهم نتائج دراسة الباحث.. ولعله أهم فرائدها.. بل " درة " هذه الدراسة..

وهو اهتداؤه الموفق في " الفاتحة " .. إلى خطين عريضين مميزين يمثلان نهري أو بحري المعاني في الكتاب كله:

مجرى: " الحمد لله. الرحمن. مالك يوم الدين. إياك نعبد... " ..

وهو مجرى البحر الإلهي الرحماني: عقيدةً وعبوديةً.

مجرى: " رب العالمين. الرحيم. إياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم "

وهو مجرى البحر الرباني الرحيمي شريعةً واستعانةً واستقامةً..

ثم كشفه الدلالي لمجرى كلا البحرين: الإلهي الرحماني.. والرباني الرحيمي..

في " إياك نعبد وإياك نستعين " في ضوء قوله تعالى:

- ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ۝ الرَّحْمَنُ: ١٩ حيث جمع الناس " الربوبية " ..

﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ۝

الإسراء: ٢٠ .

- ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ۝ الرَّحْمَنُ: ٢٠: حيث فرقتهما " الألوهية " .. فمؤمن

وكافر .

- ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ الرحمن: ٢٢ : وهذا اللؤلؤ والمرجان هو حظ وحصاد المؤمنين الذين " أوفوا بحق الله فيهم بالعبادة.. وأوفوا بحق الرب فيهم بالاستعانة.. فتقلبوا بين مقامي:

مقام: " نعبدك إليها رحمانا مالكا ليوم الدين " .

ومقام: " ونستعين بك ربا رحيمًا هاديًا إلى الصراط المستقيم " .

وهذان المجمعان وهذان المقامان يمثلان - في تقديري - أهم " كشف " تناولته سورة الفاتحة.. ويلخص ويجمع ذلك كله قول المولى تعالى.. وهو يطمئن أوليائه وأحبائه أصحاب هذين المجمعين وهذين المقامين.. يطمئنهم ويهنئهم ويهديهم منه " اللؤلؤ والمرجان ":

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الأحقاف: ١٣

- ولا ينبغي ونحن نشمر ساقنا عدوًّا وراء مؤلفنا الذي لا يكل بحثًا وتنقيبًا.. لا ينبغي أن نغمت حقًا واجبًا.. ولنسجل تقديرا خاصا لصاحب " كيمياء الصلاة " الدكتور العمري الذي أنس به الباحث كثيرا في دراسته..

وأكاد أقول وإن لم أقف على تفاصيل كتابه القيم.. أكاد أقول إنه لو انضم جناح صاحب " الكيمياء " بجاذبية لطف منطقه - وقد انضم فعلا !! - إلى جناح صاحب " النظرات " بقوة تأصيله وعمقه.. لشكلا معا أفقا عاليا من التحليق في " سماء الفاتحة " الذي يتسع دوما أمام ناظريه.. ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا

بِأَيْدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) الذاريات: ٤٧

- وبالأخير:

وإذا لم يكن بالضرورة تسليم القارئ أو اتفاقه كلياً مع جميع نتائج البحث.. فإن من ضرورة الإنصاف تقدير ذلك الجهد.. وتثمين ذلك الاجتهاد.. مع استقلال النهج وثاقب النظرة وتميز الفكرة ولطيف الإشارة.. وجديد الإضافة وهو شأن الباحث دائماً في كل ما يكتب!!.

**مصطفى علي**



## مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لي مع فاتحة الكتاب عبر أطوار العمر والحياة المتجددة وقفات وسبحات وتأملات ونظرات.

- فعبر مرحلة الطفولة وبراعتها حين بدأ الوعي الإدراكي يتفتح قليلاً كان يبدو لي من أمر هذه الفاتحة ما أراه عجيبيًا حقًا... إذ كنت أراها شاهداً على الحياة وعلامة على الموت في آن واحد!! .

لقد كان الأقارب يقرءونها عند الخطبة أو عقد القرآن لأحد الأبناء تبركاً وإيداناً بميلاد حياة جديدة تموج بالحركة والحياة.

وفي ذات الوقت وفي موطن آخر أجدهم يقرءونها عند التعزية على أمل أن يذهب ثوابها للروح المغادرة، وفي أحايين كثيرة وحين كان يصطحبني والدي (رحمه الله) معه إلى مدافن العائلة كنت أراها مجرد أحرف مكتوبة على شواهد القبور...!!

ولحدائثة طفولتي كنت أستحيى أن أسأل أحداً من الكبار حتى لا أبدو أمامه طفلاً صغيراً لا يعي ولا يفهم.

- ثم كانت مرحلة سبحات الصبا وقد اتسع الإدراك رويداً، وكنت قبلها بأعوام قليلة قد تعلمت على يدي والدي (رحمه الله) كيفية أداء الصلاة... فإذا بتساؤلات أخرى جديدة تثور في نفسي، وتلح على عقلي الصغير نسبياً.

...أليست الفاتحة من القرآن؟... لماذا إذن هي وحدها من بين سور القرآن لا تصح الصلاة إلا بها؟!.

لماذا لا نفعل معها ما فعله مع طوال السور فنجتزئ منها آيات، ومع  
قصار السور فنختار منها ما نشاء؟!..

لماذا شدّد على والذي بوجوب قراءتها هي بالذات تامة غير مجتزأة في كل  
صلاة.. فرضها ونفلها.. بل وفي كل ركعة من ركعاتها؟!..

...ومرة أخرى كنت استحيى أن أسأل والذي السر في ذلك.. مخافة أن  
أس قداسة وجلال هذه السورة العجيبة...!!..

- وعند آخر مرحلة الصبا والإشراف على مرحلة الشباب الباكر حين بدأت  
المدارك ترقى، والفهم يحيط ببعض المعاني، وكانت عيناى قد بدأت تألف  
القراءة والاطلاع في كتب الدين البسيطة.. إضافة إلى ما كنت أحظى به من  
حضور مجالس العلم حين كان والذي يصطحبني معه إليها.

إذا بظلال الخصوصية تفرض نفسها مرة أخرى على هذه السورة  
العجيبة، حيث تكشف لي أن هذه السورة الكريمة التي تصدر الكتاب الكريم..  
لم تكن أول ما نزل من القرآن، ولا هي من أوائل السور التي نزلت بمكة..  
ومع ذلك فهي تتقدم طوال السور والمئين ولم تنضم إلى أخواتها من مفصل  
قصار السور في الجزء الأخير المتمم للكتاب الكريم...!!..

... أدركت حينئذ أنه لا بد أن لهذه السورة القصيرة في المبنى.. من  
الصفات والأسرار ما ليس لغيرها من سور الكتاب الكريم.

- ثم كانت مرحلة الشباب بقوتها وفتوتها ونضوجها وقد اتسع نهر الإدراك  
والفهم.. فكان لي مع فاتحة الكتاب جولة أخرى ظهر لي من خلالها أنها أول  
سورة من سور القرآن قد نزلت كاملة في مرة واحدة... وأن هذه السورة  
الكريمة هي وحدها التي ثنيت في التنزيل.. مرة بمكة.. وأخرى بالمدينة...

كما أن لها من بين سور القرآن أكثر من عشرين اسماً.. مما يدل على علوها في الشرف والمنزلة... وأن هذه الأسماء المتكاثرة تشير إلى احتواء الفاتحة لمضمون الكتاب، خاصة وأن آياتها لم تتكرر في الكتاب الكريم على مثال سبق

... لقد بدأ يتبين لي سر قول الرسول ﷺ لأحد صحابته عنها في الحديث الذي رواه مسلم " لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ثم قال رسول الله ﷺ هي "الحمد لله رب العالمين " هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته". (1)

ثم بدأت صحبتي للقرآن في المرحلة الأكثر نضوجاً من مراحل العمر تأخذ منحنيّ آخر.. ومع فاتحة الكتاب على وجه الاختصاص شأناً آخر... فأقبلت في نهم على قراءة كل ما كتب عن هذه السورة الكريمة في التفاسير المختلفة وغيرها من الكتب الدينية أتلّس ما أنشد به ضالتي واستجلي بعضاً من أسرارها وفيوضاتها... من ذلك ما جاء في مدارج السالكين للإمام ابن القيم عن " إياك نعبد وإياك نستعين.. قائلاً " وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع انتهى إلى هاتين الكلمتين.. وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة.. جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن.. وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن.. وجمع معاني القرآن في المفصل.. وجمع معاني المفصل في الفاتحة.. ومعاني الفاتحة في:

---

1 - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج4، / ص19 ح. 17884.



﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... وما رواه ابن كثير عن بعض السلف "

إن الفاتحة سر القرآن وسرها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾...

ومع تلمس هذه المعاني تبين لي.. لماذا هي الفاتحة قسمة بين الرب وعبده.. وأن جميع القرآن مودع في الفاتحة؟.. وتبين لي سر صدارتها.. فإنها لو وضعت بجانب أي سورة من سور القرآن لناسبتها بوجه من الوجوه.. إذ ما من سورة إلا وفيها تفصيل لبعض ما أجملته معانيها.

- ثم كانت هذه المرحلة التي أنعم بها وأعايشها منذ أعوام قليلة... حيث تفرغت للحياة مع هذا الكتاب الكريم، وجاهدت فيها نفسي أن أدفع عنها عوارض الحياة الدنيا وشواغلها، والإقبال بالقليل على الحياة في ظلال نعمة ونعيم القرآن.. والتي يصفها صاحب الظلال: "بأنها نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، لأنها نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. وذلك أن الفرق بين معايشة القرآن والمعايشة بين كلام الناس على حسنه لا يمكن وصفه وتفصيله، وإن أمكن بالقياس الجلي تحصيله".

### **أرأيت الفرق ما بين الخالق.. والمخلوق**

### **إنه هو الفرق بين القرآن.. وما عداه من سائر الكلام**

في هذه المرحلة عاودني الحنين والشوق وبصورة أكثر قوة إلى استجلاء فاتحة الكتاب وبيان وتحقيق أنها أم الكتاب.. وأن كافة معاني القرآن وتفصيله مودعة بين آياتها... فأقبلت على كتب البلاغة في القرآن الكريم أتلمس ذلك فلم أظفر إلا باليسير.. ثم رحلت أنشد ذلك في القليل مما نشر عن التفسير الموضوعي للقرآن على مستوى السورة الواحدة، وما ندر في التفسير

الموضوعي على مستوى الكتاب الكريم كله.. فلم أظفر أيضا إلا بواردة هنا وشاردة هناك... وعقدت العزم على أن أخوض غمار ذلك البحر اللجى بنفسى.. شجعتني على ذلك ما أحسسته من أن روضات معايشة الكتاب الكريم قد بدأت تؤتي أكلها، وتثمر في نفسي ثمارها، ومع ذلك فالقد كانت مهابة القرآن الكريم وجلال فاتحة الكتاب يمنعاني دائما من الإقبال على ذلك.

- ومرت ثلاثة أعوام.. وأثار الإعجاز القرآني تترأى لي، وتقوى يوما بعد يوم، فعدت إلى فاتحة الكتاب وقوى في نفسي أن أتولى هذا البحث وأتوسع فيه... وظللت أعكف على كتاب الله فتزداد فكرة البحث والدراسة في نفسي رسوخا... ثم تشغلني عنه شواغل أخرى في كتاب الله، فيرتد البحث أمنية في الضمير.. ورغبة في الشعور.

- ثم شاء المولى سبحانه وتعالى أن أتوفر عليه ليثمر هذا الجنى: "نظرات قرآنية حول فاتحة الكتاب".

شعجني على ذلك أخوة من رواد ووراد نهر القرآن العذب... لم يفقوا عند حد التشجيع والمؤازرة فقط.. بل كان لكل منهم بصمة واضحة وفضل يد في هذا البحث الجليل.

...من هؤلاء الأخ الكريم مصطفى علي بخواطره وسبحاته الخاصة وكأنما هي تنتزل عليه من عالم الملكوت.

وكذلك ما أفدت منه من أخوة مجلس مدارس القرآن الذي نعقده أسبوعيا.. ولا نلبث بعدها أن نحنُّ إليه بعد لحظات من مغادرته.. ويأتي في مقدمة هؤلاء.. الدكتور/ إمام العدس، بموهبته وملكته الفريدة في استقراء

عناصر الوحدة الموضوعية على مستوى السورة الواحدة، وكذلك على مستوى الكتاب الكريم كله.

.. ويكفي أن كان له الفضل في هدايتي إلى قراءة كتاب "كيمياء الصلاة" للدكتور العُمري.. الذي أفدت منه كثيراً، بل لقد أهداني نسخة منه.

وكذلك ما أفدت منه من فارس من فرسان المجلس، وهو الدكتور/ مصطفى عاصم.. الراعي الرسمي للمجلس بحواراته ومناقشاته ووقفاته الدقيقة.. ولقد كان له الفضل في توجيه الباحث إلى التركيز على أن معاني الفتح هي باب الولوج الملكوتي للوقوف بين يدي هذه السورة الكريمة.

... وكذلك.. الدكتور/ باسم السعيد، وقد أفدت من خواطره ولمساته البيانية عامة.. وخواطره العديدة خاصة.

- ولقد تبين لي في نهاية هذه الدراسة ما أستطيع أن أنجزه وأوجزه في التالي:

إن للفتحة "أم الكتاب".. التميز والصدارة وبلوغ القمة القرآنية.

بسملتها: افتتاح القرآن كله بالخير كله... وهي هوية افتتاح صفحة الوجود:

"كن" .. إذ "كن الوجود" .. إنما هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

و"حمدها": حمد الاستيعاب والشمول.. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

"ورحماتها" ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ..رحمة وسعت كل شيء... جامعة على

العموم بجلالها وجمالها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ... غامرة بجمالها المؤمنين على

الخصوص: ﴿الرَّحِيمِ﴾ ..

و"آخرتها" ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. جماع الملك والملكوت.. "ويومها" ميراث الزمان كله وجماعه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : فكمال العبودية له وحده، وكمال الاستعانة به وحده محصورتان في تلك "الكلمتين" الجامعتين المانعتين اللتين عليهما مدار الكتاب كله والوجود كله.

و"صراطها المستقيم" : هو أول الرتق في الكتاب.. وأول الفتح للكتاب.

... فصراط الفاتحة المستقيم: صراط تأسيس وتعريف على الإجمال

... وصراط القرآن المستقيم: صراط إنشاء وتحقيق على التفصيل.

... وختاما:.. فلست أشك وأنا في نهاية التطواف الطويل مع فاتحة الكتاب..

بل أعلم يقينا أنى بعد فترة وجيزة سوف أتمنى أن أستقبل من أمري ما استدبرت، فأبدأ الطريق ثانية مع الفاتحة من أولها.

... ففي الكون طاقات مادية كامنة، وفي القرآن طاقات دلالية كامنة، وقدرتنا

على الاكتشاف هنا وهناك.. محدودة بحدود خصائصنا من حيث كنا بشرا.

... هذه الطاقات الدلالية.. منها ما تحمله الألفاظ والتراكيب.. ومنها ما

تستتبعه هذه التراكيب وتوحي به.

... وإذا كانت دلالات الألفاظ والتراكيب في النص القرآني من السعة

والثراء بحيث يستحيل استيعابها والإتيان عليها، فإن إحياءات التراكيب فيه

بحار زخارة، ما إن تشمر ساقيك وتنزل إلى أحد شواطئها..حتى تستشعر من

عمقها وسعتها ما يجعلك تتوقف حيث أنت.. إن لم ترتد إلى الوراء خيفة أن

تغرق في هذا الخضم اللجي الذي تتواتر عليه أمواجه... والذي لا يعلم مداه..  
ولا يحيط بما يحويه من أسرار سوى من أنزل القرآن... سبحانه!

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ

جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ الكهف: ١٠٩

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فاتحة الكتاب

### من فتح الكتاب إلى فاتحة الكتاب:

الفتح هو باب الولوج الملكوتي للوقوف بين يدي هذه السورة الكريمة... هو الشاطئ الذي تبحر منه وإليه كافة المعاني القرآنية... ويشير إلى ذلك بقوة.. تلك الدلالة التعريفية لاسم السورة: بألـ "الفاتحة" .. أو بإضافتها إلى الكتاب: "فاتحة الكتاب" ... هذا فضلا عن الدلالة التعريفية لاسم الفاعل مقترنا ببناء العَلَمِيَّة العظمى "الفاتحة".

وبذا تصير الفاتحة، أو فاتحة الكتاب علماً على الكتاب الكريم.. فهي مبدؤه الذي يفتح به ما بعده.. فالسورة بمثابة الفتح المبين للكتاب الكريم بكل معاني الفتح المدركة بالبصر والبصيرة...

وإذا كانت سورة الفتح.. واسم الفتح علم عليها.. وهي في الترتيب تقع بين ثنايا الكتاب الكريم، وقد استهلّت بمادة الفتح مرتين ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: ١.. قد حملت معها ذلك الفيض الإلهي الهائل من البشريات.

تمثّل للرسول ﷺ (1) في فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.

---

1- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ الفتح: ١ - ٣ .

وتمثل للمؤمنين<sup>(1)</sup>: في السكينة والطمأنينة، والثبات والرسوخ، بل: ويزدادون إيماناً مع إيمانهم، والنصر والغلبة التي لوَّح الله لهم بها بقوله

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الفتح: ٤

وهذا نصيبهم من الدنيا.. وأما نصيبهم في الآخرة: ففوز عظيم بدخول جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.. قد كفرت عنهم سيئاتهم ارتقاء بمنزلهم في الجنة.

..وفي الوجه المقابل<sup>(2)</sup>: عذاب جهنم للكافرين بكافة ألوانهم وغضب من الله، ولعنة، وسوء مصير يحاصرهم.

- تُرى... ماذا عسى أن تكون معاني الفتح ودلالاته لسورة قد سميت بالفتحة وفتحة الكتاب، بل هي أم الكتاب، تصدرت الكتاب العزيز ولم تكن أول ما نزل من القرآن.. ولا هي من أوائل السور التي نزلت بمكة.. تقدمت الطوال والمئين.. ولم تتضمن إلى أخواتها من مفصل قصار السور في الجزء الأخير المتمم للكتاب الكريم.. نكررها في اليوم الواحد في صلواتنا تامة غير مجزأة سبع عشرة مرة على أقل تقدير... وتفردت آياتها السبع فلم تأت في الكتاب كله على مثال سبق؟!.

---

1- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ الفتح: ٤ - ٥ .

2- ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۚ بِاللَّهِ ظَنَنَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السَّوْءِ ۗ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ الفتح: ٦ .

...لا شك أن معاني الفتح، ودلالاته، قد تجاوزت وتجاوزت كل معاني الفتح الواردة في السياقات القرآنية المختلفة منفردة ومجموعة.

وماذا عسى من يتدبر في كتاب الله أن يحوز من معاني الفتح؟..  
لن يستطيع أن يحصر أو أن يرصد كل المعاني... بل لن يستطيع أن يغوص في بحر معنى واحد من معانيه... أقصى ما يستطيعه إذا قدر له المولى وفتح له... أن يلم ببعض شذرات، أو قبسات، أو لمسات من بحر فيضه وفتحه المبين.

- من ذلك أنها فتح الرحمة العامة الشاملة للناس جميعاً.. تنفرج وتنبسط.. تفيض وتتدفق بإذن الله للناس من رحمة لا ممسك لها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فاطر: ٢

تمثلت في كتاب من عند الله، يحمل معه التبيان لكل شيء والهدى والرحمة والبشرى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩

...من صفاته الخاصة أنه هدى... وموعظة.. حكيم.. مبين.. غير ذى عوج.. قيم.. فرقان.. صحف مطهرة.. شفاء.. بصائر... مبارك.. بشرى.. روح.. مهيمن.. نور.. برهان..

...نزل على رسول هو عين رحمة الله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧ من باب الرحمة العامة.. ثم هو أيضا رحيم

بالمؤمنين ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا



عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾ مَنْ  
باب الرحمة الخاصة.

من صفاته الخلقية التي يصفه الكتاب الكريم.. أنه "...﴿لَعَلَّ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾

...وهو عين الأسوة الحسنة.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١... تلك

الأسوة المباركة التي تعرج بصاحبها ليكون في جنات ربه.. تحلى بالعفو

والمغفرة كما أمره ربه ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

آل عمران: ١٥٩ فخفض جناحه للمؤمنين ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ٢١٥.

... كان قمةً في الاستقامة امتثالاً لأمر ربه ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ

مَعَكَ﴾ هود: ١١٢ .

...الخلاصة فيه.. كما قال عن نفسه ﷺ (1) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

...وكما قالت عنه السيدة عائشة "كان خلقه القرآن"(2)...وكما نطقت سيرته

العطرة الشريفة عنه في الخلق.. كان قرآنا يمشي على الأرض.

1- السنن الكبرى للبيهقي ج10 / ص 192 باب - بيان مكارم الأخلاق.

2- رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 / ص 116 ح 308.

...ثم كان من ثمرات الرحمة العامة الفياضة أن تضرع المؤمنون إلى التماس الرحمة الخاصة متمثلة في طلب الهداية الخاصة بالأصالة عن أنفسهم والنيابة عن إخوانهم بعد الإقرار له بكمال العبودية، وكمال الاستعانة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. فكان الفتح لهم بالتماسها في الكتاب الكريم فتحاً قريباً ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ البقرة: ١ - ٢... من خلال النافذة الوضيئة في روح الإنسان وهي الإيمان بالغيب ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ لبقرة: ٣... ذلك الغيب الذي لا يملك مفاتحه إلا الله ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: ٥٩

...ولم تقتصر ثمرة طلب الهداية الخاصة من خلال الإيمان بالغيب، وما استتبعه من أمارات وعلامات على الفوز بالهدى الفلاح المنشود..

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ٥... فحسب... بل عرج وسما بأمة الإسلام فحباها فضل الجمع بين "الصراط المستقيم والوسطية" لتكون الأمة القائدة الرائدة الحاملة لكل معاني الفضل والخيرية بين سائر الأمم" .. ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢)

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١٤٣﴾

البقرة: ١٤٢ - ١٤٣

## سياحة قرآنية أخرى في معاني الفتح:

- ومن فتح الرحمة الشاملة للناس جميعاً بالكتاب والرسول ﷺ. إلى فتح الوسطية والهداية الخاصة للمؤمنين.. إلى فتح والتماس أخص بالنصر والغلبة ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصف: ١٣... الذي لوح إليهم به ﴿فَعَسَىٰ أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ المائدة: ٥٢... حتى ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر: ١ "..... فسبق النصر هنا الفتح تحقيقاً لما وعد به رسوله الكريم في سورة الفتح، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: ١ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ الفتح: ٣... حيث كان الوعد بالنصر ختام البشريات له في سورة الفتح ليستهل به في سورة النصر مع الوعد بالفتح الواسع العريض ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ومن فتح النصرة والغلبة.. إلى فتح القضاء والعدل في الدنيا ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ سبأ: ٢٦... إلى الفتح المادي عدلا وقضاء في الكفار ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا﴾ الزمر: ٧١... في مقابل الفتح المادي عدلا وجزاء للمؤمنين ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الزمر: ٧٣.

...هذا فضلا عن الفتح الغامر الفياض بغير حساب لبركات السماء والأرض التي تتجاوز ما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦ .

### الثراء اللغوي لمادة الفتح:

...وهكذا ونحن نجوب ونطوف على قدر استطاعتنا مع معاني الفتح في القرآن الكريم نفاجاً بأن معانيه قد تجاوزت ما هو مادي يدرك بالبصر في الدنيا والآخرة إلى ما هو أيضا معنوي يدرك بالبصيرة في ذات الدارين، وليس أدل على ذلك من أن مادة الفتح بأحرفها الثلاثة تكاد أن تكون قد تعدت بكل أحرف الجر فضلا عن تعدي الفعل بنفسه بما يدل على ثراء المعاني وتعددتها لمادة الفتح "هذه".

فمن شواهد تعدي الفعل بذاته قوله تعالى: ﴿ فَفَنَحْنَاهُ أَبُوَاب السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمِرٍ ﴾ القمر: ١١ ... ومن شواهد تعدي الفعل بالأحرف على اختلافها وتنوع دلالاتها ﴿ أُنْحَدِّثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ البقرة: ٧٦ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح: ١ ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف: ٨٩

- وجاء المصدر مقترنا بـ"من" في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ النساء: ١٤١

- كما جاء الفتح مسندا إلى ذاته العلية "نا" التعظيم، كما في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وكذلك مسندا إليه ربا وإلها بصيغتي المبني للمعلوم والمبني للمفعول كالتالي:

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا قُلُوبُهُمْ... ﴾ .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ سبأ: ٢٦ .  
 ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾  
 الزمر: ٧٣ .

- وجاء أيضا مسندا إلى البشر، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف: ٨٩ .

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ البقرة: ٨٩ .

- كما جاءت مادة الفتح بكل صورها الفعلية بين ماضٍ، ومضارعٍ، وأمرٍ.. على صورة الفعل المجرد كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْحَدُوا نُورَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فاطر: ٢... ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف: ٨٩

... وجاء على صورة المزيد مع الماضي والمضارع كما في قوله تعالى:

﴿ وَأَسْفَتْحُوا وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إبراهيم: ١٥

﴿ إِن تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ الأنفال: ١٩

- كما جاءت المادة أيضا بمعظم الصور الاسمية بين مصدر، واسم فاعل،  
واسم مفعول وصيغة مبالغة، واسم آلة.. كما في الشواهد التالية على الترتيب:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح 1 ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف: 89

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ ص: ٥٠...

﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ سبأ: ٢٦ "...

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ٥٩.

- ماذا يعني كل هذا الثراء اللغوي العريض لمادة الفتح في ثنايا القرآن كله، ثم  
تأتي سورتنا الكريمة تتقدم كل هذه السور بصيغة لها وحدها من الفتح تفردت  
بها.. هي علم عليها: "الفاتحة" أو "فاتحة الكتاب".. كما جاء في السنة  
المطهرة.. "لا صلاة لمن لم يقرأ بأمر القرآن" (1)

...لا شك أن الفاتحة بذلك تكون النهر الذي تستنبت على شاطئيه دقائق  
ولطائف المعاني القرآنية.. أو أن الفاتحة بصيغتها المتفردة.. هي الزجاجاة  
الدريّة للمصباح القرآني.

---

1 - متفق عليه .. رواه الستة.

## زلفى بين يدي فاتحة الكتاب

للفاتحة بين سور القرآن منزلة ومكانة خاصة تتفرد بها.. ويطيب في ذلك أن نستدعي ما قلناه في أول البحث... من أنها تتصدر الكتاب العزيز رغم أنها لم تكن أول ما نزل من القرآن.. ولا هي من أوائل السور التي نزلت بمكة.. وهي تتقدم طوال السور والمئين.. ولم تنضم إلى أخواتها من مفصل قصار السور في الجزء الأخير المتمم للكتاب الكريم.. نكررها في صلواتنا تامة غير مجزأة في اليوم الواحد سبع عشرة مرة على أقل تقدير.. وتبطل كل صلاة بغير قراءتها في كل ركعاتها فرضها ونفلها.. تعددت أسماؤها فأشارت بذلك إلى علوها وسموها في الفضل والشرف.. تفردت آياتها السبع فلم يأت مثلها في الكتاب على مثال سبق.... لم ينته العلماء والمفسرون مع دأبهم إلى حصر أسرار عظمتها.. بل لم يتمكنوا من الغوص أو الإبحار مع سر واحد من بحار أسرارها.

... لو أردت تمثيلاً أو تقريباً لها على سبيل الاستشعار بمكانتها ومنزلتها..

نقدمه زلفى بين يدي فاتحة الكتاب:

**الفاتحة عرفة والنية الجامعة:** فهي في ذلك كالنسك الذي لا يقوم الإسلام إلا به.... بل هي في كل نسك الفرض والركن الذي لا يقوم النسك إلا به... فهي الركن والمقام.. بل هي "عرفة" كتاب الله التي يجب أن يحج ويفد إليها سائر المصلين في صلواتهم، وفي كل ركعة من ركعاتهم..

إنها القبلة و"الكعبة القرآنية"، التي يطوف حول معاني آياتها السبع كافة سور

وآيات القرآن مستهلة "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" عند الشروع في قراءتها..

وبدايتها كـ"بسم الله والله أكبر، والله الحمد" عند الحجر الأسعد استهلالاً للعمرة أو الحج واستهلالاً لكل طواف...

...إنها وهي السبع المثاني "مسعى" آيات وسور الكتاب التي تروح وتغدو بين أحكامها وشرائعها مجملة.. وآياتها السبع هي "جمراته السبع" التي ترجم أي عقيدة أو أيولوجية أو نمط حياة مخالفة أو متناقضة مع ما أمر الله به..  
...ولا تتوقف روح الفاتحة وهداياها عند كونها كعبة القرآن وعرفة الكتاب.. بل إن الفاتحة يسرى روحها وهداياها في أركان معظم العبادات.. بل فيها كلها...

.. إن الفاتحة من القرآن كالنية الجامعة لإجمال الصيام للشهر المبارك بنية واحدة في أوله.. والقرآن منها هو النية المتجددة يوماً بيوم مع التهيؤ لصيام يوم جديد.

### بين اليمين في الكتاب.. ويمين الكتاب:

إن الفاتحة وهي "أم الكتاب" .. على قمة الهرم القرآني ﴿حَمَّ﴾ (١)  
وَأَلَكْتَبِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ  
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿الزخرف: ١ - ٤﴾

... هي اليمنى فوق يسراه من باقي سائر سور القرآن.. تماماً كوضع اليد اليمنى فوق اليسرى تجاه القلب في صلواتنا.. إنها الفوقية المهيمنة لليمين على اليسار.. فوقية هيمنة واحتواء لا فوقية إلغاء أو إقصاء.. فإن شمال ويسار سور الكتاب "مشمول وميسور" بيمين فاتحة الكتاب.. إن العلاقة بين



اليمين واليسار فيها كالعلاقة بين قوله تعالى: ﴿ فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا ﴾ ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَتِ

يُسْرًا ﴿ الذاريات: ٢ - ٣ .

... وهذا معني "صدارة" الفاتحة للكتاب الكريم.

... إن المصحف الكريم وهو مسكن ووعاء القرآن.. الفاتحة فيه هي جنته عن

اليمين.. وسائر سور القرآن جنته عن الشمال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي

مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ سبأ: ١٥... انظر ها هو القرآن

ينفياً ظلالة عن اليمين ممثلاً في "فاتحة الكتاب". ويتفياً ظلالة عن الشمال -

جمع شمال - ممثلاً في سائر سور القرآن.. سجداً داعياً إلى الله تعالى

بالتوحيد والتسليم.

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَيَّوْهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ

سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ النحل: ٤٨

...إنهما اليمين والشمال المتكاملان.. تماما كشقى أو فصى المخ والدماغ

للإنسان: شقه الأيمن مهيمن على كل ما فيه من الحدس والخيال والإبداع

والإجمال.. وشقه الأيسر يفسر ذلك الإبداع والإجمال بالمنطق والقواعد

والتفصيل..

ونصل إلى ذات النتيجة نفسها من باب الإشارة والخاطرة أيضاً أنه إذا

كان اليمين صفة مشبهة من اليُمن بمعنى البركة، والشمائِل جمع الشميلة

بمعنى الفضيلة فإن العنوان الجديد للآية من باب الخاطرة يكون يُمن الإجمال

للفاتحة وشمائِل التفصيل بالقرآن .

... فالفاتحة في ذلك هي مركز المجرة التي تشد وت جذب إليها سائر السيارات والأجرام الكونية فتدور حولها دورانا متصلا.

.. وبتقريب أدق هي الدائرة الكبرى المهيمنة بزاوية دوران قدرها محيط الدائرة تماما كدورة عقارب الساعة حول محورها ومركزها.. مركز تلك الدائرة العظيمة هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وهذا المركز بدوره هو لب الثمار، وسر الأسرار، إذ الفاتحة كما قال عنها ابن كثير: "الفاتحة سر القرآن .. وسرها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ..

.. وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وعبده نصفين، نصفها له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .. ونصفها لعبده ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وكل قطر بنهايته يمر بذلك المركز .. أوله ومبدؤه على محيط الدائرة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

... قال رسول الله ﷺ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ بسم الله فهو أبتـر"<sup>(1)</sup>...، ونهايته على محيطها من الناحية الأخرى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾ .. قال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام: ١٥٣

فالاتباع مقصود إلى الغاية.. موصول حتى النهاية.

... هذا عن الفاتحة.. فما بال القرآن من هذه الدائرة ؟..

إن سور القرآن هي قاسم الزوايا الحادة لهذه الدائرة العظيمة حول مركزها، ويمثله مائة وثلاثة عشر قاسماً بعدد سور القرآن التالية للفاتحة.. فدائرة

1 - إرواء الغليل .. رواه الخطيب والحافظ عبد القادر الزهاوي.

الفاتحة كشق المخ الأيمن.. هي المهيمنة، وقواسم ومقاطع السور هي كشق المخ الأيسر المفصل لتلك الدائرة.. فجميع ما في القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة.. فإنها بنيت على ما يحويه القرآن مفصلاً..

...ودلالة ذلك أنه لو وضعت الفاتحة بجانب أي سورة لناسبتها بوجه من الوجوه.. إذ ما من سورة إلا فيها تفصيل لبعض ما أجملته الفاتحة.. ومن ثمّ سميت "أم القرآن".. و"أم الكتاب".. وهذا المعنى سيتناوله الباحث بالتفصيل في نهاية الكتاب.

.. ولا يزال التواصل بين اليمين في الكتاب ويمين الكتاب يفيض "بِئْمَن" هذا اليمين.

هاهو يجدد لنا من فتوح معانيه أن الفاتحة فوق أنها يمينا القرآن.. فإنها "الميمنة" حاملة علم وراية القرآن العالية الثابتة.. كما في قوله تعالى:

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ الواقعة: ٨

فهي أقصى اليمين.. وسائر سوره هي اليمين له وتفاصيله..

وإذا كانت ﴿يس﴾ هي قلب القرآن كما قال رسول الله ﷺ (1)..

وقلبها قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ يس: ٥٨ ... فإن الفاتحة من

القرآن كقلب القلب، أو المخ من الرأس.. وسنامها.. ﴿إِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ .

---

1 - قال رسول الله ﷺ: إن لكل شيء قلبا ، وإن قلب القرآن يس ، من قرأها يريد وجه الله تعالى غفر له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنين وعشرين مره .. أخرجه الترمذي في كتاب ثواب القرآن والدارمي في كتاب فضائل القرآن.

...أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله " استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم "، ثم قال لأعلمناك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: " الحمد لله رب العالمين" .. هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

...فالفاتحة وهي الهاتف الذي يهتف بكل سور القرآن وهو ينشدها في كل معانيه ودلالاته أقرب ما تكون بندايات الخير والوحي والهدى التي انطلقت من الجانب الأيمن من القرآن..تماما كندايات الوحي التي انطلقت مع موسى من جانب الطور الأيمن.

﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ مريم: ٥٢.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ

أَنْ يَمْوِسَّ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ القصص: ٣٠.

...لقد اختار الله الشاطئ الأيمن ليوحي لموسى.. ليبدأ وحيه من هناك.. وليدلف الوحي معه إلى قلب موسى وعقله وكل كيانه

...لقد اختار الله اليمين معولا لهدم كل رموز الشرك وأصنامهم وأساطينهم، كما

فعل إبراهيم عليه السلام " فراغ إلى الهتهم فقال: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا

تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ الصافات: ٩١ - ٩٣

## إنه اليمين مجدداً:

... لقد اختار الله الفاتحة... لبدأ بها كتابه وقرآنه جانباً أيمناً لبقعة القرآن المباركة

... لقد اختار الله الفاتحة... ليدلف بمعانيها وكلياتها المجملة إلى قلب وعقل كل مؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله.

وليس من قبيل المصادفة أن النداء والوعد الإلهي مرة أخرى لنبى

إسرائيل كان في الجانب الأيمن وقد حمل معه الخير والنعيم ﴿يَبْنِي

إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْمَعْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

الْمَنَّ وَالسَّلْوى ﴿طه: ٨٠.

...انظر إلى أمر اليمين وهو يشير إلى جانب التفاصيل مقارنة بالأيمن... فبعد

أن أصبح موسى في الجانب الأيمن من الطور والبقعة المباركة، كان السؤال

عما في يمين موسى ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿طه: ١٧... إنه اليمين

مجدداً. فماذا كان رد موسى؟.. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى

غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴿طه: ١٨.

... إنه السؤال عن التفاصيل.. فما في يمين موسى سيكون له مآرب أخرى

أكبر بكثير من تفاصيل الحياة الصغيرة... ما في يمين موسى سيكون له دور

في تغيير العالم من حوله... ما في يمين موسى سيقود الثورة ضد فرعون،

وسيقود حملة الإصلاح الاجتماعي لقومه.. ونحن نعرف ما جرى مع ما في

تلك اليمين مع السحرة... مع فرعون.. ومع ذلك البحر يوم انشق لإنجاء قوم

وإهلاك آخرين.. كل ذلك مر باليمين على سبيل التفصيل بعد نداء موسى من جانب الطور الأيمن... !

فإذا كانت الفاتحة هي الأيمن من القرآن...

فإن ما في اليمين من سائر سور القرآن بعدها هو التفصيل والبيان والمنهاج الواضح المعالم لما أجملته الفاتحة في ذلك الجانب الأيمن من القرآن... وإن الفاتحة لتتواءم وتتجانس مع كل نداءات الوحي القرآني، ومع كل نداءات الرسائل الأخرى السابقة على الإسلام.. فإذا كان موسى "عليه السلام" قد نودي من جانب الطور الأيمن ومحمد ﷺ قد أوحى إليه في قمة حراء... فالفاتحة وهي ركن من أركان الصلاة التي أمر بها محمد وأُمَّته بالأمر المباشر من الله، وبلا واسطة وهي كسائر سور القرآن الأخرى، قد كُلف بها الرسول ﷺ من تحت العرش وقد كان قاب قوسين أو أدنى في رحلة الإسراء والمعراج.

... والآن نعيش مع دلالات "صدارتها" كتاب الله.. وتكرارها في صلواتنا.. وتعدد أسمائها.. وما إلى ذلك مما تنفرد به "فاتحة الكتاب".



# من منازل الفاتحة





## من منازل الفاتحة

المنزلة الأولى: دلالة صدارتها:

1- الأصول الخمسة: والسؤال.. لماذا تتصدر السورة الكريمة الكتاب الكريم...؟...

لماذا هي على قمة الهرم القرآني؟.

يقول صاحب المنار في تفسير الفاتحة: "إن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول الخمسة التي يفصلها القرآن تفصيلاً: أولها: "التوحيد".. في قوله

تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وثانيها: "الوعد والوعيد".. حيث ينطوي الأول، أي الوعد في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾ .. وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يتضمن الوعد والوعيد معا...

وثالثها: "العبادة".. التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبتته في النفوس، وذلك في

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... ورابعها: "بيان سبيل السعادة"..

وكيفية السير فيها الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة، وذلك في قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّعِبَادِهِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْسَنَ حُرْمَتِ اللَّهِ عِندَهُمْ لِمَنِ لَبَسُوا حَلَّتْ ثِيَابُ الْإِسْلَامِ﴾

أخيراً: "الاعتدال والاعتدال".. من وقفوا عند حدود الله وأخذوا

بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهرياً، لأجل

الاعتدال والاعتدال، واختيار طريق المحسنين، ومعرفة سنن الله في البشر

وذلك في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

...ويضيف صاحب المنار قائلاً: فكان إنزالها أولاً "بقصد ترتيبها في الكتاب "

موافقا لسنة الله في الإبداع.. وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى "أم

الكتاب" .. كما تقول: إن النواة أم النخلة، فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة.

...ويشير صاحب الظلال أيضا الى طرف من حكمة صدارتها، فيقرر بأن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجيهات، ما يشير إلى حكمة تكرارها في كل ركعة من صلواتنا، وبطلان كل صلاة بغير قراءتها.

... وطرف أو سر آخر من أسرار صدارتها للكتاب الكريم وتسميتها بأم الكتاب .. وهو: "روح الوسطية" التي تسري فيها..

## 2- روح الوسطية:

وكونها على قمة الهرم القرآني يكمن في روح الوسطية التي تسري فيها..  
فإن أي طريق تسلكه وأنت تقرأ الفاتحة يفضي بك إلى الوسطية:

- فإنك إن سلكت طريق الدلالة.. وجدت نفسك في مواجهة الوسطية.
- وإن حللت البنية التركيبية.. التقيت بالوسطية.
- وإن وقفت عند التحليل اللغوي.. جابهتك الوسطية.
- وإن تتبعت سياق الألفاظ.. انتهت بك إلى الوسطية.
- وإن استمتعت بحلاوة الجرس.. تسامت وتصاعدت بك نحو الملكوت الأعلى.

... وإذا أردنا أن نحدد مدلول الوسطية في السورة الكريمة فإننا نلمسه في

كلمة ﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ التي وردت مصحوبة بالحديث عن دين إبراهيم عليه السلام وهي تسمو إلى الوسطية المثلى:

- ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٠)

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَحَبُّبُهُ وَهَدَانُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿ النحل: ١٢٠ - ١٢١.

وبذلك كان الوحي إليه ﷺ:

- ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النحل: ١٢٣

- ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾

الأنعام: ١٦١

وكان الأمر لأُمَّته بالاتباع أيضا:

- ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ آل عمران: ٩٥

ثم تقرير ذلك كله: "

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥

... فالصراط المستقيم إذن هو طريق العدالة والخيرية والفضل والاستواء، الذي يبدأ من دين الحنيفية كما بشر بها إبراهيم عليه السلام.. وينتهي إلى دين الإسلام الذي جدد الحنيفية بعد أن درست وانحرف بها بعض أهل الكتاب عن الطريق القيم القويم الذي يحارب في صورته المختلفة الانحراف والتطرف والاعوجاج.. سواءً عند اليهود أو النصارى أو المسلمين.

... ذلكم هو الصراط المستقيم.. وهو طريق الوسطية بين تطرفين.. ومن ثم كان محفوفا بالمخاطر، ولا يمكن الوصول إليه باجتهاد عقلي ولا بمنطق شكلي.. فهو يتم داخل الحياة ويعترف بالضعف البشري ويحتاج دائماً إلى عون الله وعنايته حتى يستطيع أن يقبض على المتقابلات، وأن يوازن بينها وهو في قلب الحياة دون أن يلجأ إلى برج من عاج، أو يتستر وراء لذة ذهنية... ومن هنا جاء التعبير في ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في سياق العبادة والاستعانة والدعاء بالهداية.. ولا يعني هذا البتة أن المرء يتنكر للعقل والمنطق، ولكنه يعني أن يجتهد وأن يستنفد كل قواه البشرية، ثم يدع تقدير النتائج للحكمة الإلهية... إنه موقف وسطي يدفعه إلى أن يعمل ولا يفرط في مواهبه وقدراته.. ولكنه في الوقت نفسه لا يقع في الإفراط ويتيه بإنجازاته ومقتنياته.

... وكما ذكرنا.. فلا يقف الأمر في فاتحة الكتاب عند احتوائها على مذهب "الوسطية" في مضامينها الدلالية.. بل تتعداه إلى حد تعبيرها عن الوسطية خلال "بنيتها التركيبية"..

... يذكر المفسرون أبا هريرة وهو يقول فيها<sup>(1)</sup> سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله تعالى " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل.. فإذا قال العبد " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " قال الله تعالى " حمدني عبدي"... وإذا

قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، قال الله تعالى: "أثنى عليَّ عبدي"... وإذا قال:

---

1 - صحيح أبي جزيمة ج 4 / ص 306 ج 2945 - وسند أحمد ج 1 ص 241 ح 7229.

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. قال: "مجدني عبدي" .. وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبد ولعبي ما سأل .. وإذا قال: ﴿ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ..

قال "هذا لعبي ولعبي ما سأل".

... فالسورة إذن قسمة بين الله والعبد.. نصفها لله، ونصفها للعبد...

ويبدأ النصف الأول بجمل خبرية تفيد الحمد، والثناء، والتمجيد لله رب العالمين الموصوف بصفات جمال وجلال متقابلة ولكنها متكاملة.. فهو ذو رحمة.. وهو في ذات الوقت صاحب الملك والوعد والوعيد

.. أو هو بتعبير أقرب إلى الحديث النبوي.. صاحب الثناء وصاحب المجد.

... أما النصف الآخر.. فإن أظهر ما فيه هو الجمل الدعائية والتي تلخص نوعية العلاقة بين الله تعالى والعبد... وهي علاقة تحتفظ بمسافة بين عالم الأمر.. وعالم الخلق... فلا يتجرأ مخلوق على مقام الخالق، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يعيش في جو خال من الرحمة والجلال.. إنه الموقف الوسطي الذي يطل علينا من جديد... فلا فناء في الذات الآلهية، كما يفعل الحلولية وأصحاب وحدة الوجود.. ولا إنكار لتلك الذات كما يفعل المشركون وغيرهم من أصحاب المذاهب المادية.

... وقد توصلت فاتحة الكتاب أيضا إلى رؤيتها الوسطية عن طريق الجمال

اللفظي الذي يعكس الذوق العربي الأصيل... فالآيات قصيرة يستطيع أن

ينطق بها الطفل أو المكروب أو المصلي مقدار نفس واحد.. أعان على

سهولتها تخفف أحكامها التجويدية مما يحتاج إلى كثير دربة ومزيد تلقين..  
نحو إدغام، أو غنة، أو إظهار تنوين.

وعلى الرغم من أن الآية الأخيرة ﴿ صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.. طويلة قياسا إلى بقية الآيات.. إلا أن هناك وقفة

وجيزة ومضمرة عند كلمة "الذين".. وهي وقفة يستشعرها المرء داخله حتى

ولو لم ينص عليها علماء القراءات... إنها محطة خفيفة مضمرة يستحضرها

القارئ داخله استشرافا وتطلعا وتشوقا وتحققا لمضمون الصلة، خاصة أن

كلمة "الذين" تنتهي بالنون قبلها المد شأن بقية الفواصل في، (الْمَكْمُوتِ ،

الَّذِينَ ، نَسْتَعِينُ ، وَلَا الضَّالِّينَ ).. روى أبو داود عن أم سلمى: لما سألت

عن قراءة رسول الله ﷺ قالت: " كان يقطع قراءته آية آية.. وقرأت: بِسْمِ

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " إلى "الذين" تقف عند كل آية (1).

... إن فواصل هذه السورة لا تخرج عن حرفي الميم والنون والتي تمثل

أيضا الجانب الغالب من فواصل الكتاب الكريم... مما يكسب الفاتحة رصيذا

في "صدارتها" لتصدرها ما يشيع في الكتاب.. كما يضيف عليها رصيذا

"لوسطيتها" في الكتاب.. وذلك للاختيار الإلهي والتقدير الرباني الحكيم لهذين

الحرفين - من فواصل الآيات - الوسطين في الدلالة والأداء.. وهما حرفان

يتقاربان في المخرج، وإن كانا لا يتماثلان فيه تماما.. مما يعطي قدرًا من

---

1 - الترمذي 2924.. باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ.

التنوع لا يصل إلى حد المطابقة، ولا إلى حد التنافر... ويصل الإعجاز إلى حد أن هذين الحرفين " الميم والنون " يتكرران كثيرا داخل السورة الكريمة، ويضاف إليهما حرف " اللام" وهو من مخرج قريب من مخرجي الميم والنون، مما يكسب السورة سهولة في المخارج وعذوبة في اللسان، وإيقاعاً في الأذان يجعل المرء لا يشبع من تلاوتها، ولا يشعر أبدا بالملل، على الرغم من أنه يتلوها كل يوم سبع عشرة مرة، على أقل تقدير، وهي عدد ركعات الصلوات المفروضة يوميا على كل مسلم ومسلمة.

... والقارئ لا يقف عند هذا الجمال اللفظي، يتلوه في متعة تخاطب حواسه فحسب، ولكنه يتسامى ويصنّعد ويعرج خلال هذا الجمال نحو الملكوت الأعلى... ونحو ذلك الجو الديني الذي يحيط بالسورة.. وهنا تطل علينا الوسطية من جديد من خلال هذا التعانق بين المبنى والمعنى، وبين الحواس والمثل، وبين الألفاظ والمعنويات في تناسق يرضي الأذن والروح معا.

... ولذا فإن فاتحة الكتاب تبرز جوهر هذه الأمة التي وُصفت من خلال هذا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في السورة التي تليها مباشرة بأنها أمة وسط... ﴿لِلَّهِ

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿البقرة: ١٤٢ - ١٤٣.

... حيث ذكرت أيضا آية الوسطية في سورة البقرة، في الموقع الوسطي تماما من السورة الكريمة الذي يجعل الأمة جدية أن تكون شهيدة على سائر الأمم في داري الدنيا والآخرة.



وهذا يعني أيضا أن الفاتحة تشتمل على المعاني التي هي في القرآن على حد تعبير النسفي.. أو بعبارة أخرى لا أظنها تبتعد كثيرا عن مراد النسفي.. إنها تشتمل على المعنى القرار أو الأساس الذي تنبثق منه جميع المعاني، ثم ترتد إليه لتفصله أو تجمله أو تشرحه، وفي النهاية تعمقه في النفوس.

... ومن أجل هذا سميت السورة بأمر الكتاب... ومن أجل هذا أيضا جاءت فاتحة الكتاب.

... رأيت لماذا تتصدر تلك السورة المسماة بالفاتحة كتاب الله الكريم... إنها بإيجاز مستودع سر القرآن.. بؤرته العدسية التي تتجمع فيها أطراف أنواره القرآنية لتنتهي إلى غاية واحدة.. ومقصود واحد.. "هو الله"..  
اللهم أنت مقصودي... ورضاك مطلوبتي.

### **المنزلة الثانية: دلالة تكرارها**

تتقارب دلالات صدارة الفاتحة مع دلالات تكرارها في كل ركعة، وبطلان كل صلاة أو ركعة بغير قراءتها.. ونحن إذ ننتقل إلى الحديث عن دلالات تكرارها لا نعني أن تلك الدلالات تختص فقط بمنزلة تكرارها، ولكنها امتداد طبيعي لمنزلة صدارتها يتواعم ويتجانس معها.

أدعوك إلى قراءة فاتحة الكتاب مع التزام ما عهدناه معها ومع الكتاب كله من إطالة النظر والتأمل والتدبر... ثم تأملها مرة أخرى بنفس الكيفية بعد أن تكون قد فرغت لتتوكل من قراءة القرآن كله.. لتجعل منه بأسره سياقاً عاماً لهذه السورة وفقاً لمنهجنا... ماذا ترى؟

ستبدو الفاتحة أمامك في رؤية أخرى ربما لم تظهر لك من قبل بهذا الوضوح... إنها:

سورة الانتماء: إنها سورة الانتماء للإسلام... والبراءة من كل ما عداه ولكي يبدو لك هذا جليا يجب أن تعلم:

- **﴿أَنْ﴾** **﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** مقصود به الإسلام.. قال تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾** الأنعام: ١٥٣

- **﴿وَأَنَّ﴾** **﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾** هم المسلمون المؤمنون بالقرآن قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾** المائدة: ٣

**﴿وَأَنَّ﴾** **﴿الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** هم اليهود قال تعالى: مخاطبا بني إسرائيل: **﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** البقرة: ٩٠

**﴿وَأَنَّ﴾** **﴿الضَّالِّينَ﴾** هم النصارى.. قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** المائدة: ٧٧

أخرج الطبراني في معجمه الأوسط قرأ رسول الله فاتحة الكتاب

(.. المغضوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى)<sup>(1)</sup>.

ثم أصف لهذا... أن الجاهلين كانوا يقولون.. باسم اللات.. باسم العزى..  
باسمك اللهم.. وكانوا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ .. وأنه  
كان منهم من يقول: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾  
الجاثية: ٢٤.

ضع هذا كله وراء سطور السورة وكلماتها، وتذكر أن المسلمين في  
صلاتهم وتلاوتهم يجهرون بفاتحة الكتاب هذه... ومن حولهم من كل هذه  
الطوائف يلففون ويكثرون وهم يسمعون ولا يأنسون.

أرأيت كم هي عطية هذا الإعلان الجهير بالانتماء للإسلام في كل صلاة  
بل في كل ركعة من صلواتنا... إن المسلم مطالب بأن يعلن إسلامه ولا  
يخفيه.. ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤

### إنها شهادة الجنسية: " الفاتحة والشهادتان "

وهذا سر آخر من أسرار تلازم الفاتحة والشهادتين في كل صلاة فلا  
تصح الصلاة بدونهما.. فضلا عن أصداء تلاقيهما في منح صاحبها صك  
الانتماء للإسلام "كصاحب دين".. وشهادة الجنسية الإسلامية "كمواطن".

ردد في نفسك بقلبك ووجدانك ولسانك " الشهادتين " أشهدا أن لا إله إلا  
الله " وأشهد أن محمدا رسول الله ".

وفي كل مرة اعرض "الشهادتين " على كل آية من آيات الفاتحة على  
حدة... فماذا أنت واجد؟.. ستجد أنه ما من آية من آيات الفاتحة وأنت

---

1 - الطبري في معجمه الأوسط ج 6 / ص 280 ح 6411.

تقرؤها إلا وتسري فيها روح تلك الشهادتين، بل إن كل آية هي إقرار وإعلان جهير واصل بهاتف هاتين الشهادتين.. كل آية هي توقيع قرآني بهاتين الشهادتين... اقرأ معي الآيات الأربع الأولى آية آية ستجد أنك تردد في آياتها أسماء الله الحسنى "الله، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، رَبِّ، مَلِكٍ .. فضلا عما تسوقه ألفاظ "بِسْمِ، الْحَمْدُ، الْعَلَمِينَ، يَوْمِ الدِّينِ" من سحائب المعاني المحملة المتقلة بالدلالات الفريدة الواقعة.. ثم اقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لتجد أنك تشهد بكمال العبودية وكمال الاستعانة لله رب العالمين.. وبشيء من التفصيل بتعهد ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ نجد أن ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتعريف في الفاتحة هو المشار إليه في آية الأنعام 153.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الأنعام: ١٥٣ عُرِّفَ في الأنعام بالإضافة البيانية، و عُرِّفَ في الفاتحة "بال".  
...و" مستقيما" في آية الأنعام حال من "صراطي" و"المستقيم" في الفاتحة وصف للصراط.

...وإن فتعريف "الصراط" بال كان يكفي في تعريفه.. فقد أصبح معهودا للمخاطب، عينته في ذهنه هذه الإشارة، ﴿ هَذَا صِرَاطِي ﴾.

ولكن تعيين وتأکید وصف الصراط بـ"المستقيم" في الفاتحة، إنما هو التوثيق بخاتم وصك الاستعانة والصلاحية، بشهادة النقاة العدول من أمة الإسلام الشهيدة على الناس.. وعلى رأس كل هؤلاء شهيدا سيد الرسل

محمد ﷺ. ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٤٣ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٢ - ١٤٣.

ذلك الصراط... وتلك الاستعانة.. وتلك الشهادة الأممية لا تمنح فقط صاحبها صك الانتماء للإسلام "دينا".. والبراءة من كل ما عداه بل تمنحه أيضا شهادة الجنسية الإسلامية "وطنا" فتجعله أحد رعايا الدولة المسلمة حيثما كان من أرض الله... بل وتتفي عنه كل انتماء لغير الإسلام وغير المسلمين... بل هي تعريض أيضا بغيره من السبل: سبيل المغضوب عليهم: وسبيل الضالين.. وسبيل المشركين.. والدهريين والحلوليين.. والملاحده والمبطلين.. وكل ما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الأنعام: ١٥٣

إنها تعريض بكل سبيل غير هذا "الصراط المستقيم"

... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (1): "خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ١٥٣.

1- مسند الإمام احمد بن حنبل - باب / مسند عبد الله بن مسعود - ج 1 / ص 465 .

وهكذا تعبق الفاتحة أم الكتاب.... السبع المثاني والقرآن العظيم كما وصفها رسول الله ﷺ بشذى التعريض ينشر أريجها، ويفتح من أبواب عطائها كوثرًا يفيض علينا هداية إلى الصراط المستقيم، وإعانة على اتّباعه والتزامه، وتجنب ما عداه من سبل الشيطان.

### **عنوان للإيجابية والخلافة المنحازة للرحمة:**

وبعد.. ها أنت قد أعلنت الانتماء للإسلام، والبراءة من كل ما عداه، وحملت شهادة الجنسية الإسلامية.. وصارت علما لك على امتداد البقاع وتقادم الزمان...

**فماذا بعد... ؟ هل انتهى دورك عند حمل هذه الشهادة ؟ شهادة الجنسية الإسلامية ؟ أم يجب أن تستثمر تلك الشهادة فتعمل، وتتحرك بمقتضاها.. وهذه هي سنة الكون وناموسه.**

إنك لو توقفت عند حدود ما تحصل عليه لكان النفع خاصا وهذا ما لا ينيشده الإسلام...

إن تعاليم الإسلام تؤكد على أن المسلم عضو في جسد، ولبنة في بناء يقول ﷺ (1) "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

ويقول ﷺ (2): " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ".

---

1- مسند الشهاب ج 2 / ص 283 / ج 1367

2- ابن حنبل في مسنده ج 4 / ص 405 / حديث 19640

ولا أدل على هذه الحقيقة من كون المسلم في كل ركعة من صلاته يتحدث بالأصالة عن نفسه، والنيابة عن إخوانه من جميع المسلمين، قائلاً في كل صلاة وركعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾. إنك مطالب بحمل الأمانة، وحمل الرسالة، وإقامة الدين في أنحاء المعمور ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ الروم: ٣٠. إن التعبير في الآية الكريمة بلفظ "الناس" على الجمع بدلا من لفظ "الإنسان" على المفرد، أصرح وأوضح في الدلالة على أن الإسلام قد أنزله الله طبق فطرة الإنسان فردا وجنسا، قبائل وشعوبا، أفرادا وجماعات.... ولذا فعلى الإنسان أن يمارس دوره، وواجبه كخليفة عن الله في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ البقرة: ٣٠. فلنفعل خلافتنا في الأرض، ولنحذو حذو هدهد سليمان بحمل رسالة أعظم كتاب، كتاب التوحيد، المنحاز للرحمة ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ النمل: ٣٠. فلنحمل لواء ورسالة التوحيد.. ولنكن أولى من هدهد سليمان بالإيجابية، والعمل الإيجابي والسعي وراء المصالح، وإيصال الخير للناس بدعوتهم إلى التوحيد والسير على منهج الله. لم يكتف الهدهد غير المكلف بالإنكار الداخلي للكفر، بل رفض أن يلتزم الصمت حيال جريمة الكفر الشنيعة، فتحرك واستطلع الأمر جليا، ووثق معلوماته بذاتية مطلقة، ولم يأبه بما قد يتعرض له من إيذاء سيده سليمان

جراء افتقاده وتأخيرہ.. ولكنها الإيجابية المطلقة التي أهلته لأن يقف أمام سليمان الملك النبي " عليه السلام " موقفا رفيعا كريما سامقا يرتقي المصاعب.. فيقول بجرأة منقطعة النظير لسليمان عليه السلام ﴿ أَحَطُّ بِمَا لَمْ نُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِينِ ﴾ وأوضح في جلاء فقال:

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣)  
 وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ النمل: ٢٢ - ٢٤... ثم بين أحد الأسباب التي أوصلتهم إلى هذا المنحدر فقال: ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل: ٢٤

بل وينعي عليهم هذا التردي العقلي، والانتكاس الفكري، ويتعجب كيف ضلوا الطريق مع وضوح الأدلة وبروز الآيات والعلامات...؟ فيقول: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾  
 ﴿ ٢٥ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ النمل: ٢٥ - ٢٦.

لقد أبرز الهدهد مفهوم الإيجابية، وسار بمفرده، دون تكليف مسبق، أو تنفيذ لأمر صادر.. وجلب خيرا للقيادة المؤمنة، فحمل رسالة التوحيد التي أدت إلى دخول أمة كاملة في الإسلام.

﴿ أَذْهَبَ بِكِنْتَبِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُكَ إِلَى كِنْتَبِ كَرِيمٍ ﴿ ٢٩ ﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿ ٣٠ ﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿ النمل: ٢٨ - ٣١ .



إن تصديق وتثمين القرآن لإيمان الهدهد وهو خلق غير مكلف، جعل قول الهدهد استنكاراً على كفر سبأ، وغيره على دين الله القويم.. جعل قوله ذلك قرآناً يتعبد به، وبل وجعله موضعاً ومحلاً لسجدة تلاوة يُتَعَبَدُ بها في كل زمان ومكان... وكان القرآن الكريم بتقدير تلك السجدة الهدهدية يرفع الهدهد الطائر.. من مقام من أسقط عنه التكليف.. إلى دائرة ومقام التشريف بالتكليف.. فحاز من الله تعالى شرف المؤمن المكلف الصالح، بل حاز شرف الصديق من غير المكلفين... ولعل تخليد القرآن لاسمه على مقطعيه: هُد - هُد.. يشير إلى إيجابيته المطلقة.. فلقد (هَدَّ) كفراً.. و(هد) ي إلى إيمان... ورفع الله بهذه الإيجابية مقامه فصار قرآناً، يتلى ويتعبد به آناء الليل وأطراف النهار، حتى صرنا نحن المسلمين من أمة محمد أولى بالهدهد من سليمان "عليه السلام" نفسه !.

- إن الكتاب الكريم زاخر بالأمثلة الدالة على الإيجابية المطلقة... إنك لو قرأت الآيات من سورة الأحقاف التي تتحدث عن الجن ابتداءً من الآية 29 حتى الآية 32 ونظرت إلى إيجابية التفاعل من الجن مع القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ الأحقاف: ٢٩.. والإنصات هو الإصغاء مع القصد والتركيز والاعتبار.. وما أحوجنا إلى الإنصات، ثم نظرت إلى تنمة الاستماع ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٢٩ .

لقد سارعوا إلى قومهم وقد حملت نفوسهم مالا يطيق السكوت عليه أو التلكؤ في الإبلاغ والإنذار به.. ثم كانت الإيجابية بالدعوة الصريحة ﴿ يَفْؤَمِّنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ﴾ الأحقاف: ٣١ .

لقد تحول الجن بهذه الآيات القليلة التي سمعوها من رسول الله ﷺ إلى دعاة مجدين.. إلى أصحاب رسالة واضحة المعالم، ودعوة رشيدة الخطى، ومنهج مترابط الأجزاء.

أيها الإنسان المكلف قم فاحمل لواء الهمة والجدية والإيجابية بالدعوة إلى الله.. لا تقف مكتوف الأيدي.. لقد فار التتور، وفاض طوفان الكفر.. مارس الخلافة التي أولاك الله إياها.. وأد الأمانة التي قبلت حملها، واحمل الناس على ركوب سفينة الإيمان التي سبقك بها نوح عليه السلام.. والتي كان بناؤها ثم مجراها أي " منهجها " و " مرساها " أي قرارها وأساسها " على منهج التوحيد والإيمان... منهج ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾... ﴿وَقَالَ أَرُكَبُوا فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمَرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هود: ٤١

- وها هي فاتحة كتاب الله الكريم تكشف عن طرف أو سر جديد من أسرار تكرارها كاملة في كل ركعة من صلواتنا فرضها ونفلها... إن هذا السر يكمن في كونك خليفة تتكلم باسم الله، وترتكز وتحث، بل وتجدد عقد الولاء بالبيعة والتسليم للمولى سبحانه وتعالى.. ويا لها من خلافة.. إنها خلافة أوسع وأشمل وأعمق وأرحب من خلافة هدهد سليمان.. أو مؤمني الجن أو سفينة نوح في مجراها ومرساها.. إنها خلافة وسعت امتداد ما بين بدء الخليقة ونشأة الكون.. إلى قيام الساعة.. إنها ليست الاستخلاف بإعمار الأرض فقط.. بل بإحقيق الحق مروراً ببناء المجتمع المتوازن على منهج الله سبحانه وتعالى.. لأنها خلافة كشفت عن طبيعتها في أسمى وأرقى معانيها ودلالاتها..

إنها خلافة منحازة للرحمة تماما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التي نكررها في صلواتنا كل يوم سبع عشرة مرة على أقل تقدير .

### **سر العرفان بالفضل لصاحبه:**

وجه آخر في حكمة تكرار الفاتحة في كل ركعات صلواتنا فرضها ونفلها.. إنه العرفان بالفضل لصاحب الفضل الأول والأكبر "الله تعالى"... ومن له الحق، علينا أن نؤدي له واجب الشكر لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى.. وهذا ينطلق من إسار البئس من رحمة الله إلى سعة الأمل في رحمة الله الواسعة وهو يردد قوله سبحانه وتعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. وهو دائما يعمل لآخرته، ولا يغفل عنها لأنها دار الحيوان، والنعيم المقيم.. أو العذاب المهين... وهو محدد القصد في عبادته وتوكله واستعانتة.. فلا يكون قصده إلا الله تعالى، وهو متميز دائما عن اليهود والنصارى، منحاز إلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فيعامل كلا بما يستحقه.. فللمؤمنين بالود والتراحم.. ومع غيرهم بأحكام الإسلام بلا مهادنة ولا ظلم.

وبعد.. فليست الفاتحة فريضة يكررها المسلم في يومه سبع عشرة مرة على أقل تقدير.. إنها خاتم التوثيق والتصديق.. وشهادة المرور والجواز والقبول بدرجة الفلاح لهذا اليوم عند رب العالمين.

فلئن كانت السموات والأرض شاهدة على الإنسان شهادة الأكوان... وكان تعاقب الليل والنهار شاهدين عليه شهادة الأيام والزمان.. فإن فاتحة الكتاب شاهدة على الإنسان شهادة الإيمان...

إنها التوقيع اليومي والرباني في سجل حياتك اليومي.

### المنزلة الثالثة: كثرة وتعدد أسمائها.

وقبل الإبحار مع تلك المنزلة العظيمة.. نرصد حقيقة تؤدي إلى سؤال هام.. وهي أن كل سورة من سور الكتاب، قد حملت اسمها الخاص بين ثنايا آياتها.. فالأعراف لذكر الأعراف.. والأنفال لذكر الأنفال.. وهكذا.. إلا الفاتحة والإخلاص.. فلم يرد ذكر الاسمين بين ثنايا آيات السورتين الكريمتين.. تُرى ما السر في ذلك؟

يقول الإمام المفسر البقاعي في مقدمة كتابه: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور":

"وقد ظهر لي.. أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء يظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه.."

من ذلك ما أوضحه الإمام عن سر تسمية سورة البقرة بالبقرة، فبين أن مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب.. فلذلك سميت بها السورة..

ونعود إلى السؤال مرة أخرى... تُرى ما السر في عدم ورود اسمي "الإخلاص" و"الفاتحة" بين ثنايا آيات السورتين الكريمتين...؟!.

الإجابة تكمن ببساطة في أنه إذا كان الكتاب الكريم كما يؤكد العلماء والمفسرون، وكل من يشتغل بعلم القرآن هو كتاب شامل لكل ما يخص

أمور الناس في الدنيا والآخرة وأن مجمل هذه الأمور يتمثل في ثلاثة: أولها: العقيدة.. وثانيها: التشريع الهادي.. وثالثها: الأخلاق والقصص الاعتباري والوعظي... فماذا عسى بالإخلاص وهي تهتف بثلاث القرآن المتمثل في العقيدة والتوحيد؟!.

إن مقصود سورة الإخلاص يعادل إذن مقصود ثلث القرآن، ومن ثم فقد سميت السورة بروح الإخلاص الذي يسري في ثلث القرآن المتمثل في العقيدة والتوحيد.

جمع سبحانه وتعالى زخامه في قرص واحد يفضي إلى الإخلاص.. ولقد قال رسول الله ﷺ فيها: "... وإنما تعدل ثلث القرآن" (1) .

ولأن "الإخلاص" سر بين العبد وربيه.. والسر إفشاء وإخفاء.. فأخفى السر في السورة.. وأفضى العلم فيه إلى رب السرائر.. فكان "الإخلاص" سرا في السورة كشأن إيماني فردي خاص.. وإعلانا عن السورة كمبدأ توحيد عام... بما ذكر فيها من كلمات ومعاني التوحيد:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ الإخلاص: ١ - ٤ .

وماذا عسى بالفاتحة.. فاتحة الكتاب وهي تهتف بالقرآن كله: عقائده وشرائعه وأخلاقه وقصصه بجميع سورته وآياته وحروفه؟.

1- صحيح مسلم – جزء 1 / ص 557 رقم 812.

يقول البيضاوي: جميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً، فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه أن يتضمن ما سيق الكلام لأجله .

وأضيف.. ودلالة ذلك على ما سبق بيانه.. أنه لو وضعت الفاتحة بجانب أي سورة لناسبتها بوجه من الوجوه، إذ ما من سورة إلا وفيها تفصيل لبعض ما أجملته معانيها.

ومن ثمَّ فإن مقصود الفاتحة يعادل مقصود الكتاب كله، ولذا ناسب ذلك تسميتها باشتقاق خاص من الفتح تفردت به.. قوى ذلك الاشتقاق كسوته بالدلالة التعريفية "أل" مقترنا بثناء العلمية العظمى فكانت "الفاتحة".. أو بإضافتها إلى الكتاب لتكون " فاتحة الكتاب "... فهي علم على الكتاب كله، ومفتاحه الذي يؤدي إليه، ومن ثمَّ أيضاً سميت "أم الكتاب".. "أم القرآن".. "الأساس".. كما سماها ابن عباس.. و"السبع المثاني والقرآن العظيم".

قال الإمام الحسن البصري "رضي الله عنه": "إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة".

ويجمع بين الفاتحة والإخلاص.. فوق تفردهما بامتياز الاسم والعنوان..

أن الفاتحة " تعريف .. والإخلاص " غاية"...

وما بين التعريف في "فاتحة الكتاب".. وبين الغاية " في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ ﴾ رحلة الهدى والإيمان في الكتاب.. هو رحلة التفصيل والبيان

للصراط المستقيم الذي كان "رتقا" ففتقته فاتحة الكتاب!

- إن فاتحة الكتاب بأسمائها العظيمة المتكاثرة.. فضلا عما تشير إليه باحتوائها على مجمل مضمون الكتاب الكريم، إلا أن لها من الإشارات واللمعات الخاصة ما يشير إلى طرف آخر من ألوان عجائبها..

خذ مثلا اسم "أم الكتاب" وارصد مواقعه في الكتاب الكريم.. من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: ٧

ومن ثم فإن "أم الكتاب" فضلا عما تعنيه من الفاتحة هي مستودع وبؤرة تجمع أنوار الكتاب الكريم كما سبق أن بينا.. فإنها تشير إلى قمة الهرم القرآني المتمثل في الآيات المحكمات التي تتصل بحقيقة "لا اله إلا الله".. كما تتصل أيضا بالأحكام الشرعية، والتنظيمات السياسية والاجتماعية والخلقية والتربوية التي تترتب على ذلك.. لتنتهي إلى نفس الغاية والمقصد: "لا اله إلا الله"...

اللهم أنت مقصودي.. ورضاك مطلوبتي...

إن الفاتحة بذلك هي أم المحكمات.. انظر أيضا إلى قوله تعالى: ﴿يَمْحُورُ

اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد: ٣٩.

هل يشير تسمية الفاتحة، "أم الكتاب" .. إلى تلك الصلة بينها وبين اللوح المحفوظ الذي فيه سجلات الخلق كلهم، وما سجل لهم من رزق وعمر في الحياة الدنيا، وما سجل لهم من نهاية في الآخرة.. أهم من الذين شقوا.. أم من الذين سعدوا..؟

هل تكون الفاتحة شاهدة على ذلك الرزق والعمر الطيب.. شهادة الفاتحة  
 "أم الكتاب" كتاب الرب على "اللوح المحفوظ" كتاب الخلق؟  
 بمعنى آخر.. هل تتواصل الفاتحة وهي أم الكتاب مع ذلك السجل أو  
 اللوح المحفوظ والذي سماه سبحانه وتعالى أيضا بـ "أم الكتاب" فترصد  
 للإنسان شهادة الفاتحة، كم كرر تلاوتها في صلواته وغيرها على مدار عمره،  
 فباركت له رزقه وعمره، وشهدت له بأنه من السعداء.  
 أو كم أهملها وغض بصره.. ووقر أذنه عنها فشهدت عليه بأنه من  
 الأشقياء؟.

إن الشهود الكونية على الإنسان كثيرة.. فالسماوات والأرض تشهدان  
 عليه بشهادة التسييح ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ  
 الْحَكِيمُ﴾ الحشر: ١.. إنها ترصد له كل ذكر وتسييح.. والليل والنهار وهما  
 من آلاء السماوات والأرض يتعاقبان فيسجلان عليه ما سجلته السماوات  
 والأرض، وبسجل يومي أخص حصاد يومك السعيد أو الشقي.. جواز المرور  
 لهذا اليوم بدرجة الفلاح أم بغيرها.  
 إن أولي الأبواب لا يوصدون قلوبهم دون توقيعات السماوات والأرض،  
 وكذلك الليل والنهار بخاتم الجواز والمرور بالفلاح والنجاح.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ  
 لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ  
 وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا



سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا  
لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ  
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا  
مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَعَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْرِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ  
لَا تُخْلِفُ ٱلْعَهْدَ ﴿١٩٤﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤- وبعد.. فما هي شهادة الفاتحة  
التي توقعها باسمها عنك في أم الكتاب..؟ .  
الإجابة بالبداية...

لئن كانت منزلة السموات والأرض في ذلك شاهدة على الإنسان شهادة  
الأكوان.. وكان تعاقب الليل والنهار شاهدين عليه شهادة الأيام والزمان، فإن  
الفاتحة هي الشاهدة عليه بشهادة الإيمان.

اقرأ معي الآيات الأولى من سورة الزخرف ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ  
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿الزخرف: ١ - ٤﴾

أكاد المح معنىً جديداً وخاطراً قويا إلى جانب ما رصده العلماء  
والمفسرون عن معاني ودلالات تلك الآيات الأربع.. فبعد أن أقسم الله سبحانه  
وتعالى ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ كله بدلاله "أل" التي تفيد الجنس  
والعهد والاستغراق على الغاية من جعل القرآن في صورته هذه التي جاء بها  
العرب، وهي أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم ولسانهم الذي يعرفون.. فإذا به

ينفضل على أمة العرب والإسلام بمنة أعظم وأجل، حيث لم يكتف المولى بإيراد الكتاب المبين قرآنا عربيا بلغتهم التي يألفونها ويحسنون فهمها وإدراكها بل أشار إليهم بأنه أوجز لهم ما في هذا الكتاب المبين أو القرآن من أصولٍ وشرائعٍ ومعانٍ في "أم الكتاب" أو "فاتحة الكتاب" بحكمته على قمة الهرم القرآني ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ هكذا كما يشير قوله: ﴿لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ فماذا عسى أن تكون أم الكتاب، وقد نص قبلها على الكتاب المبين، وكذلك القرآن العربي..؟!.. إن المغايرة في النظم والنسق الواحد تقتضي أن يغير "أم الكتاب" "الكتاب" و"القرآن" على الرغم من معنى المشاركة الذي يضمهم جميعا...

بإيجاز... معاني الألفاظ الثلاثة تقتضي المشاركة.. ودلالاتها تقتضي المغايرة، وهذا عين ما يفيد العطف بـ"الواو".. فماذا عسى تشير إليه دلالات المغايرة؟.. إنها تشير إلى كون "أم الكتاب" هي فاتحة الكتاب... وإن كان المقصود بذلك اللوح المحفوظ.. فلقد أوضحنا منذ قليل تلك العلاقة بين الفاتحة واللوحة المحفوظ.

- لنعش مع اسم آخر من أسماء الفاتحة والتي تدل كثرة أسمائها على علوها في الفضل والشرف: "السبع المثاني" .. فلقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله رب العالمين، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم" ... لقد ورد اسم السبع المثاني في سياق آيات سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧... ولقد رجح العلماء أن يكون المقصود من

السبع المثاني آيات سورة الفاتحة السبع كما ورد في الأثر، فهي تثني وتكرر في الصلاة، أو يثنى فيها على الله.

وقد قيل أيضا أن من أسرار تسميتها بالسبع المثاني، أنها تثبت في التنزيل.. فلقد نزلت مرتين، مرة بمكة، بعد المدثر، ومرة بالمدينة.. وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ومنزلتها.. وقيل أيضا إنها أول سورة نزلت كاملة في القرآن الكريم، وكان ذلك في مكة بالقطع.. وقد قيل إنها سميت بذلك لما لها من الثناء والمحامد بلا مثيل لها في التوراة والإنجيل.. ولذلك فإنه "لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب".

ولنعد لنلتمس حقيقة ومعنى السبع المثاني من خلال السياق القرآني

لسورة الحجر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ فَاصِّحُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

ولقد آئبنك سبعا من المثاني والقرءات العظیم ﴿الحجر: ٨٥ - ٨٧﴾ إن السياق القرآني يشي بالاتصال بين هذا القرآن، والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود، وتقوم عليه الساعة.. فالسبع المثاني والقرآن العظيم من عناصر ذلك الحق.. فمن أوتي هذه السبع المثاني وهذا القرآن العظيم فإنه يمضي في طريقه مع الحق الأصيل لأنه مستمد من الحق الأكبر متصل به... ويشير إلى عظمة وجلالة ذلك الحق عطف القرآن العظيم على السبع المثاني.. فهما من وسائل كشفه وتبينه.. فلقد وجه المولى إلى التماس ذلك الحق إجمالا في تلك السبع المثاني، نكررها يوميا، ونثني بها في صلواتنا فرضها ونفلها في كل ركعة من ركعاتها، فرادى وجماعات، بالجهير من الترتيل والخفيض منه على سبيل

الإقرار والإعلان بتجديد عقد الولاء، وميثاق الانتماء لذلك الحق الأكبر بكمال  
 العبودية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾... وكمال الاستعانة ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾...  
 ومن ثم أيضا فلقد وجه سبحانه وتعالى بمنة وفضل منه إلى التماس تفاصيل  
 مجمل ذلك الحق، أو العقد المتكرر من خلال القرآن العظيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ  
 سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧.

ذلك أن منزلة الفاتحة من القرآن، بمنزلة الخلية الإنسانية في الأمر  
 التكويني تحمل جميع صفات الإنسان كاملة... كذلك فإنه في روح الأمر  
 الموحى من الله.. فإن الفاتحة التي هي أم الكتاب، هي خلية القرآن ومستودع  
 أسرارهِ، وأسرار الكتب المنزلة جميعا... وقد أشار إلى ذلك الإمام الحسن  
 البصري (رضي الله عنه) فقال: "إن الله أودع علوم الكتب السابقة في  
 القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة،  
 فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة".

- وتكمن عظمة الفاتحة من خلال أسمائها الأخرى في قدرتها الخفية  
 على استدعاء جين الرحمة المناسب لكل موقف وحالة حيث تستهل بـ  
 ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾... فهذا جين كونها الشفاء من كل سم وداء...  
 ومن ثم فهي "الشفافية"... وهذا جين الكنز لكل شيء... ومن ثم فهي "الكنز"...  
 وكذلك فإنها الكافية لكل هم، والواقية بكل مرام، والواقية من كل سوء،  
 والرقية لكل مسلم.. وهي الحمد بكل مجامع الحمد.. وهي الصلاة التي قسمها  
 الله بينه وبين عبده... هذا فضلا عن أنها الفاتحة لكل أبواب الخير على  
 مصاريعها، كما أشرنا سابقا إلى معاني الفتح.

## المنزلة الرابعة: دلالة تفرد آياتها على غير مثال سبق:

لم ترد آيات الفاتحة في الكتاب الكريم على نظم ونسق سبق

ف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة آية... وفي النمل بعض آية:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ النمل: ٣٠

و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في الفاتحة آية.. وفي غيرها من سور

القرآن بعض آية و ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة آية.. وفي غيرها أيضا من

سور القرآن بعض آية، وأما الآيات التالية بعد ذلك.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فلم

يرد لها مثل أو نظير في القرآن كله.

تُرى ما دلالة ذلك!؟

إن مثابة الفاتحة من الكتاب.. والكتاب من الفاتحة هي بمثابة منشورين

زجاجين متقابلين خالصين، مركب النور الأبيض الداخِل أو الساقط على

جانبي أحدهما هو عين مركب النور الأبيض الخارج من المنشور الآخر من

جهته الأخرى.. وما بينهما من مفترق الأطياف أو الآيات السبع داخل منشور

الفاتحة، امتداده وتفصيله هي ذات الأطياف داخل المنشور القرآني.

.. ويشير إلى تلك الصورة الجامعة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧ .

إن الفاتحة بآياتها السبع القصار في المبني الكبار في المعنى داخل منشورها الخاص هي الجامعة على وجازتها جميع معاني القرآني.. ويرد كل معنى من معانيها أو مقصد من مقاصدها مفصلاً بطرائق مختلفة من خلال التراكيب الهادية إليه داخل المنشور القرآني العظيم الحاوي لجميع علوم الأولين والآخرين مما في الكتب السالفة وغيره.. روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال.. هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: "أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما أحد من قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منها إلا أوتيته" (1).. إشارة إلى مركب النور الأبيض الجامع داخل منشور الفاتحة كما جاء في الكتاب الكريم ما يشير إلى مركب النور داخل المنشور القرآني ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الشورى: ٥٢

1- النسائي في سننه الكبرى ج 1 / ص 317 حديث 984

## المنزلة الخامسة: فرض قراءتها كاملة غير مجزأة

(أ) هي القسمة والصلاة الكاملة بين الله وعبده فلا تجزأ:

ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفهما لي، ونصفهما لعبدي، ولعبدي ما سأل... إذا قال العبد: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ، قال الله: أثنى على عبدي فإذا قال: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

(ب) هي الدستور الكامل والمعادلة والقانون الذي لا يجزأ:

وذلك لأنه إذا كانت الأفكار البشرية الكبرى على عظمتها وكثرتها واتساعها توجز في نهاية الأمر في قاعدة أو قانون رياضي في بضع كلمات أو رموز... فإن حياة الإنسان كلها بحركتها وعظمتها، وهداياتها توجز في تلك الآيات السبع القصار للفاتحة، والتي تنتهي إلى غاية وشهادة واحدة.. هي " لا إله إلا الله" .. فكل شيء هالك إلا وجهه.. ولا يبقى إلا الله.. وهذا ما أوجزته آيات الفاتحة.

### (ج) مثالية الإجمالية ومحكمة المحكمات:

فهي أم الكتاب، والقرآن العظيم، والسبع المثاني... هي بإيجاز محكمة المحكمات في كتاب الله الكريم... فهي "بمنزلة النواة من النخلة فهي منها وهي أمها".

### (د) براعة الاستهلال للكتاب:

تمثل الفاتحة جانبا تربويا عظيما في النظم والتأليف، حيث يقضي بالألا يفاجئ المؤلف قراء كتابه بمقصوده.. بل يجب أن يبدأ بمقدمة تبين الغرض منه ليكون القارئ على بصيرة به قبل الشروع فيه، وهذا ما يسمى ببراعة الاستهلال الذي لا يختزل ولا يجتزئ.. وفي ذلك بيان للطريقة المثلى للخطباء والعلماء التي يجب أن يستنوها ويستأنسوها في خطبهم وكتابتهم.

لقد درج الكتاب والمؤلفون على تقديم افتتاحية لموضوع كتابهم.. ودرجوا كذلك أن يقولوا- مهما استشعروا التقدير في أنفسهم - أنهم لم يبلغوا الكمال والتمام فيما كتبوا. وأقروا واعترفوا بنقصهم عن التمام وعجزهم عن الكمال.. إلا كتاب الله تعالى !!..... فإنه يبدوه سبحانه بالحمد لنفسه بمجامع الحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حمد الحق العزيز.. وبه أطلق أسنة الخلق بذكره والحمد له حمد الرضا به والاعتراف الواجب بالامتنان له.

وكذلك الحال والأمر.. في أول سورة البقرة، وهي التعريف الأول - في

الكتاب - بعد سورة الفاتحة.. فقال الله وبمطلق عزة الحق ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١ - ٢... ومن عجز المخلوق



إلى عزة كمال الخالق يبقى كتاب الله وقرآنه الكريم هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه !!.

### **الفاحة التي لم نقدرها حقها**

حاولنا في الصفحات السابقة أن نلم ببعض دلالات، وعطاءات الفاتحة أم الكتاب ولقد تبين لنا مع سر ذلك الفيض الهائل لمعاني الفتح ودلالاته، وتبين لنا أن من أسرار صدارتها كتاب الله احتواؤها على الأصول التي يفصلها القرآن.. وروح الوسطية التي تسري فيه.. وأنها سورة الانتماء وشهادة استحقاق الجنسية الإسلامية.. كما تبين لنا سر تعدد أسمائها فهي أم الكتاب والسبع المثاني لاحتوائها على مقصوده ومضمونه.. وهي "الأساس" الذي يبني عليه القرآن.. كما تبين لنا أنها لم ترد في الكتاب الكريم على مثال سبق.. فمنشورها يعادل المنشور القرآني.. فهي الهتاف الدائم بين جميع سور القرآن.. وأنها الشهادة على الإيمان، وأنها القسمة بين الله وعبده.. وتبين لنا مثالية الإجمال فيها وأنها محكمة المحكمات.. وأنها الدستور والقانون الذي لا يمكن اختزاله أو اجتزاؤه.. فضلا عما فيه من براعة الاستهلال الذي أشرنا إليه.. وتوزيع تلك الفضائل والخصائص لسورة "الحمد" ببرهانها الصادق على أحقية كتاب الله واستعلائه فوق تصور وقدرة المخلوق.

يقول الدكتور العمري في كتابه عن الفاتحة: "إذا كانت الصلاة هي عماد الدين فإن الفاتحة هي حتما هي عماد الصلاة، فلا صلاة لمن لا فاتحة له، وهذا يجعلها في موقع قلب القلب من الجسم، أو المخ من الدماغ.. أو جوهر الجوهر ليس من الصلاة فحسب، بل من الدين كله باعتباره رؤية شاملة للحياة ووسيلة للحكم ومقياسا للأمور.. ثم يوضح الدكتور في سياق حديثه أنها

السورة الأكثر تكرارا للمصلي على الإطلاق... بل إنه ربما يجعل من كلمات آياتها الكريمات مجموعة الكلمات الأكثر تكرارا في حياة الفرد المصلي".

... بل ويرى الباحث أن العناية الربانية بكثرة تكرارها مع وجوبها هي بمثابة ذكر وتذكير من الرب سبحانه.. لذا نقول الفاتحة هي أعلى الذكر.. فإن أعلى وأكبر مراتب العبادة: "الذكر" .. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥... وقد سمى الله تعالى كتابه الكريم بـ ﴿الذِّكْرُ﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

... وأي مفردة ثناء وذكر لله تعالى - مهما علا شأنها وشرف مقصدها هي دون مفردة آية واحدة من القرآن الكريم.. لأن القرآن "ذكر" الرب تعالى لنا.. فهي أعلى وأكبر الذكر.. وأوجب الذكر وأعلاه وأكبره وأكثره في القرآن هو ما "أوجبه" الله تعالى لنا ذكرنا متناميا موصولا في صلوات سماها الرب سبحانه بـ "الذكر" .. ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الجمعة: ٩... أي الصلاة.. وهذا الذكر الواجب من القرآن - الكثير المتنامي الموصول في كل صلاة - هو "فاتحة الكتاب" التي هي العنوان الفرض في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥

ويقول العمري في موضع آخر: "ولأنها أي الفاتحة المدخل في الكتاب الذي هو آخر ما أنزل الله عز وجل.. الكتاب الذي هو الفرصة الأخيرة للبشر لكل يقرءوا.. لكي يكونوا ما خلقوا من أجله.. لكي يعيدوا تشكيل العالم.. فإن

الفاتحة.. المدخل.. لابد أن يكون لها دور في هذا.. في تعليمنا كيف نعيد تشكيل العالم".

**فما الذي فعلناه بالفاتحة!؟**

- لقد أغفلنا ما بها من أصول الدين والعقيدة، ومناهج الحياة التي تتبع منها، وحصرناها في بعض التوابع والفروع التي تعد أثراً من آثارها.. فجعلناها فقط للشفاء.. وللرقية من العين والحسد.. وللتبرك بها حين نهم أو نقبل على بداية عمل جديد.. لقد افرغناها من محتواها.. فبدلاً من أن تكون منارة للتقويم والإصلاح جعلناها مسوغاً ومبرراً لكل ما نُقدم عليه من أفعال الحلال والحرام.. حتى إن اللص يهم بقراءتها قبل إقباله على السرقة طلباً للتوفيق.

- ما هذا النوم والرقاد الطويل الذي نحن فيه... فبدلاً من أن تكون الفاتحة فاتحة حياة جديدة، حياة من نوع آخر أكثر خصياً وأكثر عطاءً وأكثر حيوية فإننا جعلناها.. ويأل المأساة!! علامة على الموت... فصرنا نردها عند موت أحدهم على أمل أن يذهب ثوابها لروحه المفارقة.. لقد تحولت الفاتحة من شاهد على الحياة.. إلى مجرد أحرف مكتوبة على شواهد القبور وتمائم تجلب الحظ والسعادة... المسافة شاسعة بين الفاتحة للحياة.. والفاتحة للموت.. هي بعينها المسافة بين ما يجب أن نكون... وبين ما نحن فيه فعلاً.

- الإبحار مع الفاتحة طويل وصعب المراس، وكذلك الغوص في أعماقها التي هي قلب الحراك والتغيير..

# الاستعادة



## الاستعاذة

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الاستعاذة ليست آية من الفاتحة، لكن منزلتها من البسمة كمنزلة الطهارة قبل الإقدام والإقبال على الصلاة.. كمنزلة الدرء للمفاسد قبل الجلب للمنافع.. كمنزلة التخلي قبل التحلي.

ومثل الشيطان كقاطع الطريق.. ومثل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

كالحصن من هذا القاطع بالطريق... فإن قول "أَعُوذُ بِاللَّهِ" إشارة إلى ما لا ينبغي من العقائد والأعمال.. "وَبِسْمِ اللَّهِ" إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات، والأعمال فقوله: "بِسْمِ اللَّهِ" لا يصير معلوما إلا بعد الوقوف على جميع العقائد الحقة، والأعمال الصافية.

جاء في سورة (ص) وهي في ترتيب النزول قبل سورة الأعراف مباشرة أن إبليس قد أقسم بعزة المولي جل وعلا على إغواء آدم وذريته من بني آدم..

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص: ٨٢... ثم أعقب في قسمه استثناء

عباد الله المخلصين قائلا: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ص: ٨٣... ولذا فإن في سورة الأعراف التي تلي سورة (ص) مباشرة في النزول شرح لنا المولى سبحانه بمنة وفضل منه خطة إبليس اللعين في كيفية إغواء بني آدم، وذريته، فماذا سيفعل إبليس؟!.. لقد أفصح إبليس عن خطته الخبيثة بأنه سيقعد

لأدم وذريته على صراط الله المستقيم يصد عنه من يهم باجتيازه ﴿ قَالَ فِيمَا

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ الأعراف: ١٦

فما هو هذا الصراط المستقيم الذي يترصده إبليس؟.

إنه طريق الإسلام وسبيل الإيمان والطاعات المؤدي إلى رضى الله سبحانه وتعالى.. إن إبليس الطريد من رحمة الله لن يكتفى بالقعود على الصراط المستقيم بل سيحاول أن يغوي البشر من كل جهة للحيلولة بينهم وبين هذا الصراط المستقيم: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ الأعراف: ١٧.

لذا.. فإن المولى قد أُرشدنا عند الشروع في تلاوة القرآن الكريم وكل عمل طيب أن نبدأ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، كتمهيد للجو الذي يتلى فيه الكتاب وتظهر فيه الأعمال، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ النحل: ٩٨.

إنه جو التطهر من الوسوسة والاتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة بحيث لا يشغل النفس أي مشاغل من عالم الرجس والنشر الذي يمثله الشيطان... ثم بين لنا المولى أن إبليس لا يملك أن يسيطر على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون مهما وسوس لهم ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿ النحل: ٩٩... وبين لنا في الوجه المقابل من هم الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ

مُشْرِكُونَ ﴿ النحل: ١٠٠

إن الفاتحة التي نستهل بها صلواتنا وأعمالنا الطيبة قد بينت من هم عباد الله المخلصين الذين استثناهم إبليس من غوايته ووسوسته.. إنهم أهل الصراط المستقيم.. الذين سألوا ربهم هدايته إليه فقالوا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فإذا علمنا كما بينا سابقا عند الكلام على منزلة تكرار الفاتحة.. فقرة "سورة الانتماء".. أن ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مقصود به الإسلام، وهو ما يشير إليه حديث الرسول ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ الأنعام: ١٥٣... رواه احمد، تفسير ابن كثير (1).

وأن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود.. وأن ﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى وإذا كان في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعريض بالمعطلة والدهريين والملاحدة، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تعريض أيضا بهؤلاء ومنكري البعث معا.. لتبين لنا أنه مع الانتهاء من تلاوة السورة الكريمة.. أنها سورة الانتماء للإسلام، وأن الاستعاذة قبل الشروع في قراءة الفاتحة براءة

1- مسند الإمام احمد حنبل- مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ج1 ص / 465 .



من كل ما عدا الإسلام من نحل وملل شتى، وبراءة من كل الذين تفرقت بهم السبل عن صراط الله المستقيم.

- من إشارات الاستعاذة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

أولاً: ما دلالة وصف الشيطان بالرجيم في هذه الاستعاذة القرآنية؟

﴿ الرَّجِيمِ ﴾ صفة مشبهة من الفعل "رجم" بمعنى "مرجوم" على صفة اسم المفعول.. وعدل عن اسم المفعول لكون الصفة صارت ألصق، وعلمنا على الشيطان الذي استكبر على الحق وتأبى على الأمر.. واختيار "الرجيم" في قوله: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨ - هو زيادة على الأصل - اختيار مقصود بمعنى المتحقق رجمه بالاستعاذة الحقيقية بالله من الشيطان.. فالشيطان رجيم في نفسه.. وهو بالاستعاذة المأمور بها رجيم من نفسك.

ثانياً: ماذا تفيد الفاء في قوله: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨.

هل تفيد حصول المعطوف وهو هنا الاستعاذة عقب حدوث المعطوف عليه وهو القراءة مباشرة وبلا مهلة وهذا هو الأصل في فاء العطف؟. أم أن القرآن كما صرح العلماء في كثير من نصوصه يخالف ظاهر ما أوجبه النحاة من تقدم المعطوف عليه في الوجود، فتقع فيه "الفاء" عاطفة لما هو متقدم على المعطوف عليه حيناً، ولما هو واقع منه في آن واحد؟.

فهناك مدرستان: مدرسة ترى أن الترتيب لا يلزم.. والمدرسة الأخرى ترى أن الترتيب معنى لا يتخلف.

وهنا يكمن سر إعجاز النظم القرآني والاستثمار الحقيقي لمعاني النحو للكشف عن فروق الدلالات والمعاني.

- فعلى الرأي الذي لا يرى الترتيب يكون المقصود من قوله: ﴿فَإِذَا

قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ النحل: ٩٨.. أي إذا أردت القراءة

فعليك بالاستعاذة دفعا لوسوسته، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ المائدة: ٦.. بمعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة

فيجب عليكم ويلزمكم التطهر بالوضوء أولاً.. وعلى ذلك فالاستعاذة تكون قبل

القراءة من باب وقوع الماضي موقع المستقبل..

- وأما طائفة العلماء التي ترى الترتيب ملزماً فيكون التعوذ بعد الفراغ

من القراءة.. فقد اعتمدوا في ذلك على ظاهر سياق الآيات... وذلك لدفع

الإعجاب بعد فراغ العبادة بالقراءة وهو الطريق الثاني "للشيطان"... أي أن

الشيطان إذا لم يفلح في إثناء العبد عن القراءة بداية... فإنه سوف يحاول

إقصاءه عن ثواب ما قرأ نهاية بإدخال العجب والزهو في قلبه فيفتح عليه

أبواب النفاق الذي يحبط هذا الثواب.

- وفريق ثالث يرى جمعا بين الرأيين، فيقر التعوذ قبل القراءة وبعدها،

ويرى أن ختام القرآن بالمعوذتين موافق لهذا القول.

- ولا يمنع أن نضيف رأياً رابعاً، وهو.. الاستعاذة "وسطاً" عند كل

موطن وموقع قرآني يتطلب الاستعاذة، كما يفعل عند كل موطن وموقع

يتطلب الدعاء.. ألم يقل الشيطان ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الأعراف: ١٦ .. والقرآن كله هو الصراط المستقيم.. إذن فالشيطان يتربص بصاحب القرآن عند كل آية وكل مفردة من مفردات الصراط المستقيم.

وليس أدل على ذلك من خطورة هذا الشيطان الرجيم اللعين الطريد من رحمة الله من أن الله في ثلاث مجموعات من الآيات القرآنية يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده إلى طيب أصله وإلى الموالة والمصافاة.. بينما يأمر بالاستعانة في ذات السياق بالطريق المباشر بالله وبلا واسطة من العدو الشيطاني لا محالة... إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا لأنه لا يبغي غير هلاك بني آدم لشدة عدواته لهم ولأبيهم..

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠.

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ المؤمنون: ٩٦ - ٩٨

﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ

عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿ ٣٦ ﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٦.

ولم لا.. وقد أقسم الشيطان لأبيهم آدم أنه لمن الناصحين فأخرجه من الجنة.. فكيف تكون معاملته لنا وقد أقسم على عدواتنا ومعاداتنا فقال:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ص: ٨٢

ثالثاً: سؤال يترتب على ما سبق بيانه... إذا كان المولى سبحانه وتعالى قد أمر بالاستعاذة عند الشروع في قراءة القرآن من خلال آية في ثنايا القرآن، فلم لم يجعل الاستعاذة رأساً كآية أول القرآن بدلاً من ذلك التنويه؟  
لهذه اللفتة عدة إشارات منها.

(أ) أن فيها دليلاً على أن القرآن هو كلام الله وليس بكلام بشر... فلو كان من عند غير الله لجعل الاستعاذة آية مثبتة قبل بسمات السور في أولها... فالشيطان كما سبق أن أوضحنا رجيم في ذاته ونفسه... فالاستعاذة زيادة على الأصل بمعنى أنه يتحقق رجمه بالاستعاذة الحقيقية بالله من الشيطان.. فالشيطان رجيم في نفسه... وهو بالاستعاذة المأمور بها رجيم من نفسك.

فغير الله هو المستعيز بدوره بالله بمن فيهم محمد ﷺ.. ولذا جاءت الاستعاذة على سبيل الأمر بها والتنويه إليها قبل الشروع في القراءة لكافة عباده.. وليس صيغة تلاوة رأساً من الله.

(ب) إذا كان القرآن كلام الله فمن البديهي أنه يستحيل على الله أن يستعيز من الشيطان الرجيم.. كيف وسبحانه وتعالى مستعاذ به؟!.

(ج) أنه سبحانه وتعالى جعل الأمر بها في آية مستقلة داخل القرآن، وخارج الفاتحة تحديداً.. لأن الفاتحة أم الكتاب وأساس القرآن.. والاستعاذة مندرجة

داخل الفاتحة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ أهدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧ ﴿

(د) وفيه أن القرآن هو رحمة للعالمين... إذ لا يستقيم أن يستفتح القرآن بمذكورٍ طُرِدَ من رحمة الله وهو الشيطان الرجيم.. فإن شرف القرآن ومنزلته وعظمته يتأبى معه ذكر للشيطان بحال من الأحوال أول القرآن.. فإن أول استفتاح الذكر في القرآن ينبغي أن يكون أعلاه شرفا وأجمعه فضلا بآية الرحمة في كتاب الرحمة بلسان رسول هو عين رحمة الله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

### رابعاً: ما هي دلالات معاني الشيطان الرجيم؟

الشيطان مأخوذ من الفعل شاط أي هلك واحترق، فهو محكوم عليه بالهلاك..وأما العبد المطيع فهو في أمان رحمة الله مع أول آية يقرأها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وكذلك الشيطان مأخوذ من الفعل شطن بمعنى بعد..

فحكم عليه بكونه طريدا بعيدا... أما العبد المطيع فقريب من الله، قال تعالى:

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق: ١٩ والله تعالى قريب منك: قال تعالى: ﴿وَإِذَا

سَأَلْتَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ... وأما "الرَّجِيمِ" فهو المرجوم.. بمعنى كونه

مرميا بسهام اللعن والشقاوة.. وأما العبد المطيع فموصول بحبل السعادة

والتقوى.. قال تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الفتح: ٢٦ .

والخلاصة في ذلك كونه: "شيطان رجيم" .. وسبحانه: "رحمن رحيم".

## خامسا: لماذا الاستعاذة بالله بالطريق المباشر؟

لأنَّ الله اخبرنا أنَّ الشيطان رجيم يرانا ولا نراه، بدليل قوله: ﴿ إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف: ٢٧.. ولذا فقد نفذ كيده فينا فوجب علينا أن نتمسك بمن يرى الشيطان ولا يراه.. فهو الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو الأقرب إلينا من حبل الوريد، وهو "القريب" وهو "اللطيف الخبير".

إذن فلنا عدو غائب حسود.. وحبیب غالب ودود نقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ يوسف: ٢١ .. فإذا قصدنا العدو الغائب، وجب أن نفرع إلى الحبيب الغالب.

## سادساً: من فضائل الاستعاذة أنها مذهبة للغضب:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ فتمرغ أنف احدهما غضبا، فقال رسول الله ﷺ إني لأعلم شيئا لو قاله لذهب عنه ما يجد " أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " (1).

وكذلك فإن الاستعاذة طهور لما تعلق في القلب بغير الله، وما جرى به اللسان بغير ذكر الله.

---

1- السنن الكبرى ج6/ ص104 ج10224

## بين الاستعاذة والبسملة:

(1) البسملة: مجرى فطرة الإنسان، وراية الخلافة الهادفة الموصلة إلى الله

تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا﴾ هود: ٤١.. والشيطان عارض لها.. فالعباد خلقهم الله حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم.. ولو خلي بين المرء

وفطرته لخلص واهتدى إلى ربه: ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ الشعراء: ٦٢ .

(2) الباء في "أعوذ بالله": مطلق اللجوء والافتقار إلى الله.. والبراءة والتخلي والفرار من الشيطان

وهي في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مطلق التعلق إيجابا بالولاء والتخلي بالاستقرار في حضرة الرحمن التماسا للرحمات والبركات.

(3) لم خصت العناية بالتعوذ من الشيطان الرجيم: قبل البدء — ﴿بِسْمِ

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيما يتعلق بسور القرآن... بينما لم يشمل التعوذ قبل "البسملة" خارج القرآن من شئون حياة المسلم وأفكاره.. فيكتفى بالبدء بالبسملة حيث يقول ﷺ "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتز" (1)؟.

والسر في ذلك والله أعلم.. أن التعوذ أو الاستعاذة قبل الشروع في "بسملة

القرآن" إنما هو مطلق التعوذ لمطلق الهداية التي هي القرآن ﴿إِنَّ هَذَا

الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٩.. وهو بدوره الهادي إلى الصراط المستقيم الذي دعت إليه

1- إرواء الغليل — رواه الخطيب والحافظ عبد القادر الزهawi

الفاتحة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الفاتحة: ٦.. وقد توعد الشيطان عباد الله فأقسم ﴿ لَا قَعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الأعراف: ١٦... فاقتضت الحكمة وتعاضمت الأهمية لذلك.. وأما البسملة قبل الشروع في عمل أي أمر من أمور الحياة فهو بعض الشأن.. كما أن فيها تلميحا على مداومة قراءة الورد القرآني اليومي لأنَّ في الاستعاذة قبله غناء عن الاستعاذة في الأمور الحياتية الأخرى. (4) ما دلالة إظهار الفعل " أعوذ " وتقديمه في قوله " أعوذ بالله .."

وإضماره مع تقدير تأخيرته على الأولى في: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾؟. والإجابة والله أعلم: إن إظهار الفعل وتقديمه "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" إظهار لفعل مضارع متجدد من العبد تجاه شيطان متجدد المكر والحيل في الغواية.. فهو فعل استعاذة متجدد تجاه فعل غواية متجدد.

وأما " البسملة " بإضمار فعلها المقدر المؤخر على الأولى.. فلا يحتاج معه العبد إلى افتعال قصد أو معالجة شأن كما هو الحال تجاه الشيطان الرجيم.. بل هو محض قول محبوب وقصد مرغوب من العبد تجاه سيده ومولاه إقرارا

وعرفانا بأن كل شيء إنما هو: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

والاستعاذة: من الشيطان الرجيم هي على نحو قوله تعالى في القرآن:

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ التوبة: ٤٠ بإظهار فعل الجعل.

والبسملة: في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ على نحو قوله تعالى:



﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ التوبة: ٤٠.. لأنها كلمة راسخة ثابتة لا

تحتاج إلى إظهار فعل أو تجدد... وإلى ذلك يشير أيضا حذف ألف "بِسْمِ" إشارة إلى تلك الأصالة وذلك الرسوخ.

نعم.. إن الاستعاذة ليست آية كالبسملة، ولكنها في ذات الوقت ليست قولاً عابراً عارياً عن الفاعلية والأثر والدلالة والمضمون.. إنها علم.. وحال.. وعمل.

أما العلم.. فهو كون العبد عالماً بأنه عاجز عن جلب المنافع الدينية والدينيوية، وعن دفع جميع المضار الدينية والدينيوية... وأن الله تعالى قادر على جلب هذه المنافع ودفع هذه المضار.. أي يجب أن يعلم العبد أن له عدواً غائباً، وحبیباً غالباً.. فإذا قصد العدو الغائب الحسود وجب أن يفزع إلى الحبيب الغالب الودود ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾.

وأما الحال.. فهو حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع يعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له.. ويؤكد حالة القلب هذه بسؤال اللسان "أَعُوذُ بِاللَّهِ".

وذلك هو العمل الذي تكون معه الثمرات.. ألم يقل نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي

أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ هود: ٤٧. فكانت الثمرة من الله ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ

بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ هود: ٤٨ ألم نقل امرأة

عمران حال وضعها لمريم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَيْكِ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فماذا كانت الثمرة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾  
 آل عمران: ٣٧ .

ألم يقل يوسف حين راودته امرأة العزيز قَالَ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يوسف: ٢٣..  
 فماذا كانت الثمرة حينما همت به امرأة العزيز:

﴿رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤.

### شرف الاستعاذة بين الذكر القرآني والأمر القرآني:

وأعني شرف المناسبة بين التعوذ ابتداءً قبل فاتحة الكتاب، والتعوذ انتهاءً في المعوذتين آخر سور الكتاب.

فالتحصين في البدء وفي الختام مروراً بأي الذكر الحكيم.. وكم مررنا في ثنايا الكتاب بآيات تأمرنا بالاستعاذة.. ومواطن تحثنا عليها.

إذن فالتحصين في أول ساحل القرآن... وفي آخر مرفأ القرآن... وفي عرض بحر سور القرآن...

وثمة لفظة تدل على ذلك.. فإن آيات القرآن قائمة على الوصل كما هو معلوم.. فأخر حرف في آخر كلمة في آخر سورة "سورة الناس" ينتهي

بكسر آخر حرف فيها ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾... فإذا وصلنا التلاوة

مع أول القرآن في دورة ختم جديدة في ذات المجلس، كان وصلنا على النحو التالي: ﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بالوصل بين كسرتي آخر الكتاب ومفتتح الكتاب.. حيث نكون قد استغنينا بذكر استعادة التحصين "بالنص" والذكر في سورة الناس ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ وقبلها سورة الفلق.. عن استعادة التخصيص "بالأمر القرآني: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

﴿ ٩٨ ﴾ النحل: ٩٨

في حين لو انتهينا عند ختم القرآن، وتوقفنا عند قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ توقفنا بالحرف الساكن عند آخرها.. فإذا ما أردنا أن نبدأ دورة جديدة لاحقة لختم قرآني جديد.. بدأنا بالتعوذ المأمور به قبل الشروع في قراءة القرآن أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ولعل في هذا شرفا بالترحال في القرآن.. دعوة إلى الوصل.. عودا والعود أحمد.. إلى سورة الحمد!!

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾



## ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الباء ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ... هو الأدب الجميل الذي أوحى الله لنبيه ﷺ في

أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى أنه هو "الخالق والبارئ" وأنه هو "الأول والآخر" والظاهر والباطن.. فهو سبحانه وتعالى - الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه، فباسمه إذن يكون كل ابتداء وباسمه إذن يكون كل حركة وكل اتجاه.

- ووصفه في الباء بـ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها، فهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة ﴿ الرَّحْمَنِ .. ﴾ ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن نبداً أمورنا بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فقال ﷺ: " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" أقطع<sup>(1)</sup>.

- واستهل بها سليمان عليه السلام كتاب التوحيد الذي ألقاه هدهد على ملكه سبأ ﴿ إِنَّي أُنْفِقُ إِلَىٰ كَيْتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ .. ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ النمل: ٣٠

1- رواه السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه لعبد الظاهر الزهاوي في أول كتاب " الأربعة " عن أبي هريرة بإسناد حسن ورواه ابن كثير في تفسيره بلفظ " اجزم".

﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل: ٣١.

- ولقد شاء سبحانه وتعالى أن يقرن الرحمة باسم الله " المستلزم لجميع معاني أسماء الله الحسنى، والدال عليها إجمالاً بكل دلائل وصفات الجلال والجمال... ولذلك تضاف سائر أسماء الله الحسنى إلى هذا الاسم العظيم.

ودلالة ذلك قوله: ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الأعراف: ١٨٠.. فيقال:

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ والقدوس والسلام والعزيز والحكيم، من أسماء الله الحسنى.. ولا يقال: " الله " من أسماء " الرحمن " ولا من أسماء " العزيز " .

لقد شاء سبحانه وتعالى أن يكون أول رسول أسمائه الحسنى إلى خلقه بما دل عليه من صفات البهاء والجمال في أجمل وأشمل معاني الإحسان إليهم.. فنأشد عباده حال الدعاء أن يثبوا اسم " الله " الجامع لكل معاني الجلال والجمال بالهتاف والتوجه إليه بالاسم الأخص " الرحمن " الذي يستغرق كل معاني القوامة والرحمة والعدل والجمال والإحسان.. ويؤنس هذا المعنى الجميل الإيذان الجميل بالتهيئة الطيبة لسط ونشر الرحمة.. ذلك الاستهلال اللطيف بقراءة الترقيق " تطقا " لسيد أسماء الله الحسنى " الله " عند الشروع في قراءة أو تلاوة أول طلائع النور من آيات الذكر الحكيم وهي ذات التلاوة العذبة والنطق الرقيق للاسم الأعظم حين ينفرج بالرحمة فيرسل بها تتدفق وتفيض: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾... ومن ثم

يقول المولى في كتابه الكريم ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾

الإسراء: ١١٠.

وانظر حين شاء المولى سبحانه وتعالى بيان ثقل العهد والمبايعة معه سبحانه وتعالى.. يعدل عن النطق بقراءة الترفيق لاسم الجلالة "الله" إلى قراءة التفخيم، وذلك بضم هاء "عَلَيْهِ" بدلاً من خفضها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى

بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿الفتح: ١.

إن الغوص مع دلالات أول آية في كتاب الله لأجل التقاط الدر واللالئ والصدفات أمر لا ينتهي ولا يُتصور.. بل إننا نعجز فلا نستطيع الإبحار مع دلالة درة واحدة لهذه الآية الكريمة.. أقصى ما نستطيعه مع علو المهمة أن نحاول المسايرة والمتابعة لطيف واحد أو طيفين على أقصى تقدير من أطراف النور المرسله لهذه الآية الكريمة ولن نستوفيه.



## بين يدي أطياف النور

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾

### "الاسم والمسمى"

... الاسم غير المسمى.. وأمثلة التدليل على ذلك عند العلماء كثيرة.. ويمكن إيجاز ذلك بأنك قد تتصور في مخيلتك صورة لشخص ما.. أو أي صورة لمسمى أنت تعرفه.. ولكن عند محاولة التماس واستدعاء اسم الشخص الممثل لهذه الصورة المعينة في مخيلتك.. تجده قد يغيب عن ذاكرتك رغم الاجتهاد في محاولة الاستدعاء والالتماس هذه.. فلو كان الاسم هو المسمى لما افترقا في مخيلتك ولما غاب أحدهما عنك.

أما اسم الجلالة "الله" .. فلا يغيب التماسه عند الاستدعاء عن أحد في الوجود ولو كان كافراً... يقولها كل بلغته.. يقول: "الله" ... فأنت حين التماس الجمال في كل أمر تقول "الله" .. وعند الفزع تصيح صارخاً "الله" .. هكذا بطريق الفطرة دون تكلف أو معالجة في الاستدعاء.. لأنه استدعاء من "عالم الذر" .. ورسّخه صِدْقٌ من "عالم الفطرة".

### الأصالة الذاتية لـ "اسم" "الله"

اسم الجلالة "الله" له الأصالة الذاتية في الوجود.. هو اسم له سبحانه بذاته.. وليس اسماً طارئاً عليه لأجل التعريف به.. وأما أي اسم في الوجود لسواه فلا أصالة له... فاسم "عمرو" مثلاً كان يمكن أن يتغير ويتبدل ويتسمى "زيداً" مثلاً.. ولا تأثير لهذا التغيير أو التبديل على وجود وكيان ذلك المخلوق.

ودلالة ذلك أن أحدا لا يتسمى باسمه تعالى "الله" ولو ادعى أنه إله !!

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ

لَهُ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٦٥ " نعم... في سورة مريم ذاتها تسمى يحيى عليه السلام

باسمه الذي لم يسبق إليه ﴾ يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نَبِّشْرُكَ بِعِلْمِ اسْمِهِ يَحْيَى لَمْ

يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٧. ومع ذلك فقد تسمى باسمه من بعده

آخرون.. ولهذا كان التعبير في حالة يحيى بقوله: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ ..أما معه

سبحانه فلا قبل ولا بعد... ولذلك كانت على الإطلاق: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ

سَمِيًّا ﴾.

والخلاصة أن اسم "الله" حق له بالأصالة الذاتية وعلم له وحده... واسم

غيره من الموجودات هو له بالتعلق والاعتبار.

ولذلك فإن لفظ الجلالة "الله" يكون له تعلقان... تعلق من حيث إنه "اسم" ..

و"علم" على الذاتية العلية فهو يُعَلَّمُ وَيُسَبَّحُ وَيُجَلُّ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾.

والتعلق الآخر بذات المسمى العلية.. فهو يُعْبَدُ وَيُسَبَّحُ وَيُجَلُّ "سبحان الله".

## النسبة إلى الله تشریف:

إذا كانت نسبة أو إضافة أي اسم إلى الله تعالى تشریفاً لذلك الاسم.. مثل:

كتاب الله.. رسول الله.. ناقة الله.. فإن إضافة أو نسبة "اسم" إلى الله في:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي أعظم وأقدس وأكرم وأحق وألزم نسبة نجلها

في كتاب الله.. فإن كلمة اسم منسوبة إلى الله تعالى هي في ذاتها مفتاح التعريف له، وباب التكليف عنه، ونوط التشریف منه.. وهذا التعريف

والتكليف والتشریف في كلمة "اسم" يفسر لنا لم قيل "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" وليس "بِالله الرحمن الرحيم".

فنحن.. بني آدم.. بكوننا خلفاء عن الله في الأرض.. ولما كان آدم نفسه

هو أول الخلفاء قد علمه الله الأسماء كلها.. لذا كان "اسم" الله تعالى هو الأحق

أن يُعلم أولاً.. فلولا الله ما كان اسم ولا مسمى.. فهو رب كل اسم ورب كل مسمى... وإذا كان كتاب الله الكريم هو دستور الوجود ودستور عالم الخلافة، وكذا فاتحة الكتاب هي أساس هذا الدستور وطليعة المنشور القرآني.. فكان

جديراً أن تتصدر الفاتحة بأول وأحق الأسماء وأسمائها ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾.

واسمه هنا هو الذي ينشأ عنه كل اسم في الوجود.. والله هنا الذي يوجد

به كل موجود في الوجود.. ولعل في الباء التي طوّلت تشریفاً واتصالاً

بالاسم.. وألف الوصل التي حذفت في ﴿بِسْمِ﴾ تنبئها على علوه في أول رتبة الأسماء وانفراده.. وأنه عنه انفصلت الأسماء ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾. كما أن لفظ الاسم معناه مراد.. لأنه يشير إلى معنى هام ودقيق في أول رسائل الوحي القرآنية وهو أن الرسول يقرأ عليهم السورة من الوحي باسم الله وليس باسمه ﷺ فهي من الله وليست منه.. وإنما هو مبلغ عنه عز وجل بأمره.

﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدَى

فَأِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ النمل: ٩١ - ٩٢

## اللَّهُ الرَّحْمَنُ

### (1) منظومة: الرحمن والعرش والروح

شاء سبحانه وتعالى أن تكون الرحمة هي قوام ذلك الوجود في كتابيه المنظور والمسطور.. فلم يشأ سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة، أن يكون كونه بسم الله الجبار القهار مثلاً... بل اقترن استواؤه سبحانه وتعالى على العرش باسم "الرحمن" كثيراً.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَّأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ الفرقان: ٥٩ " فاستوى على عرشه باسم "الرحمن"... لأن العرش محيط بالمخلوقات و"الرحمة" محيطة بالخلق واسعة لهم ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف: ١٥٦.

فاستوى على أوسع المخلوقات: "العرش".. بأوسع الصفات: "الرحمن"... فلذلك وسعت رحمته كل شيء... وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي.. وفي لفظ فهو عنده على العرش (1)..

1- رواه البخاري برقم (7404).. ومسلم في كتاب التوبة/ 16

- وفي ظلال هذه الرحمانية التي استوى بها جل جلاله على العرش كانت اللمسة التي تستجيش النفوس وتوقظ القلوب بالتدبير لأمر الكتاب المنظر ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾ يونس: ٣

وفي ظلال هذه "الرحمانية" التي تتجلى في هذا المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعده من أخبار: ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ ﴾

لم يخلقه فقط بل منحة الصفة الإنسانية الكبرى... "عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" ومن ثم يفتح أمامه صحائف الوجود الناطقة بألاء الله. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة والميزان الموضوع والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان.

﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑤ مَجْسَبَانِ ⑥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑦ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا ⑧ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑨ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑩ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑪ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑫ فِيهَا فَكْهَةٌ ⑬ وَالتَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑭ ﴾ الرحمن: ١ - ١١ ثم في ظلال هذه "الرحمانية" التي استوى بها سبحانه على عرشه، وخلق بها كونه وخلق بها الإنسان في أحسن

تقويم.. يفتح الباب الأكبر لتحريك الوجدان، وتحريك العقل لينتقل مع الوجدان  
بلمسات التسخير والتدبير والتفصيل لآيات الكون المبتوثة بعد الخلق والإيجاد

على وجه أدق وأرق ﴿ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾  
فصلت: ٥٣.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ  
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ  
﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ  
وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَّهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ الرعد: ٢ - ٤

انظر إلى السياق متتبعا إياه من البدء والحظ الجانب الفني من العرض..  
انظر مرة أخرى...!

- بدأ بالسموات والشمس والقمر.. أجرام كبيرة.. خطوط عريضة..  
ولكنها تتدرج نحو الدقة: السماوات.. فالشمس ثم القمر.

- وبخط أدق وأرق مما بدأ المرحلة السابقة من لوحة الوجود.. أخذ الأرض  
من بين هذه الأجرام الكونية متدرجا أيضا من الكبير إلى الصغير... الأرض

المنبسطة الممدودة والجبال.. فالأنهار الأصغر حجما ثم الثمرات.. ثم الأزواج داخل النبات الواحد... وكل ذلك ملفوف في رداء الليل والنهار.

- ثم أخذ جانبا واحدا من الأرض وبخط أدق وأرق تدرج به إلى جنات من أعناب وزرع ونخيل.. حتى وصل إلى غاية الدقة في الطعوم التي فضل بعضها على بعض في الأكل.. وهي شيء خفي في مظهره لا تتبينه إلا أعصاب الذوق وهي أدق ما في تكوين الإنسان...!!

- هذا التدرج من الكبير إلى الصغير في الخطوط المتوالية عامة، ثم في كل خط على حدة تحيط به وتكتنفه لمسات الرحمن بالتدبير للأمر، والتفصيل المستمر لآيات الله في الكون والذي عبر عنه المقطع من الآيات ﴿يُدَبِّرُ

الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ الرعد: ٢ هكذا بلا أداة عطف بين هذا التدبير وذاك التفصيل.. فيشير بذلك إلى أن رحمة الله تظلل الكون في كل لحظة وهي مع كل حدث يتم في هذا الكون.

ما سبق بيانه كان وجه "الرحمانية" في خلق الكون، وخلق الإنسان والتفاعل بينهما على سبيل الرحمة المتعلقة بالجانب المادي بالإنسان..

- وها هو في ظلال هذه الرحمانية يزكي جانب الروح بتنزيل الكتاب لأجل العباد: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت: ١ - ٣.

ليس هذا فقط بل كان هذا الكتاب علامة على الرحمانية بتعليم القرآن:

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ .



- ولقد تَوَجَّ وزكى سبحانه وتعالى هذا الخلق الرحماني للإنسان.. والتنزيل الرحماني للقرآن بروح منه.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ الحجر: ٢٨ - ٢٩

فلقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال.. ثم من النفخة العلوية التي فرقته بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائصه الإنسانية التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية.. فسلك طريقا غير طريقها منذ الابتداء..بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه..!

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى، وتسمو به فتجعله أهلا للاتصال بالله، وللتلقي عن الله.. وليتجاوز بها النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس إلى النطاق التجريدي العلوي الذي تتكامل فيه القلوب والعقول، والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس، إلى ألوان من المدركات، وأجواء من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان.

ذلك ما كان من أمر "الروح" في الخلق.. فانظر أيضا إلى "الروح" في أمر التنزيل "

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ النحل: ١٠٢.

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ

مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤ .

فلقد كان واسطة تنزيل القرآن أيضا من الخالق إلى المخلوق الروح القدس الأمين.. ولقد كنى المولى سبحانه وتعالى بالروح عن الوحي بالرسالة... وللتعبير ظله ومعناه.. فهو حياة ومبعث حياة... حياة في النفوس والضمائر.. حياة في العقول والمشاعر.. وهو حياة في المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيال.. فالروح هي أجل النعم التي يمن بها رفيع الدرجات "الرحمن" الذي استوي على العرش ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي

الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿ غافر: ١٥

## اللَّهُ الرَّحْمَنُ

### (2) الاقتران بصفات الهيمنة والقوامة والعدل

- الرحمن يستوي على العرش: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥
- الرحمن خالق الكون.. ولا يرد الخلق مع الرحيم: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ الملك: ٣
- والرحمن له الربوبية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ طه: ٩٠
- والرحمن يخشى منه ومن عذابه.. وليس الرحيم كذلك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ يس: ١١
- والرحمن يعصاه الشيطان: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ مريم: ٤٤
- والرحمن يتعوذ به الإنسان، وليس كذلك في الرحيم: ﴿قَالَ إِنِّي أَعوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ مريم: ١٨
- والرحمن يكون له النذر: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ مريم: ٢٦
- والرحمن يُسجَدُ له ولم يقل مثل ذلك في الرحيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان: ٦٠

والرحمن يُنسبُ له العباد ولم ينسبوا إلى الرحيم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ  
الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦٣)  
الفرقان: ٦٣.

والرحمن صاحب المشيئة: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَأْلَهُم  
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢٠) الزخرف: ٢٠.

والرحمن لا حماية لأحد منه ﴿ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ  
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٢) الأنبياء: ٤٢.

والرحمن يُملي لعباده ويمد لهم في الضلالة إن ضلوا: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي  
الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ (٧٥) مريم: ٧٥.

والرحمن يريد للعصاة الضر أحياناً: ﴿ أَلَا تَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّ  
الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴾ (٢٣) يس: ٢٣.

والرحمن هو المستعان: ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا  
تَصِفُونَ ﴾ (١١٢) الأنبياء: ١١٢.

والرحمن يُتخذُ عنده العهد: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ  
الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (٨٧) مريم: ٨٧.

والرحمن له الملك: ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ (٢٦) الفرقان: ٢٦.

الرحمن يكون له الحشر يوم القيامة:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ مريم: ٨٥.

الرحمن تخشع له الأصوات يوم القيامة: ﴿يَوْمَ إِذِ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ

لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ طه: ١٠٨.

الرحمن لا تكون الشفاعة إلا بإذنه وكذلك الكلام: ﴿يَوْمَ إِذِ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ

إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه: ١٠٩.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ

صَوَابًا﴾ النبأ: ٣٨.

وفوق ذلك كله

الرحمن تجلى وتفضل على عباده بتعليم القرآن:

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمن: ١ - ٢

الله \_\_\_\_\_ الرحيم

## الاقتران بصفات العطاء والفضل

الله سبحانه وتعالى: رب المؤمن و الكافر  
رب الطائع و العاصي  
رب الصالح و الطالح

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ  
الشَّمْرَاتِ مَنْعًا آمِنًا مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ  
أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَتَّسِرُ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ١٢٦.

لكنه سبحانه وتعالى في نطاق دائرة الربوبية هذه رحيم بالمؤمنين خاصة  
قال تعالى في أصحاب الجنة: ﴿سَلِّمُ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿يس: ٥٨.  
فيفتح لهم سبحانه نافذة الرحمة على مصراعيها، فلهم فوق لذائد التأهيل  
والتكريم "سلام" يتلقونه من ربهم الكريم.. وقد خص المؤمنين بهذه الرحمة في  
قوله تعالى أيضا ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿الأحزاب: ٤٣.

وإذا كان سبحانه وتعالى جعل رسوله عين رحمة الله للعالمين جميعا:  
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿الأنبياء: ١٠٧... فقد اختصه بالمؤمنين  
في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا  
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿التوبة: ١٢٨.

وفي ظلال معاني الفضل والعطاء اقتترنت رحمته سبحانه وتعالى: بالتوبة والرافة والمغفرة والود والبر على النحو التالي:

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١١٨

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

البقرة: ١٤٣.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

آل عمران: ٨٩.

﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هود: ٩٠.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ الطور: ٢٨

ويأتي لفظ "الرحيم" في صحبة لفظ "العزير" إما في سياق الوعد

بالنصر كما في قوله تعالى: ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الروم: ٥.

أو في طلب التوكل نحو: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ الشعراء: ٢١٧.

أو في الكلام عن تنزيل الكتاب: ﴿ نَزَّلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ يس: ٥

كما جاء في معرض الحكم على نتائج رسالات الأنبياء على صورة

موحدة كآية ودلالة على العزة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ الشعراء: ٦٧ - ٦٨

## الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى هو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين الرحمن الرحيم فضلا عن إنه المختص وحده بصفة "الرحمن". وقد اجتمعت هاتان الصفتان مرتين في الفاتحة، وذلك في البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وعلى الضعف من ذلك في سائر سور القرآن التالية للفاتحة

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣ كدلالة

على التوحيد

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فصلت: ١-٢ كدلالة على تنزيل

الكتاب

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

الحشر: ٢٢.. كدلالة على علم الله المحيط.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ النمل: ٣٠.. كدلالة على

الأدب الجميل بالاستفتاح الجميل.

ونلمح من ذلك كله شمول وسعة رحمته سبحانه وتعالى.. فاقتران

ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه.. فـ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

أَسْتَوَى طه: ٥.. مطابق لقوله في فاتحة الكتاب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾



فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته.

### **بين يدي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**

**معاني الباء:** الباء من حروف المعاني التي اتسعت معانيها اتساعاً جعل بعض النحاة يصلون بها إلى أربعة عشر معنى.. وهذا دليل على كثرة تصرفها وقدرتها على الوفاء بالمعاني التي تؤدي بها.. ويحسن بنا دون الحاجة إلى بيان تفصيل تلك المعاني الأربعة عشر والتي لا يتسع المقام أن نغوص معها أن نقرر أن المعنى الأصيل الذي تدور حوله الباء ولا يكاد يفارقها هو الإلصاق أو الاستصحاب أو الملازمة.. ويتفرع عن هذا المعنى الأصيل فروع معانيها الأخرى ككونها لل غاية والتعليل والاستعانة.

**أولاً: الإلصاق دليل القدرة والملك:** لما كانت البسمة من الفاتحة كنسبة الفاتحة من القرآن صُدِّرت بها الفاتحة، كما صدر القرآن بالفاتحة.. لأن البسمة كما أفادت نسبة القدرة والملك كله إليه سبحانه وتعالى فضلاً عن نسبة الأمور كلها أفادت أنه الإله وحده والقادر وحده والمالك وحده والمعبود وحده والمستعان به وحده.. وذلك هو إجمال تفصيل الفاتحة.

ودلالة القدرة واضحة في متعلق بسم الله.. فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات: "الله" .. كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها كأن نقول بسم الله القوي، وبسم الله الرزاق، وبسم الله المجيب، وبسم الله القادر، وبسم الله النافع.. إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها.. ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول بسم الله الجامع لكل هذه الصفات إذن "بسم الله"، تعني أن القدرة التي أنشأ العبد بها العمل هي من

الله تعالى .. فلولا ما منحه الله منها لم يكن للعمل شيء.. فلم يصدر العمل إلا باسم الله وقدرته.. وذلك بمثل ما كان مع الحبيب المصطفى ﷺ حين تلقى به لأول أمر قرآني "أقرأ" .. فقال الرسول بحدود علمه ببشريته " ما أنا بقارئ " مرتين..حتى قال له الوحي في المرة الثالثة " ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ العلق: ١ - ٢ .. فقرأ الرسول بقدره الله.. بل صار الرسول بعدها معلما للبشرية كلها وهو الذي كان لا يقرأ ولا يكتب.

- وأما دلالة الملك.. فإنك لو سألت أحدا من الأحاد.. باسم من يكون هذا البيت ؟

فأجابه باسمي أو باسم فلان من آحاد الناس.. أفاد المعنى ملكه للبيت ونسبته إليه، أو إلى فلان بالصاق الملك باسم ماله.. وهذا ما أفاده معنى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يتلوها ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. فبين الباء والاسم الأعظم مفردات الأشياء من العالمين التي استوعبت كل ما سوى الله.. ولعل في ألف الوصل المحذوفة مع الباء التي طولت إحياءً بعلوه في أول رتبة الأسماء وانفراده، وأنه عنه انفصلت الأسماء ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٦٥.. وتشير أيضا إلى التصاق الملك بالمالك على النحو الذي لا يكون لغيره من مفردات موجودات أو مخلوقات العالمين.. وتفصيل ذلك أن هذا الحذف له مدلول ملكوتي على الإله.. وهذا المدلول بدوره يدل على أمرين: أمر كوني وأمر قرآني.. فالأمر الكوني: بالأمر كن فيكون "

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس: ٨٢..

والأمر القولي ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ حيث باسمه تكون الأشياء..  
كما أن حذف الألف أيضا يدل على أننا يجب علينا الوصول إلى الله رب  
العالمين وعمل الصلة معه بأقصر الطرق وأسرع الوسائل مصداقا لقوله  
تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ فَلَيْسَتْ حِجْبًا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ البقرة: ١٨٦

- ولو أن أحدا أعلن إيمانه فقال مثلا "لا إله إلا الرحمن" .. لم ينعقد إيمانه إذ  
يجب ألا تكون الشهادة إلا لله المالك بالاسم الأعظم حتى ينعقد الإيمان "أشهد  
ألا إله إلا الله "

وذلك لأن التحليل الصوتي للاسم الأعظم ينفرد وحده من بين مفردات  
الكلام والصيغ على اختلاف وتنوع ضروبها أنك لو أسقطت حرفا أو حرفين  
أو حتى ثلاثة من أحرفه لبقيت دلالة الاسم الأعظم على الملك فيه، الأمر الذي  
لا يكون مع سائر مفردات الكلام الأخرى.

فدلالة الملك بإسقاط حرف واحد من الاسم الأعظم يتضح في قوله: ﴿ لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ البقرة: ٢٨٤ وبشكل آخر بإسقاط اللام

﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣

وبإسقاط حرفين تبقى دلالة الملك أيضا ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ طه: ٦

والهاء وحدها مع الضم تشير إليه سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد: ٣ .

ولعل في حذف الألف التي قبل الهاء وإظهار التي مع اللام دلالة على أنه الظاهر من جهة التعريف والبيان.. الباطن من جهة الإدراك والعيان... وهذا ما نلمسه في صوت الهاء المهموس في أعماق الحلق.

وهذه الآية الكريمة تجمع معظم ما ذكر من ألوان الحذف ودلالاتها على

الملك: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ طه: ٨

- والآن وقد ثبت لدينا بهذه الباء معاني الملك لله وأن ملكه متصل

ملتنسق به دال عليه يكون السؤال.. كيف يكون ملكه سبحانه وتعالى؟

أ يكون كملك الطغيان الذي كان لفرعون وهامان؟

أو كملك قارون الذي بغى على قومه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

أو كصاحب الجنتين الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه حيث قال: ﴿مَا

أُظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أُنْظَنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ الكهف: ٣٥ - ٣٦

أو كأصحاب الجنة الذين أقسموا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ القلم: ١٧

... كلا.. لقد استوى على أوسع المخلوقات وهو العرش بأوسع الصفات

وهي الرحمن

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَيْءٍ﴾ الأعراف: ١٥٦ "واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه،

فقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ مطابق لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء منها اقتضى شمول

الرحمة وسعتها.. انظر إلى هاتين الآيتين الكريمتين من سورة البقرة:

﴿وَاللَّهُمُّ لِلَّهِ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ١١٣ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٣ - ١٦٤..

إنهما تعلنان بأن الكون كله شاهد لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والرحمة

الفائضة.

وانظر إلى هذا المقطع من آيات آل عمران ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ  
وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ  
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ  
وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران: ٢٦ - ٢٧.

إن هذا الموقع الفريد لهذا المقطع من الآية الأولى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ مع ما فيه من حصر وقصر الخير كله عليه سبحانه وتعالى مع تكرار المشيئة المطلقة في الآيات ليستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها.. ثم إن هذا المقطع على دلالاته هذه هو حلقة وصل وتوازن بين ما سبقها من نداء خاشع في تركيبه اللفظي.. إيقاع الدعاء.. وفي ظلاله روح الابتهاال، وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح.. حيث يستجيش الشاعر في رفق وإيناس.. وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمر الكون وأمور الناس حيث يترقبون وينظرون كل يوم إلى ميزان القوى فإذا هم يصحون على ملك قد زال، وتأسس ملك غيره.. وعزة قد هوت فانتقلت إلى ذل وقام مكانها عز غيره.. فتهم قوامه صاحب الملك بالخير والقسط والعدل للأمور كلها والتي هي طرف من القوامه الكبرى على شئون الكون والحياة.

لقد أشار ما قبل حلقة التوازن ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ إلى مُدرك الخير الظاهر في حياة البشر.. وأما ما بعدها فإنه يشير إلى الحركة الخافتة والسمة الحانية من حركتي الإيلاج لليل والنهار، وحركتي الإخراج للحي من الميت والميت من الحي، حركة في كيان الكون كله، وفي كيان كل حي كذلك..

حركة خفيفة هائلة تشي بيد القادر اللطيف المبدع الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

- وفي السورة التي سميت باسم "المَلِك" .. بِمَ تستهل هذه السورة الكريمة؟..

كما يقول صاحب الظلال إنها تستهل بهذه النتيجة التي توحى بزيادة البركة ومضاعفتها، وتمجيد هذه البركة الفياضة ﴿تَبْرَكَ الَّذِي يَدِرُّ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك: ١.

فذكرُ ﴿الْمَلِكُ﴾ بجوار هذه التسيحة، يوحى بفيض هذه البركة، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية.. إنها ترنيمة تتجاوب لها أرجاء الوجود، ويعمر بها قلب كل موجود، وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم، من الكتاب المكنون إلى الكون المعلوم.

ولعل في إطالة "باء" ﴿بِسْمِ﴾ .. وهي وإن كانت في الأصل حرفاً منخفضاً، فيه إشارة ودلالة

على أن الملك لما اتصل باسم "الله" ارتفع، وعلا، وسما.

وهذا المعنى يتناسب مع أصداء التسيح للمطلع الرخي المديد لسورة

الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ الأعلى: ١ - ٣.

حيث تجاوب التسيح بالاسم في البسمة مع تسيح الاسم في الأعلى.. إضافة إلى ما يشير إليه التناسق والتناسب بين صفة الأعلى والباء

التي طولت في البسمة.. وهذا المعنى يتجاوب مع رد موسى على الطاغية  
فرعون حين سأل موسى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى ﴾ طه: ٤٩.

ليرد موسى بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله عز وجل

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه: ٥٠.

إن "ثُمَّ" هنا في هذه الآية الكريمة ليست للتراخي الزمني.. ولكن استعير  
بها هنا للتراخي الرتبي واهتدائه إلى وظيفته... فهداية كل شيء إلى وظيفته  
مرتبة أعلى من خلقه غفلا.. وهذا التراخي الرتبي لـ "ثُمَّ" يتجاوب أيضا  
مع الباء التي طولت في: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

وتخصيص الإنسان في سورة التين، وفي مواضع قرآنية أخرى كثيرة  
بحسن التركيب، وحسن التقويم فيه فضل عناية بهذا المخلوق ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا  
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين: ٤.

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

الانفطار: ٧ - ٨.

هذا الفضل من العناية بهذا المخلوق الذي كان قد بدأ خلال أطوار النشأة  
المختلفة وتتابعها.. بهذا النظام من سلالة الطين، ثم بجعله نطفة في قرار  
مكين، ثم بخلقه علقة فمضغة، فعظاما فكساءً له باللحم.. هي التي حركت قلب  
ووجدان عمر بن الخطاب، فحقق حين سمع قوله تعالى:



﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ المؤمنون: ١٤ ففجر فاهُ وانفجر وتحركت

شفتاه وترنمت لتتهف ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ " فسبق نطقه بها الوحي الكريم.

إن التجوال والتطواف مع آيات الملك الله في الكون المنظور، والكتاب المسطور.. الملفوفة في رداء الرحمة المبسوطة المنشورة دونه تنفق الحياة.. وتلوى الأعناق، وتشعل الرؤوس شيبا.. وتتحنى الظهور.. وتستنفد الأعمار، ولا يبلغ الذي يطوف أو يجول مع آية واحدة من آيات الله إلا ما يبلغه الواقف على شاطئ أو ساحل البحر المحيط.. يظن بانتهاء البصر عند تطابق الأفق معه أنه قد بلغ نهايته وما هو ببالغه.. أو على طريقة النظم القرآني البليغ:

﴿ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ ﴾ الرعد: ١٤.

### ثانيًا: " الباء للاستعانة والاستخلاف:

لو أنك استخلفت محاميا يتكلم باسمك أمام القاضي في قضية ما.. فإنه يكون خليفة أو نائبا عنك في هذه القضية فقط.. وعندما تستخلف أحدا في مهمة فإنه مهما امتلك من صلاحيات سيكون مقيدا بك، وبالصلاحيات التي خولته إياها ليكون خليفة عنك.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ إذن هي في جوهرها إعلان بأنك الخليفة عن الله وأنتك

باسمه عز وجل تقوم بما تقوم، وأصالة عن دورك الذي كلفت أن تقوم به

باسمه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

البقرة: ٣٠ .

إذن فهذه "البسمة" في حقيقتها ليست مجرد جملة للاستهلال.. ليست قولاً رتيباً... ليست مجرد أحرف تقولها التماساً للبركة.. ليست كل هذا التسطيح الذي ضاعت به أعماق المعاني بل: هي جملة تعلن فيها مهمتك، ودورك ووظيفتك في الأرض... وهي أن تقيم الخلافة الراشدة في الأرض..

نيابة وخلافة عن تعمل باسمه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

### حكاية أول بسمة في التاريخ (1)

كانت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسِنُهَا﴾ أول بسمة في التاريخ وكان الزمان فجر التاريخ، والمكان المعمور كله.. والمناسبة إنقاذ البشرية والعالم كله من نفسه... كان ثمة طوفانان، "وليس طوفانا واحداً" قد أحاطا بالعالم، وجعلته يوشك على الانهيار والزوال.

طوفان غير مرئي استشعره نوح وأدركه قبل حدوثه.. لأنه كان نابعا من اللا توازن الذي غطى المعمور من عدم وجود سد واضح في النفوس البشرية يمنع طوفان الكفر والإلحاد الذي استشرى ونما وفار.

وثمة الطوفان الآخر المادي الذي يقتلع الأخضر واليابس.. يقتلع النفوس والأجسام.. بعد أن اقتلع الطوفان الأول الحياة والأرواح.

وكان ثمة في مواجهة الطوفانين سفينة واحدة.. هي أكثر من مجرد سفينة.. بل هي رؤية مغايرة.. مشروع إنقاذ.. مشروع بناء لعالم جديد.. مشروع ولادة ومخاض يوشك أن يولد من أنقاض عهد قديم!!

1- نقلا عن الدكتور العمري - بتصرف.

في تلك اللحظة الفاصلة بين موت العالم القديم وولادة العالم الجديد.. تعلن لأول مرة أول بسملة في التاريخ: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمَرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هود: ٤١ "

قيل لهم اركبوا فيها.. في الفلك الذي صنع بالرؤية الإلهية.. ولكن بأيدي خليفة الله في الأرض.. ممثلاً في نوح الذي كان يعمل بالنيابة.. وفق المواصفات الإلهية.. كما يعمل أي مستخلف باسم من أخلفه ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ هود: ٣٧

وكانت البسملة يومئذ المركب الذي رحل عن المرافئ القديمة الغارقة.. باتجاه المرفأ الحقيقي الآمن.. وكانت هي "النورس" الذي جاء في خضم الطوفان وحط على ألواح السفينة إشارة إلى قرب الوصول إلى البر الآمن... في رحلة كان مجرى الفلك فيها قائماً على القوانين والسنن الإلهية التي قدرها وسيرها عز وجل في الكون.. وجعل الكون قائماً عليها ومستمر من خلالها.. وكان المرسى هو بوصلة القيم التي توجه السفينة حينما تحركت وتوجهت إلى بر الأمان والخلاص.

والهجرة والحركة هي السنّة الإلهية الدائمة لأجل التغيير والتعمير.. فالهجرة بكل المقاييس هي الحدث الأهم الجليل الشأن الذي غير وجه التاريخ.... ولقد كان الزمان هذه المرة آخر الزمان.. والرحلة بين الحرم الآمن والأرض المباركة.. والمناسبة مرة أخرى هي إنقاذ البشرية والعالم من نفسه.

ولم تكن الحركة والهجرة هذه المرة عبر سفينة صنعت بالرؤية الإلهية.. ولكنها حركة وهجرة صاحبها المعية الإلهية والتأييد الرباني المباشر فكان النصر المؤزر لرسول الله ﷺ وصحبه، والهزيمة المنكرة للذين كفروا.. والفتح المبين لأعظم رسالة غيرت وجه التاريخ وأشرق بها وجه الزمان.. وقد كان قبلها غارقا في ظلمات الشرك والطغيان... ولم يكن ذلك إلا عبر الحركة والهجرة التي أجازها الله من مكة، وكان مرساها في المدينة في حراسة المعية الإلهية والعناية الربانية.

﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
ثَانِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا  
اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا  
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ  
الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٤٠

### بسملة سليمان:

ثمة فرق بين بسملة سليمان الثانية وبسملة نوح الأولى.. فضلا عن كونها هذه المرة قد قيلت بصيغتها الكاملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلا أنها عند البسملة الأولى وقت الطوفان لم يكن هناك خيار أمام من ركب السفينة، كان المجتمع قد انهار.. والطوفان قد اكتسح كل شيء حتى قمم الجبال..وقد بدا أنها لن تنجو من أمر الله.

أما البسملة الثانية " فقد كان المجتمع هذه المرة "سبأ" في أوج نموها وازدهارها.. ولم يكن واضحا للعيان أن ثمة مشكلة في أساساتها وقواعدها.. على العكس تماما بلغة العصر الحديث كانت كل أرقام النمو تجعل من هذا المجتمع، ومن عرشه العظيم مثالا ونمطا يحتذي.

لكن رؤية الاستخلاف التي تتجاوز الظاهر رغم انتفاشه وانتفاجه وبهرجته كانت تعلم أن المشكلة قائمة وضاربة بجذورها وقادمة مهما طال الزمن.

لقد اختلت أساسات وقواعد هذا المجتمع بالسجود لغيره.. والسجود لخلق من مخلوقاته.

﴿ وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل: ٢٤

وكانت "البسملة" مرة أخرى هي رسالة التوحيد والرحمة وطوق النجاة.. والمعول الذي طرق بشدة الأساسات القديمة.. ودمرها من جذورها وأحل مكانها أساسات جديدة قائمة على التوحيد الذي هو فطرة الكون ولم يكن ذلك مرة أخرى إلا عبر ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من خلال رسالة إلى ملكة هذا المجتمع الفاسد.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أِيَ الْقِيِّ إِلَىٰ كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُنُوبِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل: ٢٩ - ٣١.

### ثالثاً: رسالة الرحمة من المالك إلى الخليفة:

منذ أرسل سليمان كتابه الكريم إلى ملكة سبأ استقرت "البسملة" بأن تكون مقيدة بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من بين كل أسماء الله الحسنى على كثرتها.. فإنه عز وجل شاء أن يحدد لنا اسمين فحسب.. لكي يكون عملنا ضمن النطاق الذي يحدده هذان الاسمان... والاسمان يحددان نطاقاً منحازاً للرحمة تماماً.. أي عمل تقوم به وتقول إنه ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولا يمكن أن يصنف ضمن رحمة الله، فهو ليس باسم الله حقاً.

بعبارة أخرى: الخلافة والنيابة والتخويل الذي منحه لك الله، ليس نيابة أو تخويلاً مطلقاً بالتصرف كيفما كان. إنه مقيد حتماً بأن يكون عملك جزءاً من رحمة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. ولذلك فإن البسملة نفسها تكذب كل من تلفظ بها ليسفك دماً حراماً، أو يظلم نفساً..، أو يفسد في الأرض حتى يأكل طعاماً لم يذكر اسم الله عليه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الأنعام: ١٢١.

البسملة: بالتعريف وبارتباطها الأساسي بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تعريه وتكشفه.. تبرأ من كل فعل يتخفى تحت اللفظ دون المعنى.. من أجل ذلك كان "اسماً لله" اللذان اختارهما الحق في "البسملة": هما ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. لتتذكر أن نيابتك وتخويلك مقيد.. وأن استخلافك مشروط ومرتبب باسم من

استخفافك على أساس الرحمة.. وهذا يجعلك تؤمن أنه سيعينك.. سيقويك..  
سيجعلك مؤهلاً للبدء في مهمة التغيير.

## البسمة آية من كل سورة

ومع الخلاف حول البسمة أهي آية من كل سورة؟.. أم هي آية من  
القرآن يفتح بها عند القراءة لكل سورة.. ومع انتهاء العلماء في ذلك إلى أن  
الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة وبها تحسب آياتها سبعة.. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ

سَبْعًا مِّنَ الْمُثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧.

لأنه يُثنى بها ويُكرر في الصلاة.. كما أنه في حديث "قسمت الصلاة  
بيني وبين عبدي نصفين" .. وفيه " وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى على  
عبي.. بدليل التثنية والتكرار بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي في البسمة.  
وقد يؤيد ذلك كتابتها في المصحف الإمام حيث لا فصل بينها وبين سورة  
قبلها.. فإنها أول سورة نزلت تامة.. وما نزل من أول سورة العلق لم ينزل  
معه "البسمة".. يؤكد ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال " قال  
رسول الله ﷺ إذا قرأتم الحمد لله فأقرأوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .. فإنها  
أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني.. و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾  
إحدى آياتها(1).

---

1- فتح الباري 3082/156/551/8 تحفة الاخوزي 522/8

ومع انتهاء العلماء إلى ذلك في أمر البسمة.. أقول فإنه مع نهاية التجوال والتطواف مع معاني البسمة أجد نفسي كمن استنفد طاقته في رحلة طويلة مضنية ظن لأنه استنفد طاقته أنه أشرف على نهايتها، إذا به يكتشف أنه لم يقطع سوى خطوة واحدة، أو بضع خطوات على طريق يبدو ممتدا إلى غير نهاية...!!

ذلك أن نسبة البسمة من الفاتحة كنسبة الفاتحة من القرآن، الذي هو تفصيل الإجمال فيها.. لقد حوت الفاتحة مثلا على ثلاثة من أسمائه الحسنی، وهي مدار الأسماء الحسنی والصفات العليا وهي "الله" "الرب" "الرحمن".. إضافة إلى صفات كونه "الرحيم" ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. لقد شملت وحوت إضافة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كل هذه الأسماء والصفات... مع زيادة اختصاص المؤمنين من عباده باسم "الرحيم"

فبإسم "بِسْمِ": وقد دلت على الملك كما سبق أن بينا تفيد أنه "مالك"

الله: في "بِسْمِ اللَّهِ"... يفيد أنه مستلزم لكمال الربوبية المتضمنة في

الحمد.. فهو الرب بدلالة الاقتران بينهما في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: ثنى بها في الفاتحة

ثمّة أمر آخر وهو أن القرآن، وقد كان وحيا يلقيه الروح الأمين في قلب

النبي ﷺ.. وكل سورة مبتدأة منه ببسمة.. فمتعلق البسمة من ملك الوحي



يُعلم من أول آية نزل بها، وهي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾... فمعنى البسمة الذي كان يفهمه النبي ﷺ من روح الوحي: اقرأ يا محمد هذه السورة، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، على عباده.. أي اقرأها على أنها منه تعالى لا منك.. فإنه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة... وعلى هذا كان يقصد النبي ﷺ من متعلق البسمة " ما معناه إنني اقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي، وعلى أنها منه لا مني.. فإنما أنا مبلغ عنه عز وجل بأمره "﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ النمل: ٩١.. ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ النمل: ٩٢

وهكذا.. فمع تأمل معاني البسمة والتدبر فيها نجد أن البسمة بمحتواها، وظلال معانيها هي رسول ومفتاح طاقة النور المودعة بين سور القرآن وآياته فضلا عن فاتحته.. الأمر الذي يجعل الباحث يميل إلى رأي من يقول بأن البسمة آية من كل سورة وليست من الفاتحة فقط.. والإمام القشيري في كتابه "لطائف الإشارات" يعتبر البسمة قرآنا.. وأعطى لها تفسيراً مختلفاً منوعاً لكل سورة من سور القرآن لا يكاد يتشابه مع نظيره في السور الأخرى.. ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسمة يتألف مع السياق العام للسورة كلها.. فـ "الله والرحمن والرحيم".. لها دلالات خاصة في سورة الفاتحة، ولها دلالات أخرى خاصة في النساء والأنفال.. وهكذا فعل البقاعي في تفسيره المعروف باسم "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

والحقيقة أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .. فضلاً عن كونها آية من الفاتحة فقط أو أنها آية من الفاتحة ومن أول كل سورة فإن لها فوق ذلك دلالتين عامة وخاصة:

أما **الدلالة العامة** فهي كما قيل " للتيمن والتبرك " .

أما **الدلالة الخاصة** فيتجلى من خلال إيقاعها الموسيقي الخاص الذي يتلاءم مع كل سور القرآن .. فحين تكون فواصل الآيات التي تليها من أي سورة مثلها على **الياء والميم** أو ما يماثلها – وهذا كثير – تكون توفيقاً موسيقياً ممهداً.. وحين لا تكون الفواصل التي تليها كذلك تستمر في أداء مهمتها، فضلاً عن استحضار الشعور بـ"الله" "الرحمن" "الرحيم" .. ذلك الشعور الوديع الذي يوحى بالقرب من الله عز وجل، كشعور المصلي خاصة في السجود.. لذلك كان للتلاوة آداب وثواب.

يُضاف إلى ذلك دلالة البسمة من خلال علاقتها بخواتيم السور من حيث التناغم الموسيقي، أو التناسق الدلالي .. فهناك عدد من فواصل الخواتيم ينتهي بالياء والميم كـ"النساء" و"الأنعام" و"الأنفال" و"النور" .. وعدد آخر يختتم بالياء والنون أو الواو والنون أو بروي آخر مقارب.. بل التناغم يسمو حين تكون الخاتمة بفاصلة كفاصلة "الأنعام": "رحيم" .. وكفاصلة "المؤمنون": ﴿وَأَنْتَ

أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ .. حيث تتعانق الدلالة والترنيمة معا..

وكثيرا ما ينهي القارئ تلاوته بقوله "صدق الله العظيم" .. فتتكامل مشاعر  
الأنس برحمة "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" في البداية.. مع مشاعر الإجلال والتعظيم في  
النهاية.

ونحن إذ ننهي رحلتنا مع البسمة بقدر طاقتنا نقول:  
إذا كان صنيع بسم الله.. وحدها في دعاء نوح عليه السلام... ما رأينا من  
رحمة.

وإذا كان صنيع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كتاب سليمان عليه السلام  
﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ النمل: ٣٠.. ما رأينا من رحمة !

... فكيف بصنيع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كتاب الله رب  
العالمين!.. إنها الرحمة الصافية الضافية الواسعة الشاملة التامة الكاملة..

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾... وبسمة الفاتحة هي مفتاح ملك  
الرحمة التي وسعت كل شيء!!..

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾  
**حمدني عبدي**



## ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

### حمدني عبدي

شاء سبحانه وتعالى أن يثني البسملة التي تصدرت الفاتحة والقرآن الكريم كله بالاستهلال بالدعاء الجميل والثناء العريض، والترتيل العذب " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " .. والذي ارتضاه المولى لمناجاته، نرده ونكرره في صلواتنا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. سمع الله لمن حمده .. ربنا ولك الحمد.. إنك حميد مجيد.. فكان الأكل الداني الجنى للشجرة العالية الفروع التي ثبتت غرسها بنبتة الابتداء الجميل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فعمت به فيوضات الرحمة سائر المخلوقات والموجودات.

إن هذا الابتداء بفحوى كتاب سليمان ومردوده العذب الجميل بذلك الحمد.. أوجز علاقة عريضة مديدة بين العباد ورب العباد.. عرضها دفقا كتاب الله المسطور بآياته وكتابه المنظور بآلائه، وأمدها إلى الميعاد حين تقوم الساعة.

واختيار الحمد من بين ضروب وألوان الثناء على الله له معناه ومغزاه.. فالحمد فضلا عن صيغته المصدرية التي تشير إلى كونه سبحانه هو مصدر الحمد.. واقترانه بأل التعريف الجامعة التي استوفت كل مراتب الحمد جنسا بالإحسان.. واستغراقا بالاستيعاب.. وعهدا بالتجدد... تلتقي فيه معان ثلاثة.. أولها: الثناء على الله بصفات الكمال.. وثانيها: بالأفعال الدائرة بين الفضل والعدل وثالثها: بالشكر الذي يقابل الخير النازل المسدى.

وبذلك يختلف الحمد عن المدح، وكذلك عن الشكر.. فبينما يكون الحمد للذات والصفات والأفعال.. نجد المدح لا يكون فقط إلا على الصفات.. فقد تمدح الذهب واللؤلؤ وهو من الجماد، ولكنك لا تحمده.. كما أن المدح يكون للحي وغير الحي.. أما الحمد فلا يكون إلا للحي العاقل.. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١.. والمدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده.. أما الحمد فلا يكون إلا بعد الإحسان...

وأما الشكر فيقع على الأفعال، فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.. والحمد يكون على الإنعام الواصل إليك أو لغيرك.. فالشكر للأفعال يجري مجرى قضاء الدين.. والحمد أعلى كعبا وأظهر عبودية لأنه يجري على ما توجبه الحكمة.. فهو حمد لصفات الذات لله، ولغيره مجاز بمعنى رضي.. يقول تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الروم: ١٨... ولذلك فإن الحمد رأس الشكر وسنামه.. فكل حمد شكر.. وليس كل شكر حمدا.. قال رسول الله ﷺ.. "الحمد رأس الشكر، وما شكر الله تعالى عبد لم يحمده"<sup>(١)</sup>..

.. ولقد سمي الحبيب ﷺ محمدا لأنه أوفى العباد بحمده سبحانه في عالم التكليف.. كما أنه كان في عالم الذر قبلها أحمدهم.. شهد بها عيسى ومحمد مازال في عالم الذر ﴿وَبَشِّرِ رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦

<sup>١</sup> - كنز العمال - ح 6914

... ومن لطائف الإشارات أن مادة أحرف الحمد تبدأ من أقصى الحلق بجوار القلب لتنتهي إلى اللسان.. فالقلب يوافق اللسان.. والمدح يبدأ من اللسان لينتهي إلى القلب، فلا يشترط موافقة القلب اللسان.. بينما مادة الشكر بتمامها مدارها الفم واللسان.. فالحمد بذلك هو الثناء على سبيل اليقين والصدق والاختيار.

... ولذلك كان الحمد صيغة الرحمن التي ارتضاها تعالى لذاته العلية.. كما ارتضاها لخلقه هديا عنه، وتوفيقا منه، وتعبدًا له.. وتلك خصوصية "الحميد".

... ولا يتأتى الحمد بالإرادة والاختيار إلا من عبد مؤمن.. وتلك خصوصية "الحامد".. ولقصر الحمد في الكتاب الكريم على الله بالصفة الاسمية والخبرية: الحمد لله.. والله الحمد... وليس بالصفة الفعلية الإنشائية... لأنه ليس في مقدور عبد أن ينشئ ويفي من لدنه بحمد الله هو أهله... وتلك خصوصية "الحامدية".

ومن ثم كان الحمد لله أولاً، وكان الحمد لله آخرًا ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص: ٧٠.

### رب العالمين:

هو أول اسم أو وصف تعريفى لله عز وجل.. والرب إذن.. هو الخالق والمالك والرازق.. لكن اختيار لفظة الرب تحديدا له معنى ومدلول أعمق.. فالفعل "ربب" الذي اشتق منه لفظ "الرب" يحتوى على معاني التربية.. ربى الصبي قام بتربيته.. ويستخدم الفعل أيضا للأغنام والمواشي التي تربي



للحصول على ألبانها دون أن تذبح.. ويسمى ابن المرأة من زوج آخر ربيبا  
عندما يربيه زوجها.

والفعل يحتوى أيضا على معاني **الجمع والإِنماء**.. فربى السحاب جمعها  
وأَناها.. وكذلك ربي المطر جمعه وأَناه.

**الربوبية إذن:** تعني إلى جانب الخلق والملك والرزق.. تعني أيضا التربية  
والجمع والإِنماء.. ومن ثمَّ فإنَّ الإيمان الحقيقي بالله عز وجل يمسك بشخصية  
الإنسان المؤمن **فيربيها** وينظمها بشكل متوازن.. بحيث يكون مركز الثقل  
فيها بطريقة **تجمع** كل الأطراف **وتنميها**.. أما حينما يكون مركز الثقل خاليا  
خاويا لا جمع فيه ولا نماء أو مليئا بأشياء غير مؤهلة للإمساك بزمام

الشخص وأطرافه.. فإنه وإن بدا قويا متماسكا سيكون **فُرْطًا** ﴿ وَأَصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿ الكهف: ٢٨

- إذن فإطلاق الربوبية في هذه السورة الكريمة وشمولها للعالمين جميعا  
هي مفترق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى  
رب واحد تقر له بالسيادة المطلقة وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة،  
والحيرة بين شتى الأرباب... ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله  
الدائمة وربوبيته القائمة.. وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبدا ولا تفر ولا  
تغيب.

واختيار لفظة "الْعَلَمِينَ" حصرا بنسبها إلى جمع العقلاء وليس العالم

أو العوالم.. يشير إلى جانب أن الله سبحانه هو المربي لجميع "الْعَلَمِينَ" (1) وهم كل ما سوى الله بخلقه لهم، وإعداده لهم، وإنعامه عليهم بالنعمة العظيمة التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء.. إلا أنها تشير أيضا فضلا عن ذلك بأن خطاب الربوبية هذا موجه إلى كل من يملك الوعي أو أدوات الوعي التي تجعله مهيبا لكي ينذر (2) أو يهدي (3) أو يتذكر (4) أو يرحم (5).

ولذلك فلم يشأ سبحانه وتعالى أن يستهل فاتحة كتابه بقوله: ﴿رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الصافات: ٥ أو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾

الشعراء: ٢٨ لأن الإنسان، وليس غيره، هو مركز الكون.

- وتربية الله لخلقه نوعان.. عامة وخاصة:...

فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم.. والخاصة هي تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.. دل على ذلك

1- حذف ألف العالمين لعله يشير إلى ما لا يدرك من العوالم الأخرى كعالم الجن ، وعالم الملائكة.

2- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١.

3- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 96 .

4- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنعام: ٩٠.

5- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧ .

كونه سبحانه وتعالى في نطاق دائرة الربوبية هذه "رَحِيمٌ" بالمؤمنين خاصة  
".... ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب: ٤٣.

واختص رسوله الحبيب ليكون بالمؤمنين خاصة ﴿رَأَوْفٌ رَحِيمٌ﴾..  
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨.

فحقيقة هذه التربية الخاصة كونها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من  
كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ "الرب"..  
فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.. وبذلك دل قوله: ﴿رَبِّ  
الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق، والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر  
العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

### منزلة الحمد من البسمة:

نسبة "البسمة" من الفاتحة كنسبة الفاتحة من القرآن.. ولذلك فهي  
التهاتف المشترك الدائم الواصل بين سور القرآن.. كذلك فإن مقام  
﴿الْحَمْدُ﴾ من البسمة هو مقام اقتضاء النعمة وشهادة الإحسان مقابل  
نعمة التهيئة والتأسيس التي قامت بها البسمة.. فبين الباء التي طولت في:  
﴿بِسْمِ﴾ والاسم الأعظم "الله" مفردات الأشياء من العالمين التي استوعبت  
ما ظهر وما خفي من هذه المفردات بدلالة حذف ألف ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

ومن ثمَّ فإنَّ "الحمد" عبر هذه "البسمة" اقتضى أن يكون الهتاف التالي بين سور القرآن وآياته.. وذلك أن الحمد له في كتاب الله مواقع فريدة ومتعددة.. فتارة يستهل به أول السور كحمد الفاتحة وحمد الأنعام والكهف وسبأ وفاطر على النحو الموزع المنظم البديع.. ففي أوله وعلى رأسه يأتي **حمد الفاتحة** "

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ حمداً طيباً مباركاً على كل ألوان النعم المادية التي تشمل الإيجاد من العدم، والإمداد من العدم.. وكذلك النعم المعنوية على إمداد الأرواح بغذاء الهداية بالقيم المعنوية.

ثم يأتي على سبيل التفصيل لهذا الحمد الجامع الشامل عند نهاية ربع القرآن الأول والشروع في ربه الثاني **حمد الأنعام** كدلالة على أول تلك النعم المادية بخلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور.

ثم عند مركز القرآن ومنتصفه تقريبا يأتي **حمد الكهف** "إشارة إلى أنه محور الحمد وسنامه على نعمة الهداية بالقيم من خلال الكتاب الكريم الذي لم يجعل له عوجا.. ولعل هذا الموقع الفريد لذلك الحمد يشير إلى أن نعمة الهداية بالكتاب هي أعظم النعم وأرفعها منزلة.. يشير إلى ذلك توسطها كقبة الميزان بين معنى كفتي الحمد المادية المتمثلة في الأنعام قبلها، وحمد سبأ وفاطر قرابة أول الربع الأخير بعدها.

ثم يأتي مرة أخرى حمد الفاتحة كختام لدائرة الحمد التي استهل بها الكتاب الكريم أيضا... وكأنما هذا التوزيع الفريد لهذا الحمد عند أركانه الأربعة هو دعائم البناء التي قامت على أساسها أساسات الكتاب الكريم.

- كما أننا نلمس في ضروب وألوان هذا " الْحَمْدُ " على رؤوس السور  
لونا من ألوان الترتيب يتناسب مع ترتيب الخلق المادي على مراحل المتتالية  
ثم الحمد المعنوي على نعمة الهداية بالكتب والرسل.. ثم يأتي ختاماً حمد  
الفاتحة على هذه النعم المادية والمعنوية حمداً شاملاً جامعاً على نوعي النعم  
على الترتيب التالي:

1- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

الأنعام: ١ .

2- ﴿ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ

وَتِلْكَ وَرُبِعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ فاطر: ١ .

3- ومن ثمَّ بدلالة الملك يكون ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ سبأ: ١ .

4- ثمَّ تبدأ مرحلة الهداية بالكتب والرسل فكان ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ

الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ الكهف: ١ .

5- وختاماً كان الحمد الشامل على نعم الخلق..... والملك..... والهداية:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

- كما أن هناك من سور القرآن ما اختتم بالحمد كما في الصافات:

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ الصافات: ١٨٠ - ١٨٢ .

فسبحانه ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ القصص: ٧٠ .

ليس هذا فقط فإنه في مواطن أخرى يأتي الحمد بين ثنايا الآيات كما في حمد

غافر ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿ (١) وحمد يونس ﴿ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

وَأَخْرَجُ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٢) وحمد الأنعام

﴿ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (٣) وله في كل

موقع مذاق ودلالة .

---

1- غافر 65.

2- يونس 10.

3- الأنعام 45.

## الحمد لله بين جناحي الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بين جناحي أو حاضنتي الرحمة له موقع فريد ومتميز يكون له من المعاني والدلالات ما يفوق الوصف والحصر.. ومع انتهاء العلماء إلى أن البسمة آية من الفاتحة، وبها تختسب آياتها سبعا.. وهذا ما تشير إليه دلالة الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ الحجر: ٨٧ فإن هذا يوحي إلى أن معاني: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ في البسمة.. غير معانيها في ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ التي تلي الحمد في سياق الفاتحة.

فـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بين جناحي الرحمة قبلها وبعدها يجعلها بمنزلة القلب النابض أو الصدر الرحيب لطائر يموج بالحياة وقد توازن محلقا في السماء بين جناحي رحمتين منشورتين يرفرفان حوله.

ونفصيل ذلك أن اسم الجلالة "الله" في ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يرتبط بقوة بفيوضات رحمة الإلهية المتمثلة في البسمة في قوله ﴿ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ واسم الرب في قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يرتبط بقوة بفيوضات رحمة الربوبية المتمثلة في ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ بعدها..

قد يقول قائل: بأن صفات الربوبية والرحمة والملك التي وردت في سياق الفاتحة كلها نابعة من مشكاة صفة الإلهية التي وردت في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لدلالة اسم "الله" على جميع الأسماء الحسني ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف: ١٨٠

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾

الإسراء: ١١٠.

نعم ما يقوله القائل صحيح.. ولكن لو تأملنا ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة التي وردت في الفاتحة "الله - الرب - الرحمن" كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب؟... وكيف جمعت الخلق وفرقتهم.. فكان لها الجمع والفرق؟.

فاسم "الرب" له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره.. فاجتمعوا له بصفة الربوبية.. وافترقوا بصفة الألوهية.. فألهه السعداء وأقروا له طوعا بأنه ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي لا ينبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة، والإخبات والخشية والخضوع والتذلل إلا له... وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقا مشركين في السعير.. وفريقا موحدين في الجنة.. "فالألوهية" هي التي فرقتهم.. كما أن "الربوبية" هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع والأمر النهي مظهره وقيامه من صفة "الألوهية".



والخلق والإيجاد والتدبير والفعل مظهره وقيامه من صفة "الربوبية".

والجزاء والنار من صفة الملك وهو ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾.

فأمرهم بالهيته.. وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته.. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله.. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.. وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وعباده.. فالتأليه منهم له.. والربوبية والرحمة منه لهم.

- فالرحمة سبب واصل بينه وبين عباده.. بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه.. فبينهم وبينه سبب العبودية.. وبينه وبينهم سبب الرحمة.

ومن لطائف الإشارات أن ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾ مع قراءة السر للبسملة قبلها

تشير إلى أن الله له الإخلاص والعبودية... و﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مع إظهار ﴿ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴾ بعدها يشير إلى أن له شهادة الإقرار بالنعمة والإحسان والربوبية.

- وذكر الحمد بين أسمائه سبحانه وتعالى في الفاتحة.. وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه سبحانه وتعالى محمود في ألوهيته.. محمود في ربوبيته

محمود في رحمته محمود في ملكه.. وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود.

... فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده.. وكمال من الآخر بمفرده.. وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

أولاً: دلالة اقتران "الْحَمْدُ لِلَّهِ" بـ "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" قبلها:

يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
البقرة: ١٦٣.

ويقول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الإسراء: ١١٠.

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان عندما سأله جبريل عن الإيمان .. أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره (1) .

والسؤال الآن: ما هو موقع وارتباط الحمد من هاتين الآيتين الكريمتين والحديث الشريف؟

الجواب: إن الكتاب الكريم قد أودع معاني وأصول التوحيد الواردة في الآيتين، ودعائم الإيمان وأصوله في الحديث الشريف في لباب آيات الحمد التي استهل بها سوره في الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر.. فتعانق الحمد فيها مع هذه الأصول والدعائم.

- فالإيمان بالله في الآيتين وفي الحديث الشريف يتعانق مع حمد الفاتحة

و حمد الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

1- رواه مسلم في كتاب الإيمان (8)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

الأنعام: ١

- والإيمان بالملائكة تعانق مع حمد فاطر:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أجنحةٍ

مثنى وثلاث وربوع ﴾ فاطر: ١.

- والإيمان بكتبه ورسله تضمنه وتعانق معه حمد الكهف:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ الكهف: ١

- والإيمان باليوم الآخر، والقدر خيره وشره سعى له حمد سبأ:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ سبأ: ١.

وهكذا استقى الحمد في أوائل هذه السور الكريمة من مشكاة نور الحمد

الشامل الفياض في ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. فاستجلب معه قبسات

من نور الرحمة التي عانقتها.. ولذلك يأمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوه ونحمده

بالحمد الشامل على نور الهداية بالإيمان والدين الخالص ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ غافر: ٦٥.

ثانياً: دلالة اقتران رَبِّ الْعَالَمِينَ بِـ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بعدها:

لقد كان الحمد مقترنا "بالرحمن الرحيم" التي قبلها يمثل حمد من له صفات الكمال ونعوت الجلال التي من أجلها استحق الحمد في الأولي والآخرة: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص: ٧٠.

فله الحمد لعدم اتخاذ الولد، وعدم اتخاذ شريك في الملك.. ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ الإسراء: ١١١.

وله الحمد لكونه لا يموت، لتضمنه كمال حياته ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ الفرقان: ٥٨.

كما حمد نفسه بكونه ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾.. لتضمن ذلك كمال قيوميته..

وحمد نفسه بأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدا.. لكمال عدله وإحسانه.

وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار.. لكمال عظمته.

وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان لكمال علمه.

... فحقيقة هذا الحمد مقترنا بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبلها.. تابعة لثبوت  
أوصاف ونعوت الكمال، فمنبعها ومنشؤها كمال وجلال الإلهية ..  
- أما حقيقة الحمد المقترنة بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التي بعدها.. فهي حمد  
افتران "الربوبية" في مقطع الآية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .. فهو حمد مؤانسة  
ومجانسة وملازمة الربوبية للمربوبين والمخلوقين.  
ولقد سبق أن أوضحنا أنه سبحانه وتعالى قد جمع خلقه بوصف  
"الربوبية" .. وفرقهم بوصف الألوهية.. وإذن فاقتران ربوبيته سبحانه وتعالى  
برحمته.. كافتران استوائه على عرشه برحمته.. فـ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ  
أُسْتَوَى﴾ مطابق لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ... فإن  
شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها اقتضى شمول الرحمة  
وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ  
رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف: ١٥٦ .

وسبحانه وتعالى وسع كل شيء رحمة وعلما.. ورحمته سبقت علمه كما  
سبق غضبه.. وهذا "السبق" لرحمته هو عين الرحمة التي كتبها على نفسه..  
فسبحانه.. ما أرحمه بخلقه وعباده.

إن التثنية بتكرار ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في آية مستقلة يؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، وتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، وبين الخالق ومخلوقاته.. إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء.. إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة.. والحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية التي أنست وجانست ولازمت المربوبين والمخلوقين.

وقبل بيان آثار هذه الرحمة نرصد هذه الآيات التي تربط الرحمة بالربوبية يقول تعالى: ﴿فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الأنعام: ٥٤

فسبحانه لم يكتب على نفسه أي شيء آخر سوى "الرحمة".

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ طه: ٩٠.

ويقول: ﴿رَبِّنَا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾

فكل ما في الوجود من ناطق وصامت، وبر وفاجر، ومؤمن وكافر.. كل ذلك مشمول برحمة الله الذي يعلم الجزئيات والكليات لا يخفى عليه شيء..

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .. ويقول:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾

ويقول: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾

النبا: ٣٧

- والآن نعايش هذه الرحمة التي تحتضن الإنسان في كل لحظات حياته.. تلك الرحمة التي تلازمه حينما يضطر أن يتجاوز حدا معيناً.. وعلى حد تعبير الدكتور العمري هي الرحمة مع النظر بالشروط المخففة، وإفساح المجال لمن يستحق هامش الاضطرار.. هي الرحمة التي ستأمل أن تشملك على اضطرار هنا أو خطأ هناك لا يخلو منه الإنسان.. هي الرحمة التي تقويك.. الرحمة التي تجعلك أصلب وأكثر إثماراً، وأكثر فاعلية.. إنها الرحمة التي تخرجك من الرحم فتجعلك تولد من جديد.

ولذلك فإن كلمة "الرب" وهي تقترن "بالرحمة" هي الأخرى والأقرب في

الدعاء: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ ﴿ آل عمران: ٨

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿

النمل: ١٩

﴿ رَبَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿ المؤمنون: ١٠٩.

- كما اقترنت ربوبيته برحمته على غير سبيل الدعاء في كثير من مواقف الضعف الإنساني حينما تتجاوز حدا معيناً.. ثم تأمل في قبول التوبة، والرفقة، والمغفرة، والمودة من خلال نافذة رحمة الربوبية الواسعة.

ففي مجال قبول التوبة: ﴿ فَلَقِّنِي ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ البقرة: ٣٧

وفي مجال الرأفة المتضمنة في رداء الرحمة: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ

بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿

النحل: ٧.

وفي نطاق اقتران ربوبيته بمغفرته ورحمته ﴿فَمِنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا

عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ الأنعام: ١٤٥.

وعن اقتران مودته برحمته مع ربوبيته: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ

تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿ هود: ٩٠.

### أجواء الحمد والتسبيح القرآني بين الرحمتين:

شاء سبحانه وتعالى أن يستهل كتابه بين آيتي الرحمة قبلها وبعدها بهذه

التسبيحة والترنيمة التي تتجاوب لها أرجاء الوجود، ويعمر بها قلب كل

موجود ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿



ولأن سبحان الله والحمد لله كلمتان حبيبتان إلى الرحمن<sup>(1)</sup> والتسبيح نصف الميزان والحمد لله تملؤه<sup>(2)</sup> وهما أحب الكلام إلى الله<sup>(3)</sup>.  
فقد شاء سبحانه وتعالى أن يقرن الحمد بالتسبيح تارة، ويفردهما تارة أخرى.. ونحن إذ يشغلنا الحديث عن الحمد سنكتفي بالآيات التي ذكر فيها الحمد مفردا مع مزيد اهتمام بالآيات التي اقترن فيها الحمد والتسبيح معا.. ذلك أن التجاوب والتناوب بين الحمد والتسبيح في النظم القرآني يثري جو المناجاة ولطائف الأنس بين العباد ورب العباد.. فالعبد يتقلب بين تسبيحة تنزيه وتقديس للذات العلية.. وترنيمة حمد بالثناء العريض على الصفات الجاية وأفعال الإحسان الرضية.

فالتسبيح توحيد بالتنزيه عن وجود الشريك في الخلق، وعن الشريك في القدرة والإرادة أو المنح والمنع.. والحمد توحيد على صفات الذات والأفعال الدائرة بين الفضل والعدل.. فالحمد يقابل الخير المسدى.

---

1- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " البخاري ومسلم .  
2- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال " التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملؤه " الترمذي.

3- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ "ألا أخبرك بأحب الكلام إلي الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله تعالى : " أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده " .

## الفروق بين الحمد والتسبيح

أولها: سبح سبحانه وتعالى نفسه قبل أن يسبحه خلقه فقال: "سبحان" التي

جاءت على رأس سورة الإسراء بالصفة الاسمية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ

بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١ .

ثم علم سبحانه خلقه كيفية تنزيهه وتسبيحه على مراحل وحلقات متدرجة على رءوس الآيات والسور بالصيغة الفعلية.

فمن تسبيح لجملة ما في الكون إجمالاً ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحديد: 1.

إلى تسبيح لكل ما في السموات وما في الأرض تفصيلاً ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر: ١ .

إلى مداومة وانتظام التسبيح ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ

الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الجمعة: ١

إلى الأمر المباشر لخليفته في الأرض بالتسبيح والتنزيه: ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ

الْأَعْلَى﴾ الأعلى: ١

ولما كان التسبيح على النصف من الحمد كما جاء في الحديث الشريف "التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملؤه.. " فإن الحمد لفضله وعلو شأنه، وعدم قدرتنا على الإيفاء به لم يكن له مثل هذه المراحل ولم يقع "الحمد" في الكتاب الكريم إلا بالصيغة الاسمية المصدرية.. ولم يأت بالصفة الفعلية في الكتاب الكريم إلا مرة واحدة على سبيل التعريض بالذين أوتوا الكتاب الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا.. في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ١٨٨ .

ومن ثمَّ كان "الحمد" بالصيغة المصدرية، أو بكونه سبحانه: "حميد" ولم يأت الحمد بصيغة الأفعال كما كان مع التسبيح.. ولم يكن أقرب العباد إلى الإيفاء بالحمد سوى رسول الله ﷺ فكان "أحمد" بصيغة التفضيل.. فكان نصيبه من ذلك ﷺ أن كان "محمدًا" فهو "محمود"

ثانيها: التسبيح للذات.. والحمد للذات والصفات والأفعال.

ثالثها: الحمد جماع الشكر على كل حال، ورضا في جميع الأحوال.. والتسبيح إقرار لكمال الله تعالى وتنزيهه ساحتها عن كل وصف وعيب ونقص.. فالحمد بذلك أخص الذكر وأفضله.. والتسبيح أعم الذكر وأصفاه.

والسؤال الآن: لِمَ ذُكِرَ الحمد في أول الكتاب حتى تسمت باسمه "سورة الحمد".. ولم يُفْتَحْ بالتسبيح رغم تقدم التسبيح في الذكر على الحمد "سبحان الله وبحمده" ؟

أولاً: الأمر مراعاة شأن... فالقرآن قد وقع خطاباً للإنسان الذي كان منه وجوب الحمد اقتضاءً بعد خلقه.. لذا لزم التصدير في أول سورة الحمد بما هو منوط للإنسان فعله بما فطره الله عليه ويسره له وهو "الحمد لله".

ثانياً: التسبيح داخل في التحميد وليس العكس.. فالتسبيح يدل على كونه مبرراً في ذاته عن النقائص.. والتحميد يدل على كونه محسناً إلى العباد.. ولا يكون محسناً إليهم إلا إذا كان عالماً بجميع المعلومات ليعلم مواقع الحاجات، وقادراً بالمقدرات.. ولا يكون ذلك إلا إذا كان غنياً في نفسه، وإلا شغله حاجة نفسه عن حاجة غيره.

فثبت أن كونه محسناً لا يتم إلا بعد كونه منزهاً عن النقائص والآفات.. فالتسبيح للذات.. والحمد للذات والأفعال والصفات.

ثالثاً: التسبيح متضمن في البسملة.. ذلك أنك تستعيز في الاستعاذة بالله الأجل الأكمل.. وتبدأ البسملة باسم الله الأجل الأكمل.. والتي تعني ضمن معانيها المنزه عن كل نقص وعيب.. فالتسبيح هو تأسيس لمقام الحمد.. متضمن في البسملة.

- نعود إلى أجواء الحمد والتسبيح بين الرحمتين مرة أخرى.

فلقد نشأ وتفرع عن هذا الدعاء الجميل والحمد العريض ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في فاتحة الكتاب ألواناً وضروباً من الحمد تنوعت في الكتاب العزيز بين حمد على صفة الألوهية، وحمد على صفة الربوبية، وجمعت بينهما في مواطن كثيرة.

- لقد سبح بحمده الكون كله.. بل كل ما في الكون.. سبحت له السموات

السبع والأرضين ومن فيهن ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

الإسراء: ٤٤

- بل قطع الطريق على كل من يماري في تسبيح النبات والجماد في ذات الآية الكريمة:

﴿ .. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء: ٤٤

- سبحت له الملائكة الكائنات النورانية التي لا يعترها شك في تنزيهه

سبحانه وتعالى.. ومع ذلك فهي تسبح ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ

الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ الزمر: ٧٥.

- وحملة العرش يسبحون بحمد ربهم: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ غافر: ٧

ومن ثمَّ سبح له الإنسان أرقى وأكرم المخلوقات.. ولم يقتصر التسبيح بالحمد على دار الحياة الدنيا بل كان في دارها.. شمل كل الأوقات حين يمسون وحين يصبحون، وعشيا وحين يظهرون.. قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.. بل ومن الليل وأدبار السجود، وحين القيام وإدبار النجوم.

## أولاً: ظلال الحمد والتسبيح في نطاق رحمة الألوهية

من أسمائه سبحانه وتعالى: "السُّبُّوح" وهو يقع على معنيين: بمعنى الذي يسبح ذاته العلية.. وبمعنى الذي فطر الكون كله على تسبيحه.. فهو مسبِّح لذاته.. ومسبِّح من كونه ومخلوقاته..

ومن أسمائه أيضا "الحميد" .. له الحمد ذاتا.. وله الحمد من كونه  
ومخلوقاته لتجلي نعمه إحسانا بتسبيحه لذاته يقول: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ  
مَلَائِكَةٌ كُلٌّ شَيْءٌ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس: ٨٣ .

ومن أمثلة حمده لذاته ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

- وعن حمد وتسبيح كونه ومخلوقاته يقول: ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ  
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾  
الإسراء: ٤٤

- وفي إطار توحيد الله بالحمد العام المطلق، والشكر الشامل التام.. كل ما  
في الكون يسبح: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ  
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التغابن: ١ .

- وينعي سبحانه على كل من يجادل في الله، فيحرم نفسه نعمة التسبيح  
والحمد لله الذي هو سنة الكون وفطرته.. فيقول في مقام التعريض بغفلة  
الإنسان... ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ  
الضَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ  
الْحِجَابِ ﴾ الرعد: ١٣ .

فعمر الرعد مجرد لحظة " هي كل عمره " يولد فيها فيسبح بحمد الله ثم  
يموت.

- ولأجل تنزيهه وكماله سبحانه وتعالى كان التسبيح والحمد لله في كل الأوقات حين تغلب الليل والنهار.. كما له الحمد بالعشي والإظهار.

﴿ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿ الروم: ١٧ - ١٨ .

وهو الذي له الحمد في الأولى والآخرة على نعمة التوحيد.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ

وَالِيهِ تَرْجَعُونَ ﴿ القصص: ٧٠ .

- ومن أجمل أنواع الحمد وأرقاها وأنفسها وأمسها بمعاني الحمد بالتسبيح ذلك الحمد الذي ينبعث من نفس الإنسان لكمال الله بنفي الولد والشرك والولي عنه سبحانه.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿ الإسراء: ١١١ .

- وفي نفس إطار ذلك الحمد يأتي الحمد على نعمة الهداية الخاصة من

خلال مصدرها القرآني ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ

لَهُ عِوَجًا ﴿ الكهف: ١ .

- ثم الحمد على النعمة العامة بكونه هو الخالق والفاطر .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿

الأنعام: ١ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ

مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فاطر: ١.

- ولأجل ذلك أمر سبحانه وتعالى أن نردد بالحمد عند كل نعمة

﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّصَنَا مِنْ

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ المؤمنون: .

ولقد استجاب لهذا عباده المؤمنون وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم ﴿ الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

إبراهيم: ٣٩.

### ثانياً: ظلال الحمد والتسبيح في نطاق رحمة الربوبية

في حالات التوقع والانتظار للأمر الجلل الهائل المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار يكون التوجيه إلى الصبر إيذاناً بالإعزاز الرباني.. والتسبيح بالحمد زاد وأنس ومناجاة للقلوب يجعل الصبر أمراً محبباً ووسيلة إلى الإعزاز الكريم.

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴾ ق: ٣٩ - ٤٠.

ومع الأنس والإيناس هداية إلى طريق الصلة به سبحانه على مدار اليوم عند اليقظة، وفي ثنایا الليل، وعند إدبار النجوم في الفجر.. هنالك مجال



الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿ الطور: ٤٨ - ٤٩ .

- وفي إطار التسبيح والحمد لله على ما أولاه من منة وفضل على عباده بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه.. وعلى ما أولاه البشرية كلها من رحمته نصرَةً لدينه، وفتحه لرسوله، ودخول الناس أفواجا في أنوار الدين بعد العمى والضلال والخسران.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿ النصر: ١ - ٣ .

- وبحكم رابطة الإيمان القوى بين حملة العرش - وهم من القوى المؤمنة - والمؤمنين.. يذكر حملة العرش المؤمنين عند ربهم ويستغفرون لهم ويستنجزون وعد الله إياهم.

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿ غافر: ٧ .

إنها لمسات الرحمة الربانية بين شركاء الإيمان من حملة العرش، وإخوانهم في الإيمان وطلب الاستغفار والتوبة وهما من سمات رحمة الربوبية.

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿ نوح: ١٠ .

- ويأمر سبحانه رسوله الكريم أن يسبح بحمد ربه ويسجد له، ويلوذ بالحمد والتسبيح والعبادة من سوء ما يسمع من أهل الشرك والضلال.. ولا يفتر عن هذا التسبيح حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين.. إنها ظلال رحمة الربوبية التي تنفرج لها الكروب، وتنشرح لها الصدور، وتطرب لها القلوب

﴿ وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ

مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٧﴾ الحجر: ٩٧ - ٩٩

- ودلالة الحمد والتسبيح ليست فقط في كونها ملاذا.. بل أيضا في كونها

علامة الإيمان

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ السجدة: ١٥ .

- والتسبيح بالحمد أيضا سبب في رضا النفس وسكينتها

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿ طه: ١٣٠ . لقد

جعله سبحانه وتعالى الرضا الواصل بين الله وعباده.

ومن المعاني البليغة خصوصا إذا نظرنا إليها مقترنة بعضها ببعض.. ثم

وهي مقترنة بما قبلها ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾... وبيان ذلك أن

الاستغفار والتسبيح والحمد في الوقت كله أعظم وأنجع وسيلة تنتج الصبر..

وكانها المزرعة التي يستنبت ويتكاثر فيها الصبر

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ  
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ غافر: ٥٥. فالاستغفار ينزر عوائق  
الصبر.. والتسبيح والحمد يثبت ويحمل أغصانه.

### ثالثاً: أجواء الحمد والتسبيح في الدار الآخرة

تنوع الحمد في دار الجزاء بين حمد الألوهية وحمد الربوبية متجاوبا مع

حمد الفاتحة الشامل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

- من ذلك انطلاق صوت التحميد لله والتمجيد في ختام سورة الجاثية بعد  
إسدال الستار على التعساء في جهنم لا يخرجون منها و لا يطلب منهم اعتذار  
ولا عتاب ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا  
يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الجاثية: ٣٥ - ٣٦.

- والحمد دعاء أهل الجنة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَّهُ

وَأَوْثَرْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

الزمر: ٧٤.

- بل هو آخر دعاء أهل الجنة ﴿ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ

فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس: ١٠.

ثم ها هو ختام المشهد الذي يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال حيث يتجه الوجود كله إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام ينطق ويردد ذلك الحمد الذي ورد على رأس فاتحة الكتاب أم القرآن.

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۗ ۝٧٥﴾

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ الزمر: ٧٥.﴾

### وختاماً:

فإن ذكر الحمد بين هذه الأسماء وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه سبحانه محمود في إلهيته.. محمود في ربوبيته.. محمود في رحمانيته.. محمود في ملكه.. وأنه اله محمود ورب محمود وملك محمود.

فلا قد كتب على نفسه الرحمة إلهاً فقال: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ۝٥٤﴾

قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿ الأنعام: ١٢..﴾ وكتبها على نفسه رباً فقال:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿ الأنعام: ٥٤..﴾ وكتبها على نفسه

ملكاً ومالكا ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴿ الفرقان: ٢٦.﴾

ولا عجب أن يكون "الحمد لله" أول كلمة استهل بها آدم عند نفخ الروح

فيه.

وأن يكون "الحمد لله" آخر ما تلهج به ألسنة حملة العرش في آخر فصول

الآخرة.. ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۗ ۝٧٥﴾

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ الزمر: ٧٥.﴾

وأن يكون "الحمد لله" أول ما تتضح به قلوب وألسنة المؤمنين في آخر  
فصول الآخرة وأول منازل دخولهم في الجنة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي  
صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ  
الْعَمَلِينَ ﴾ الزمر: ٧٤.

وأن يكون آخر ما يُعلم من خبر الحمد في القرآن هو دعاء المؤمنين  
الخالد خلود أهل الجنة.. جماعا من تسبيح وسلام وحمد: ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا  
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴾ يونس: ١٠.. وليكون "حمد" أهل الجنة آخر كلمة في خلق  
الخلق والعباد في القرآن الكريم.. وليكون حمدهم ذاك هو قمة الرضا في  
الحمد مع شهود قمة النعيم والإحسان من الرحمن!!.

ومن حمد "الله الرب" لذاته.. وحمد الملائكة في الأولي والآخرة..  
ومن "أول حمد" لآدم في البرية.. إلى "آخر حمد" لبني آدم في الجنة.  
ذلك الحمد المنشور في أي القرآن.. مجموع كله في طي أول وأشمل

حمد.. حمد سورة الحمد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

" الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ "

" أَتَنِي عَلَىَّ عَبْدِي "



" الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ "

"أثنى علىَّ عبدي"

أول ما يتبادر إلينا عند النظر إلى هذين اللفظين اشتراكهما في أصل الاشتقاق، والتعبير عن اتصافه تعالى بالرحمة..ولا اعتراض لنا على هذا الانطباع المباشر السريع، لأنه إدراك لحقيقة في اللغة وحقيقة في العقيدة .. فالرحمة في اللغة معناها العطف، والرقّة، والشفقة والحنو، وهي مشتقة من الرحم بيانا لأثر الرحمة بانعطافها على ما فيها.

ولكننا إذا تجاوزنا ذلك إلى استقراء النص القرآني في السور المختلفة ظفرنا باختصاص كل من اللفظين باستعمالات خاصة تحدد لكل منهما تواردا مع بعض الألفاظ التي لا يتوارد معها اللفظ الآخر، وهذا ما أعنيه بإدراك حقيقة العقيدة .. فلقد استبان لنا عند الكلام في "البسمة" دلالة "الرحمن" على القوامة والعدل بهيمنة فيوضات رحمة الألّهيّة .. ودلالة "الرحيم" على العطاء الفضل بهيمنة فيوضات رحمة الربوبية...

فالرحمن وكما سبق أن ذكرنا مع الشواهد القرآنية .. ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ﴾ وهو خالق الكون، ويخشى من عذابه ويتعوذ به، وينذر له، ويسجد له، وينسب العباد له، ويتخذ العهد عنده والشيطان يعصي الرحمن، والرحمن يكون له الحشر يوم القيامة، وتخضع الأصوات له، ولا شفاعاة في ذلك اليوم



إلا بإذنه، والملك يؤمّنذ للرحمن لأنه صاحب المشيئة، وفوق ذلك كله فقد عمّ القرآن ... وليس للرحيم شيء في ذلك<sup>(1)</sup>.

والرحيم يقترن بالتوبة والرفقة والمغفرة والبر والود، ويأتي لفظ "الرحيم" في صحبة لفظ "العزیز" إما في سياق الوعد بالنصر أو في طلب التوكل أو الكلام عن تنزيل الكتاب .. كما جاء في معرض الحكم على نتائج رسالات الأنبياء عليهم السلام في "سورة الشعراء" على صورة موحدة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾<sup>(2)</sup>

الشعراء: ٨ - ٩

ومعنى كل ذلك أن هناك فرقا في المعنى بين لفظي "الرحمن" و "الرحيم" كما أن هناك فرقا في الاستعمالات والدلالات على الرغم من اشتراكهما في الاشتقاق والوصف بالرحمة .

- إن استحضار واستجلاء النسبة بين ألفاظ أسماء الله الحسنى "الله و"الرَّحْمَنِ" و"الرَّحِيمِ" .. والتي اجتمعت كلها في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ على رأس فاتحة الكتاب .. ومن ثم استهلكت بها كل سور القرآن بعدها يكشف الكثير من أسرار هذه الآية العجيبة التي تعد النداء العالي، والتهاتف الواصل بين سور الكتاب وآياته .

1 - انظر الشواهد القرآنية في: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

2 - انظر الشواهد القرآنية في: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

فالنسبة بين "الله" و"الرَّحْمَنُ" و"الرَّحِيمِ" هي كالنسبة بين "الذات" .. و"التجلي" .. و"اتساع مشيئة البسط والنشر" .. ويشير إلى هذه النسبة رابطة الجوار بين أسمائه "الله" و "الرحمن" و"الرحيم" .. فإذا كان اسم الجلالة "الله" دالاً بالكلية على الذات الإلهية فإن اسم "الرحمن" بالجوار والاقتران باسم "الله" مباشرة دال على التجلي الإلهي بهذا الوصف العظيم "الرحمن" ، .. فالرحمن" تجمع في أحايين بين معاني الإلهية والربوبية ولكنها أقرب كثيرا إلى معاني الإلهية التي يدعمها الجوار والاقتران المباشر، بينما اسم "الرحيم" وهو طرف من ربوبية "الله" وإلهيته أقرب إلى معاني الربوبية، يدل على ذلك الجوار غير المباشر لاسم "الله" في البسملة وزيادة نسبة ورودها في القرآن عن نسبة الرحمن.

الذات: بما حوته من معاني الجلال والجمال والتي عبرت عنها آيات سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ

اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ

الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ الحشر: ٢١ - ٢٤ .

"الله" له الأسماء الحسنى.. "الجلال" في أسمائه: الملك القدوس، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر ... "والجمال" في أسمائه: الرحمن، الرحيم، السلام، المؤمن، الحكيم.

وهذا لا يتعارض مع ما سوف تكشف عنه دراستنا لاسم "الرحمن" بكونه اسم جمال يكلله جلال... وجلال يظلمه جمال.. ليجمع بين جمال الجلال وجمال الجلال.

**التجلي:** باصطفاء معاني الجمال المكسوة برداء الجلال: باصطفاء اسم "الرحمن" دون غيره من أسماء الله الحسنى ليقترن بالاسم الأعظم "الله" في صدارة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لفاتحة الكتاب فضلا عن بقية سور القرآن الكريم.

فاكتسب الاسم الكريم معاني الجمال من ذاته، وظلته معاني الجلال من اقترانه بالاسم الأعظم "الله". ودلالة ذلك أن الإنسان إذا ما خشي ذا سلطان فإنه يفر ويهرب منه وينقطع رجاؤه منه وعنه، وأما إذا خشي "الرحمن" فإنه يهرع إليه ويتقرب منه ويزداد رجاؤه به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ مَنْ

أَتَبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ بِبَشِيرَةٍ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾  
يس: ١١ فخشية "الرحمن" دفعتك إلى التقرب منه وإليه فأثمرت تلك الخشية المغفرة والأجر الكريم: ألم يستهل المولى سورة الرحمن بقوله تعالى: "الرَّحْمَنُ" وختم السورة بالإشارة إلى ذلك الاسم مع بيان البركة التي تحوطه بالجلال والإكرام الدالين على تجلي الجلال والجمال قائلاً: ﴿نُبِّرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي

الْجَلِيلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ الرحمن: ٧٨. كما لم يشأ المولى سبحانه وتعالى أن يستهل كتابه بسم الله الجبار أو القهار .. إنه الاصطفاء الذي استوى به سبحانه على عرشه ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ طه: ٥ .

ولقد جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لما قضى الله الخلق في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي " وفي لفظ "فهو عنده على العرش" (1).

فاستوى على أوسع المخلوقات: "الْعَرْشِ" بأوسع الصفات: "الرَّحْمَنُ" .. ومن ثم قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ الأعراف: ١٥٦ ...

وهي التي هيأت ومهدت لاسمه "الرَّحِيمِ" .

وسنكشف بعد قليل أن حقيقة التجلي في اسم "الرحمن" لها نسبتان .. نسبة في الحياة الدنيا، ونسبة في الحياة الآخرة ... فنسبته في الحياة الدنيا هي نسبة الرحمة العامة بخلقه في أصل الخلق ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴾ طه: ٥٠ .

وهذه النسبة العامة في الإنسان تتجلى في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ

يَهْدِينِ ﴾ الشعراء: ٧٨ وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ الرحمن: ١-2 .

1 - رواه البخاري رقم (7404) ومسلم (كتاب التوبة /16)

ولفرط إلف الإنسان بهذه الرحمة المركوزة في فطرته، وهي قائمة في معدن تكوينه ويشترك فيها جميع الناس، تكاد هذه النسبة تمثل أمراً غيبياً نسبياً عنه ... وأما نسبة اسم "الرحمن" في الآخرة فليست غيبية نسبياً كما هو الحال في الدنيا .. ولكن لها التجلي والظهور العظيم، وهذا ما كشفت عنه سورة "الرحمن" خاصة في مقام تجلي نعم الرحمن وجوده وإحسانه على عباده أهل جناته .. فلفظة "الرحمن" في الدنيا تشير إلى إنه سبحانه وتعالى خاص الاسم، عام الفعل .. وفي الآخرة تشير إلى انه خاص الاسم والفعل معا.

### اتساع مشيئة البسط والنشر للرحمة:

باقتران اسم "الرحيم" باسم "الرحمن" لتسع رحمته كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ... فالمخلوقات لها نصيب من هذه الرحمة .. فيقال هذا الإنسان رحيم بإخوانه ويقال: رحيم القلب .. وقد أخرج مسلم في صحيحة أن أبا هريرة قال: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: " جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرهما عن وليدها خشية أن تصيبه" (1).

وتتجلي بصورة أكبر وأعظم.. صفة رحمة "الرحيم" بعباده المؤمنين خاصة، داخل دائرة ربوبيته للعالمين، يقول تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ

رَحِيمٍ﴾ يس: ٥٨ .

1 - رواه مسلم في صحيحه ج4/ص2108 حديث رقم 2752.

إنها الرحمة التي تكون مع المؤمن عندما تنزل الإرادة، أو يزل العقل..  
إنها الرحمة التي تشملها وترعاه حينما يزل على اضطرار فيفتح له أبواب  
التوبة بابا بعد آخر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ  
غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٣ .. ويقول: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ  
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَعَازَمُوا أَنَّ رَبَّكُم مِّنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأعراف: ١٥٣ .  
وقد اختص المولى سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه رحمة للعالمين  
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧

ثم زاد هذا الاختصاص بعباده المؤمنين فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ  
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨ وربما لأجل هذا قال العلماء  
"الرحيم" عام الاسم خاص الفعل.

- إن استقراء نسبة التجلي في "الرحمن" إلى نسبة اتساع مشيئة البسط  
والنشر في "الرحيم" .. حيث ورد اسم "الرحمن" في الكتاب الكريم نحو سبع  
وخمسين مرة "57" .. بالمقارنة باسم "الرحيم" الذي ورد مائة وأربع عشرة  
مرة "114" فضلا عن اقترانها بأسماء التواب والرءوف والغفور والودود  
والبر والعزير ... يعطي ثراء ودلالة واضحة على هذا البسط والنشر  
والاتساع لاسم الرحيم.. " بالمدّ" .. وفي المقابل لا يأتي اسم "الرحمن" إلا

منفردا أو مقترنا باسم "الرحيم" .. ويبدو أثر هذه النسبة بين هذه الأسماء الثلاثة

في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

البقرة: ١٦٣ .

إن قراءة واحدة للآية التي تليها "مجرد قراءة" ... يفصح عن ظهور

أثار هذه النسبة في عالم الموجودات والمخلوقات ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ

النَّاسِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ

فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤ .

### دلالة أحكام التجويد والرسم القرآني:

من عجائب هذا الكتاب الكريم أن الاستئناس بأحكام التجويد والرسم

القرآني " الرسم العثماني" في فاتحة الكتاب يؤدي إلى بيان النسبة بين التجلي

الرحماني والامتساع الرحيمي.

فأحكام المدِّ بالألف الوسطية والياء حال التجويد .. وأحكام الحذف لهذا

المدِّ في الرسم القرآني للألف بين الألفاظ .. "الله" .. و"الرَّحْمَنِ" .. وَالْعَلَمِيْنَ

في "رَبِّ الْعَلَمِيْنَ" .. وإثبات الياء في "الرَّحِيمِ" .. تومئ وتشير إلى

الترابط والتسلسل بين هذه الألفاظ فضلا عن جو النسبة والاختصاص الذي

يشيع في كل لفظة فيها، خاصة إذا ما استحضرنا إحياء العلو والسمو الذي يصوره المد بالألف، وإحياء الرفقة والمجانسة والمؤانسة التي يرسمها المد العريض للياء مع إيماءات الخفض والميل بها .. وكأنما يد الرحمة تترسم وتفتني أثر الموجودات والمخلوقات على أثر الوجود وختم الكلام.

- تدبر إيقاع المد بالألف قبل هاء لفظ الجلالة "الله" مع المد في "الرَّحْمَنِ"

مع المد في "الْعَلَمِينَ" من جهة التجويد مع اتفاق الحذف لكل هذه المدود من جهة الرسم تجد أن .. "الله" هو **الظاهر** من جهة التعريف والبيان .. **الباطن** من جهة الإدراك والعيان .. ويعاون هذه الدلالة إيقاع الهمس "للهاء" التي تخرج من أعماق الحلق قريبة من القلب ..

كما تدل صدارة اللفظ على علوه في أول رتبة الأسماء وأنه عنه انفصلت

سائر الأسماء وفي صدارتها "الرَّحْمَنِ" التي استأثرت بالاقتران باسم الجلالة

"الله" في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دون غيرها من سائر أسماء الله الحسنی .. فضلا عن اختصاص اسم الجلالة بما ذكرناه سابقا في البسمة من إضافة الأسماء إليه ولا يضاف إليها إلى غير ما ذكرناه سابقاً.

- ومن ثمَّ كان اسم "الرَّحْمَنِ" بالمد بصيغة المبالغة على وزن فعلان مع

حذف الألف الوسطية.. وكان أول ما انفصل عن اسم الله بنفس كيفية المد والحذف ليشير بذلك إلى أقصى درجات الرحمة التي استوى بها سبحانه على

عرشه ابتداءً " إلهاً رحماناً "، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ



تَرَوْنَهَا تُمْ أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ ﴿الرعد: ٢٠﴾ وهذا استواؤه على العرش إلهياً،  
 وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾ طه: ٥٠.. وهذا استواؤه على العرش  
 رحماناً .. ولم يستو على العرش بغير الاسمين إضافة إلى صفة الرب بما  
 يشير إلى أن اسم "الرَّحْمَنِ" هو مصدر كل الرحمات .. وعلى رأسها بالتحديد  
 "الرَّحِيمِ" التي لم يقترن في الكتاب الحكيم بسواها

... هكذا على الترتيب انفصلت الأسماء: "الرَّحْمَنِ" من "اللَّهِ" .. و"الرَّحِيمِ" من "

الرَّحْمَنِ" بنفس ترتيب الذكر في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

- ومن سماء وعلواء فيوضات الرحمة الإلهية والتي دل المد فيها على  
 أنه صاحب الجلال والجمال والمجد تنزلت وتدلت فيوضات الرحمة الربانية  
 على أرض الوجود ولتعم كافة العالمين .. يشير إلى ذلك المد العارض  
 للسكون للياء في لفظة "الْعَلَمِيمِ" .. وفي ذات الوقت يشير حذف الألف  
 رسماً إلى ما خفي وما لا يدرك من عوالم الجن والملائكة ..

إضافة إلى ما يثيره اختصاص اللفظة بمد الياء والنون معا.. إشارة إلى  
 اختصاصه بالعقلاء ممن يملكون الوعي وأدواته في عالم الإنسان كونه  
 الخليفة عن الله خاصة.. وممن يملكون نسبا متفاوتة من الوعي والإدراك  
 الفطري في باقي المخلوقات عامة... ومن ثم يتناغم المد في "الرَّحِيمِ" مع المد

بالياء في "الْعَلَمِيَّتْ" ليساهم في إبراز وظهور وبيان آثار تلك الرحمة التي تؤانس وتجانس المربوبين من عباد الله المؤمنين.

وهكذا ساهمت منظومة المد تجويدا.. والحذف والإثبات رسما في إثراء مشاهد لوحة التكوين حتى لكأنك تشاهد الرحمة تنتزل وتتهادى لتبسط يدها على المربوبين.. فإذا بالدابة ترفع حافرها عن وليدها خشية أن تصيبه.

### دلالة أخرى لمنظومة الترتيب:

إن ترتيب المنظومة على النحو القرآني " الله " "الرَّحْمَنِ" مع "الرَّحِيمِ" قبل وبعد "الْعَلَمِيَّتْ" تشير إلى أن لفظة "الرَّحْمَنِ" وسيط بين صفتي الإلهية والربوبية مع الميل والتغليب لصفة الإلهية التي استوى بها سبحانه على عرشه إلهها ورحمانا كما سبق أن بينا ... ويشير إلى ذلك أيضا أن لفظة "الرَّحْمَنِ" قد جاءت بديلا عن لفظة "الله" - بديل عناية واختصاص - في أكثر من عشرين موضعا سبق أن بينها في "البسمة" و"الحمد" ... وأظهر ما في ذلك كله قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ الإسراء: ١١٠ .

- كما يدل اجتماع دلالاتي التعريف والعلمية "أل" في أول اللفظين مع اختصاص "الله" بالهاء في آخرها دون غيرها من الأسماء ... واختصاص "الرَّحْمَنِ" بالألف والنون في آخرها أيضا دون غيرها من أسماء الله الحسنی على كمال وجلال وجمال ألوهيته ورحمانيته .

- وأما عن اقتران ربوبيته باسم "الرَّحْمَنِ" فلم ترد في القرآن كله في غير الفاتحة سوى ثلاث مرات هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ طه: ٩٠ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ١١٢ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ النبا: ٣٧ .

- وربوبيته أيضا طرف من ألوهيته ومن رحمانيته .. وتشير لفظة "رَبِّ" بما أضيف إليها من عالم المخلوقات والموجودات كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ١٣١ .

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الجاثية: ٣٦ .. إلى كونها تأتي كنسبة ارتباط بالوهيته سبحانه وتعالى في المرتبة التالية بعد "الرَّحْمَنِ" .. ودلالة ذلك أن اسم " الرب " له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء، وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج أي شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له وتحت قهره .فاجتمعوا له بصفة "الربوبية" وافترقوا بصفة "الإلهية" ..

فألهم السعداء وأشرك به التعساء وصاروا فريقين: فريقا موحدين في النعيم .. وفريقا مشركين في السعير.. فالإلهية هي التي فرقتهم .. كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.. وقد تأكد ذلك في أكثر من موضع.

ونسبة "الرحيم" من "الله" و"الرَّحْمَن" كنسبة "رَبِّ الْعَالَمِينَ" من كلا الأسمين .. وذلك لأنه سبحانه وتعالى داخل دائرة ربوبيته رحيم بالمؤمنين خاصة .. وقد سبق ذكر الشواهد القرآنية على ذلك، ولقد كتب سبحانه وتعالى الرحمة على نفسه إلهيا كما كتبها على نفسه ربا .. قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ الأنعام: ١٢

وقال تعالى أيضا: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ الأنعام: ٥٤ .

إن هذه النسبة بين أسمائه "الله" "الرَّحْمَن" "الرَّحِيم" بهذا الترتيب والنظم..

هي بمثابة التوقيع الإلهي الرباني استهلته به ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أم



الكتاب وفاتحته، ومن ثم استهلته به كل سور الكتاب الحكيم تفصيلا لأم الكتاب... وكما كانت هذه النسبة تنزلا

وتجليا "اللَّهِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ" .. فإنها تجلت فيمن تلقى الكتاب

ترقيا واستعلاء بكونه "محمد رسول الله" .. حيث بدأ

بمحمد وهو "الرحيم" بالمؤمنين خاصة حيث تختتم البسملة.. وانتهت ارتقاء  
ب"الله" حيث "بِسْمِ اللَّهِ" .. فسبحانه الأول والآخر.

## أجواء وأصداء الرحمن:

الرَّحْمَنُ: لم ترد إلا مرة واحدة في سورة الرحمن وسميت بها السورة، على  
الرغم من تكرار اللفظة ذاتها "الرحمن" داخل السورة الواحدة في كثير من  
آيات سور الكتاب الحكيم ومع ذلك فلم تسم أي من هذه السور باسم  
"الرحمن"... بل تفرد الاسم دون غيره من أسماء الله الحسنى بوروده كآية  
مستقلة في أول سورة "الرحمن" ذاتها.

... ماذا يعني ذلك كله ؟ !

إنها مرة واحدة ولكنها مرة مهيمنة على نص السورة كله...  
كل ما هو موجود في سورة "الرحمن" من أفعال الله عز وجل سيكون  
منسوبا للفاعل الوحيد في السورة الذي لم يرد له اسم أو صفة أخرى، ولم  
يظهر عبر الآيات إلا باسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في الآية الأولى منها ... فكل  
سورة "الرحمن" عن "الرَّحْمَنِ" بل إن ظلال "الرَّحْمَنِ" تمتد خلال سورة  
"الواقعة" .. وهي امتداد المعاني لسورة الرحمن، ولم يظهر فيها أيضا اسم آخر  
من أسماء الله الحسنى ...

ويقول صاحب الظلال: "الرَّحْمَنُ" .. هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه،  
وإيقاعه وموسيقاه "الرَّحْمَنُ" بهذا الرنين الذي تتجاوب أصدائه الطليقة المديدة

المدوية في أرجاء هذا الكون، وفي جنبات هذا الوجود .. "الرَّحْمَنُ" ... بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد، يجلجل في طباق الوجود، ويخاطب كل موجود، وينتلفت على رنته كل كائن، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب.. "الرَّحْمَنُ" ويسكت .. وتنتهي الآية .. ويصمت الوجود كله وينصت في ارتقاب الخبر العظيم بعد المطلع العظيم .. ثم يجيء الخبر المترقب الذي يخفق له ضمير الوجود ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ﴾ (٢) خَلَقَ

الْإِنْسَانَ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن: ٢ - ٤ إلى آخر آيات السورة .

"الرَّحْمَنُ" إذن هي إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الظاهرة الباهرة التي سوف تتجلى عبر السورة الكريمة من خلال "الرَّحْمَنِ" ... حتى تكاد تصطف سورة "الرَّحْمَنِ" وسط البسملة نفسيرا لمعنى "الرَّحْمَنِ" في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وكأنك تقول "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ" - (وكما دلت عليه سورة الرحمن) - الرَّحِيمِ .

"الـ" أو الألف واللام التي دخلت على الاسم الجليل "الرَّحْمَنِ" لم تفارقه أبدا خلال الكتاب الكريم، فكل ما جرى في سياقها عَلَّمَ على "الرَّحْمَنِ".

"الألف والنون" التي دخلت على الفعل الثلاثي "رحم" ولم تدخل على اشتقاق آخر من أسماء الله الحسنى تفيد المبالغة على وزن "فعلان" .. وهذا يعني الحد الأقصى من "الرحمة" .. نعم تفيد "الألف والنون" المبالغة، ولكنها

في ذات الوقت تفيد النسب أيضا... إذن لفظة "الرَّحْمَنِ" تفيد معنى المبالغة في النسب إلى "الرحمة".. حاشا لله أن يكون منسوبا إلى شيء .. لقد كتب على نفسه الرحمة ربا وإلها ولم يكتب على نفسه سواها "...

﴿ فَقُلْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ ﴾ الأنعام: ٥٤

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ۖ

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ ﴾ الأنعام: ١٢.

لعل هذا يفسر تلك النسبة إلى الرحمة في واحد من أكثر أسماء الله الحسنی مدعاة للتأمل.

والآن نعيش مع أجواء وأصداء "الرَّحْمَنِ" في عالم سورة الرحمن ... أقصد بالأجواء جو السورة العام والذي ذكرت بعضا منه في هذه المقدمة ... وأقصد بالأصداء السياق الذي سيقف فيه لفظة "الرحمن". ولو حاولنا على قدر استطاعتنا أن نضع ضوابط لهذه الأجواء والأصداء والتي منها نصل إلى معالم دلالات هذا الاسم العظيم "الرَّحْمَنِ" فسوف تكون لنا معه هذه الوقفات:

(1) خاتمة سورة القمر ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ

عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾ القمر: ٥٤ - ٥٥. ومن ثم استهلكت بعدها سورة

الرحمن بالاسم الكريم "الرَّحْمَنُ".

(2) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

الرحمن : 26-27.

(3) ختام سورة الرحمن ﴿نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٧٨ .

### (1) الوقفة الأولى " ختام " سورة القمر:

في ختام سورة القمر صورة لنعيم المؤمنين في الجنة بطرفيه، طرف نعيم الحس والجوارح وهو ما صورته الآية الأولى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ﴾... وطرف نعيم القلب والروح نعيم القرب والتكريم... ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ﴾.

إن لفظة "مَلِيكٍ" لفظة فريدة في كتاب الله ولم ترد إلا في هذا الموقع من القرآن كله دلالة على أنه سبحانه وتعالى ملك تام الملك، عظيم الملك، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته سبحانه.. ما أعظم شأنه .. تجلت عظمة "المليك" هذه للمتقين وهم ينعمون في جناته في مقعد صدق ثابت مطمئن، قريب كريم، مأنوس بالقرب، مطمئن بالتمكين ..

ولم تتفرد هذه اللفظة بموقعها الفريد هذا فحسب بل تفردت بإشارة لطيفة أخرى لها مغزاها ومعناها ... فبينما في سياق الفاتحة تأتي دلالة الملك في

السياق عقب دلالة الرحمة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.



ها هي لفظة "مَلِيكٍ" فوق ما لها من حظ ونصيب لفظة "مَلِكٍ" و"ملك"  
 باعتبار أصل الاشتقاق ومن جوارهما وقربهما من "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" ..تستأثر  
 وحدها بتجلي الاسم الكريم مرة أخرى "الرَّحْمَنُ" بعدها أول سورة "الرحمن"  
 ... هكذا " ... ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ ... "الرَّحْمَنُ" ... إنه ملك خاص ذو  
 تجلٍ خاص في سياق خاص وجو خاص...

إنه مُلْكُ "الرَّحْمَنِ" في أنعم وأرق تجليات الرحمة ﴿جَنَّتِ عَدْنِ أَلْتِي  
 وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ مريم: ٦١.

انظر سورة "الفرقان" وهي في سياقها توضح الموقف العصيب في يوم  
 القيامة العصيب لأهل الكفر الذين قال فيهم المولى ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي

أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ الفرقان: ٢١

وكان من آثار هذا الاستكبار وهذا العتو الكبير أن طالبوا بإنزال الملائكة  
 عليهم أو رؤية المولى سبحانه .. ولذلك يعقب المولى على طلبهم هذا بقوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾  
 الفرقان: ٢٢

...ثم ها هي أعمالهم التي كانوا يتباهون ويتفاخرون بها لعدم إعداما يصوره

التعبير القرآني بصورة حسية متخيلة ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ الفرقان: ٢٣

انظر حينما أراد المولى أن يلتفت إلى الجانب الآخر حيث يتم التقابل في  
المشهد ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ...  
استقرار هنا .. يقابل خفة الهباء المنثور هناك ...

واطمئنان هنا .. يقابل الفرع هناك... هذا النعيم بالجوار الأثير في هذا  
اليوم ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا ﴾ الفرقان: ٢٥....  
يتجلى الملكُ الحق وهو "مَلِكُ الرَّحْمَنِ" لمن يستحقون تجلي رحمته عليهم  
﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٢٦.

وفي المقابل على سبيل الاعتراض التذييلي حيث لا رحمة مع الكافرين "  
... ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ حيث يقابلها في سورة القمر  
﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴾ القمر: ٤٢ .

بينما التجلي لرحمانية "المَلِكِ" في الفرقان ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ  
لِلرَّحْمَنِ ﴾ ... يقابلها في القمر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

كان هذا عن لفظة ملك ... وبإيجاز فإن لفظة "مُقْتَدِرٍ" هي الأخرى  
تلقي بظلالها في الحاليين: ظلال العزة والشدة والافتقار في أخذ الكافرين  
﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴾ وظلال رحمة الملك في تكريم المؤمنين  
﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٥٥

## تهيئة للوقفة الثانية والثالثة:

سبق أن ذكرنا أن " الرَّحْمَنَ " معناها أنه " الرَّحْمَنُ " بالرحمة العامة التامة التي تتناول المستحق وغير المستحق .. ولكن الإنسان لفرط اعتياده وإفهامه بهذه الرحمة المركوزة في فطرته القائمة في معدن تكوينه التي يشترك فيها جميع الناس...تكاد هذه النسبة "الرحمانية" تمثل أمراً غيبياً عنه في مقام الدنيا التي يعيشها.

وأما نسبة "الرَّحْمَنِ" في الآخرة فليست غيبية نسبياً كما هو الحال في الدنيا .. بل لها التجلي والظهور العظيم خاصة في مقام تجلي نعم الرحمن على عباده في جناته... وهكذا فإن نسبة "الرَّحْمَنِ" في الدنيا تشير إلى أنه سبحانه وتعالى خاص الاسم عام الفعل .. ونسبته في الآخرة أنه خاص الاسم والفعل معا... هاتان النسبتان هما ما أشارت إليهما هاتان الوقفتان الثانية والثالثة بعد الأولى التي ذكرناها .

وقوله: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن: ٢٧ .

... وقد ذكر في ختام بيان الله سبحانه وتعالى لآلائه الظاهرة الباهرة في جميع صنعه، وإبداع خلقه، وفيض نعمائه، وفي تدبيره للوجود وما فيه، وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم وكان قد استهل وصدّر كل هذه النعم التي تحيط حياة الإنسان ودنياه بكلمة واحدة "الرَّحْمَنُ" ... في معناها "الرحمة"... وفي رنتها الإعلان .. وهذا هو جو السورة كلها ...

وأما السياق من أول السورة حتى آيتنا هذه هو سياق بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء "الرَّحْمَنِ" في دنيانا التي نعيشها .. هذه هي صفة رحمة الدنيا .

ثم ينتقل السياق ابتداءً من قوله: ﴿وَلِمَن حَافٍ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن: ٤٦ .. حتى قوله: ﴿نُبِّذَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .. حيث صفة النعيم والتكريم لأصفيائه وأحبائه أهل جناته من المؤمنين ... وهذه هي الوقفة الثالثة.

### الوقفة الثانية: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾

تأتي هذه الآية بعد الانتهاء من استعراض صفحة الكون المنظور، وبعد طي صفحة الخلق الفاني حيث تتوارى أشباح الخلائق جميعا ويفرغ المجال من كل حي ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الرحمن: ٢٦ ... ويتجلى وجه الكريم الباقي .. متفردا بالبقاء .. متفردا بالجلال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .  
والآن فلنحاول أن نعاين نصيب هذه الآية من ظلال وأجواء وأصداء اسم "الرَّحْمَنِ" .

سؤال: لماذا قال المولى سبحانه وتعالى في هذه ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

الْجَلَلِ﴾ ولم يقل مثلا ... ويبقى ربك ذو الجلال والإكرام"؟! .

إذن لابد أن نعيش في ظلال معنى "وجه" .. لننبين حكمة وروده في الآية الكريمة ولا يكون ذلك إلا من خلال السياقات القرآنية المختلفة .

### أولاً: (1) الوجه .. بمعنى .. التوجه:

الوجه أشرف ما في ظاهر البدن .. وقد استعمل في مستقبل كل شيء وفي أشرفه فقبل: وجه النهار .. فقوله تعالى هنا ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .. أي لا يبقى للإنسان بعد فناء الحياة، والتي عبر عنها بقوله قبلها ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ إلا ما شرف به الإنسان وجهه بالتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة .. وإلى ذلك تشير كثير من الآيات مثل:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۗ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٩ .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ الرعد: ٢٢  
﴿ فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الروم: ٣٨ .  
**(2) الوجه - بمعنى الرقيب:**

وإلى ذلك يشير قوله تعالى في أحد المعاني: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۗ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ ﴾ البقرة: ١١٥ .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ القصص: ٨٨

وهي تلتقي مع آيتنا في هذا المعنى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ ﴾ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ الرحمن: ٢٦ - ٢٧ ... أي يبقى وجه ربك رقيقاً عليك في الآخرة ... كما تفيد من جهة الإنسان.. من يراقب ربه ... وإلى

ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ

رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ الليل: ١٩ - ٢٠ .

### (3) الوجه: بمعنى الإشراق والنور والبشر:

والى هذا تشير هذه المقابلات بين أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ في المقابل ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ آل عمران: ١٠٦ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ القيامة: ٢٢ - ٢٣ وفي المقابل

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ (٢٤) تَطُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ القيامة: ٢٤ - ٢٥ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿ عبس: ٣٨ - ٣٩ .

وفي المقابل: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَبرَةٌ ﴾ (٤٠) تَرَهَقَهَا قَرَّةٌ ﴿ عبس: ٤٠ - ٤١ .

أرأيت كم هي دلالات لفظة "وجه" في هذه الآية الكريمة وما تشير به إشاراتها في هذه المواطن وقد فنى كل من عليها، ولا ننس أن لفظة " ذو "

وقعت وصفا ونعتا على سبيل الاختصاص للوجه في آيتنا الكريمة ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .. بينما كانت نعتا ووصفا "لربك" في ختام السورة الكريمة: ﴿نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٧٨ على الرغم من إضافة "رَبِّكَ" بالجر في الآيتين ... وما ذلك كله إلا وجه من ظلال رحمة "الرَّحْمَنِ".

### ثانيا: ذو الجلال والإكرام:

قيل: هو الذي لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا له، ولا كرم ولا إكرام إلا هو صادر منه .. فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه .. والجمع بين صفتي الجلال والإكرام له ضروب من الخصوصية..  
**أولها:** لم يذكر في كتاب الله اسم من أسماء الله الحسنى يجمع في آية واحدة بين متقابلين إلا اسم ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

ثانيها: قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ معا وليس ذو الجلال ذو الإكرام... فالجلال صفة والإكرام صفة .. ولكن المجموع الجمعي للصفتين معا هو اسم من أسماء الله الحسنى .. خاصة أن من أسمائه الحسنى اسمي "الجليل" .. و"الكريم".

### ماذا تعني هاتان الإشارتان من الخصوصية؟!.

كلمة الجلال: في ذاتها تعطينا معنى الرفعة والشموخ والعلو والشمول والظهور .. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۗ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۗ﴾

تَجَلَّى ﴿ الليل: ١ - ٢... وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴿ الأعراف: ١٤٣.

كما أن كلمة الإكرام تعطينا معنى التنزل بالفضل والكرم .. فالجلال "صفة ذات"... والإكرام بدلالاتها على الكرم الفائض، حيث لم يقل ذو الجلال والكرم "صفة فعل" .. ولذلك تقدم الجلال على الإكرام .. فالرفعة متقدمة على التنزل تقدم السلطان على الرعية .. وتقدم المعطي على العطية، وكانت "ذو" هي واسطة الاتصال بين الذات والفعل .. بين الرفعة والفضل.

إن هذا الاسم الكريم تتجلى فيه آثار رحمة "الرَّحْمَنِ" في أرفع وأعلى المقامات، وهو مقام العقيدة والإيمان.

- فحظ المؤمن من صفة "الجلال" في مقام "الرحمة" قوله تعالى:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ الأعراف: ١٥٦ .. فلمن سيكتبها ؟ .. لقد

نص عليها المولى في ذات الآية ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿ الأعراف:

١٥٦.. إنها لأهل التقوى والخشية الذين يقرون بالجلال لمولاهم .. فرحمة "

الرَّحْمَنِ" يتبطنها جلاله .. ولذلك كان طرف خطاب كتاب الله الأول أنه

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ .. وطرفه الأخير هو وعده لعباده على أبواب الجنة ﴿ إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿ القمر: ٥٤... وبين الطرفين أوامره وحثه على التزام



التقوى .. من أمثلة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ آل عمران: ١٠٢ وغير ذلك من آيات الكتاب.

وفي إطار الربط بين تقوى الله وجلاله كان مما عرّف به الإمام على رضي الله عنه التقوى بأنها .. "الخوف من الجليل" .. وليس أدل على ذلك ما سبق أن قلناه في الحديث عن "البسمة" بالشواهد القرآنية من أن "الرَّحْمَنَ" .. يُخشى من عذابه، ويتعوذ به الإنسان، ويكون له النذر، ويسجد له، ويتخذ عنده العهد، ويريد للعصاة الضر أحيانا، وله الملك، وتخضع له الأصوات له يوم القيامة، ولا تكون الشفاعة ولا الكلام إلا بإذنه (1).

- وحظ "المؤمن" من صفة "الإكرام" هو ما عبرت عنه الآيات الأولى من سورة الرحمن ... وقد استهلّت بأعلى مقامات إكرام الرحمن .. وهي الإكرام برحمة الهداية بالقرآن المسطور ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ المركوزة في أصل الفطرة ومعدن التكوين ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ليتفضل المولى على خلقه بلون من ألوان الهداية الأخرى، حيث أودع في فطرته من آلاء "الرَّحْمَنِ" أن ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .. يهتدي به إلى الله من خلال القرآن المنظور في المعرض الكوني العام ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ إلى آخر الآيات.

1 - انظر الشواهد في البسمة فقرة الله الرحمن.

وهو ما أفصح عنه أول ما نزل من آيات الكتاب الحكيم ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق: ١ - ٥ .

فسمى ووصف المولى سبحانه نفسه بالكرم وبأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق ليبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال

تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿الأعلى: ٢ - ٣... وقوله

تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿الشعراء: ٧٨ .

فالخلق يتضمن الابتداء .. والكرم يتضمن الانتهاء، كما قال في سورتنا

هذه فاتحة الكتاب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿... ثم قال على سبيل الإكرام

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿.

وليس أدل على ذلك من اقتران أبواب الإيمان وأركانه التي جاءت في

الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان: عندما سأل جبريل عليه السلام

الرسول ﷺ عن الإيمان " . . . والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر والقدر خيره وشره (1) ... باسم "الرحمن" .. وذلك كما جاء في

الشواهد القرآنية.

فالإيمان بالله في الحديث الشريف يتعانق مع قوله تعالى:

---

1 - سبق تخريج هذا الحديث.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣.

والإيمان بالملائكة يتعاق مع قوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾. الزخرف: ١٩ والإيمان بكتبه يتعلق بقوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ ۝٢ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن: ١ - ٢.. وقوله تعالى:

﴿ حَمَّ ۝١ ۝٢ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ۝٣ كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۝٤ ﴾

﴿ قُرْآنًا نَّزِيلًا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت: ١ - ٣.

والإيمان بالرسول يشير إليه قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ۝١ ﴾

﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس: ٥٢.

والإيمان باليوم الآخر والغيب يتعاق مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَن ۝١ ﴾

﴿ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ۝٢ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝٣ ﴾

يس: ١١.

والإيمان بالقدر خيره وشره تلمسه في قوله تعالى: ﴿ إِن يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ ۝١ ﴾

﴿ بِضُرٍّ لَّا تَعْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ يس: ٢٣.

ويجمع بين صفتي "الجلال والإكرام" معا ما تشير إليه هذه الآية: ﴿إِنَّ  
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَرَكُمْ﴾ الحجرات: ١٣.. فجمعت بين جلال التقوى  
والإكرام .

كما تشفعت صفات الجلال بصفات الإكرام في قوله تعالى في ذات سورة  
الرحمن نفسها ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ الرحمن: ٤٦... فجمع بين  
الخوف والإكرام .

### الوقفه الثالثة: ﴿بُزِكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾

تأتي هذه الآية هنا في معرض ختام ذكر النعيم المقيم، وأنس القرب  
والتكريم من المولى لعباده المؤمنين المتقين .. وظلال "الجلال" للرحمن  
ظاهرة باهرة لأحبائه وأصفيائه أهل الجنة .. وذكر "الجلال" هنا يتناسب مع  
ختام ما جاء في السورة التي قبلها ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾...إنه  
جلال التقوى الذي أوصلهم إلى مقعد الصدق هذا عند الملك المقنن.

أما الإكرام: إنه إكرام من لون آخر غير الإكرام الذي أسبغه المولى على  
عباده في الدنيا.. إنه الإكرام الذي يتجلى فيه إكرام "الرَّحْمَنِ" لعباده وأصفيائه  
وأحبائه .. وما كانت هذه "الرحمة" وهذا "الإكرام" إلا جنته استحقها المتقون  
وكان سببه مجيئهم بين يدي الله "بالصدق" .. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ  
وَصَدَّقَ بِهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الزمر: ٣٣ .

وهذه هي جنة الخلد التي وعدهم إياها ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ  
الْمُنْقَوُونَ ﴾ الفرقان: ١٥... مقرها ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾  
القمر: ٥٥ .

ودليل أن إكرام "الرَّحْمَنِ" مقصود به الجنة أن سمي الله الجنة الرحمة في  
قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾  
آل عمران: ١٠٧... وفي الحديث أن الله قال للجنة " أنت رحمتي أرحم بك من  
أشاء من عبادي" (1).

ويبقى بعد ذلك دلالة وظلال ذكر لفظة "اسم" هنا في قوله تعالى: ﴿ نُبِّرَكَ  
أَسْمُ رَبِّكَ ﴾.. وهذا الاسم هو "الرَّحْمَنُ" الذي من جملته ما صدرت به السورة  
الكريمة من اسم "الرَّحْمَنِ" المنبئ عن إفاضة الآلاء والنعم المفصلة.

وهنا لفظة وإشارة كريمة .. هو أنه سبحانه وتعالى ذكر اسمه في آخر  
السورة التي قبل سورة الرحمن فقال: ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾.. وكون العبد  
عند الله من أتم النعم وأكملها .. كذلك هاهنا في سورة "الرحمن" بعد ذكر  
الجنات وما فيها من النعم قال تعالى: ﴿ نُبِّرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾  
الرحمن: ٧٨ إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى وأكمل اللذات ذكر الله تعالى

---

1 - أخرجه البخاري ( 48/6 ) كتاب التفسير .. باب قوله " وتقول هل من مزيد " .. ومسلم ..  
2186/4 كتاب الجنة

والتسبيح باسمه.. وقال في السورة التي بعدها "الواقعة" .. ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ  
وَجَنَّتْ نَعِيمٍ ﴾ الواقعة: ٨٩.. ثم قال في آخر السورة ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ  
الْعَظِيمِ ﴾ الواقعة: 96.. لأنه تعالى ذكر جميع اللذات في الجنات، ولم يذكر  
لذة السماع وهي من أتم الأنواع فقال: ﴿ مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ  
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ الرحمن: ٧٦.. والتقدير يسمعون ذكر الله.

فكما تُلذذوا باسمه "الرَّحْمَنِ" حال الدنيا، خاصة في صلواتهم الدائمة التي  
لم تنقطع وهم يرددون في السورة المفروضة في كل صلاة "الفاتحة" ﴿ بِسْمِ  
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.. وكذلك ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.. كذلك أبقي لهم المولى لذة  
هذا الذكر في الجنة "الرَّحْمَنُ" .. وهم في ضيافة الرحمن..  
وفي الختام .. وعلى قدر استطاعتنا نوجز ظلال المعاني التي نراها  
تشابكت تشابك أغصان الشجرة الواحدة، والتي تظلت بظلال الاسم الكريم "  
الرَّحْمَنُ" .

فمن ظلالها أنه ﴿ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ بالملك الخاص التام الملك والقدرة  
الشاملة .. ومن ظلالها قَالَ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ .. ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ..

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .. بما حباه ووهبه له من العقل والجنان يتطلع به على آلاء "الرَّحْمَنِ" في النفس وفي الآفاق.

وفي هذا الظل إشراف وجه "الرَّحْمَنِ" على عبادة "بالجلال والإكرام" .. جامعا لهما جلال الإكرام وإكرام الجلال الدنيوي .. ومن ظلالها التتعم والتلذذ بنعيم ذكر اسم "الرَّحْمَنِ" في جناته لعباده المتقين .. حيث يتجلى عليهم "بالجلال والإكرام" الخاص.

ولا نزال ننتفياً مع "الرَّحْمَنِ" ظلال "الرَّحْمَنِ" في سورة الفاتحة .. في سورة خاصة بها هي سورة "الرحمن" .. تتمدد وتنشعب ظلالها متسعة .. من تعليم القرآن .. وخلق الإنسان .. وتعليمه البيان .. ومن خلق السموات والأرض .. إلى "وضع الميزان".

### الرحمن والميزان:

يقول تعالى في سورتى (ص) (والدخان) على الترتيب... ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ ص: ٢٧ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ الدخان: ٣٨ .

...هاتان الآيتان الكريمتان .. تشيران بأن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه، وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه .. ومن هذا الحق الكبير تنفرع سائر الحقوق وسائر موازين الحق .. ولذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

القمر: ٤٩... ويقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ الفرقان: ٢... ويقول

أيضا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد: ٨.

هذا "القدر" وذلك "التقدير" و "المقدار" .. هو "الميزان" الذي نحن بصدده .. والله أعلم... وفي ظل هذا التوازن وهذا التقدير كان الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض ليمسك بزمام هذه الأرض في ظل ما أودعه سبحانه وتعالى فيه من الطاقات الكامنة، والقوى الخافية الكفيلة بتحقيق المشيئة الإلهية.

عالم التوازن هذا وتفصيله هو العالم الذي ابتدأت "صورته" و "سورته" بذكر "الرحمن" ... حيث ذكرت لفظة "الرَّحْمَنُ" مره واحده ... ولكنها "مرة" مهيمنة على جو السورة ونصها... وشاء "الرَّحْمَنُ" أن يكون محور هذا الكون وهذا التوازن هو الإنسان .

كل ما هو موجود في سورة "الرحمن" من أفعال الله عز وجل سيكون منسوبا للفاعل الوحيد في السورة، الذي لم يرد له اسم أو صفة أخرى، ولم يظهر أبدا عبر الآيات إلا باسم "الرحمن" .. وفي الآية الأولى منها !  
ولنبداً رحلة "الميزان" مع "الرحمن" من أولها ... ولكن قبل ذلك لنقف وقفة واحدة على بعد خطوة واحدة تسبق الميزان الذي نحن بصدده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يونس: ٣



فلنقف ونتأمل هذين المقطعين ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ .. ﴿يُدْبِرُ

الْأَمْرَ﴾ .. ولنرقب ما سوف ينبئ عنه الترابط بينهما بعد قليل.

..ثم ها هو سبحانه وتعالى بعد خلق السموات يقدم لنا لقطة ومشهدا جديدا وطورا جديدا من أطوار تسخير وتهيئة السموات بأجرامها المختلفة والأرض لأجل هذا الإنسان الذي جعله المولى محور ومركز هذا الكون العريض

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدْبِرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ

تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

الرعد: ٢ - ٣

هكذا .. بلمسة جديدة .. لمسة في السموات برفعها وتسخير ما فيها من الشمس والقمر كل فيها يجري وفق ناموس وأجل مقدر .. ولمسة بمد الأرض وبسطها، وإرسائها بالرواسي ثم فوق ذلك بتهيئتها للإنبات والإثمار على النحو الذي أوداه المولى..

﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الحجر: ١٩ .

ولنرقب مرة أخرى أن كل ذلك قد تم في ظلال أن المولى ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ﴾ ﴿..يُدْبِرُ الْأَمْرَ﴾ بل ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ .. بما يلقي بظلال

التمكن الكامل والسيطرة الكاملة والإشراف التام على كل الخلق.

والسؤال الآن.. ما هي الصفة الأزلية التي استوى بها المولى على عرشه .. هل هي صفة الجبار ..؟ أم هي صفة القهار..؟ أم صفة.. أخرى ؟  
كلا .. فمع الاستعلاء والسيطرة والتمكن .. الرحمة الكبيرة الدائمة: "الرحمن"

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ الفرقان: ٥٩... إن صفة الرحمة الأزلية، المعبر عنها باسم

"الرحمن" مع قوله تعالى في آيتي يونس والرعد ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ و ﴿ يُفَصِّلُ

الْآيَاتِ ﴾ .. تشي لنا بطبيعة الميزان والتوازن الذي ترسمه بلفظه ومعناه

سورة "الرحمن" من التدبير والتفصيل الوارد في سياقها.. ومن ثمَّ فإن قمة قِبِ التوازن أو محوره تعلقت بيد الرحمن الذي استوى على أوسع المخلوقات وهو

عرشه .. بأوسع الصفات وهي الرحمن: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ .

- ومن قمة هذا الميزان القائم على رحمة الله بوصفه "الرحمن" .. كان التدبير والتفصيل لميزان الكون والخلق، وفي مركز هذا التوازن ومحوره كان الخليفة الإنسان على رأس العالمين

- إذن الكون كله بسمواته وأرضه، وكل ما فيه عالم متوازن ... الظواهر الكونية فيه تجري وفق قوانين واضحة ومتوازنة، وكلها يرتبط بعضها مع بعض بتوازن أيضا ... وما ذلك كله إلا لأجل هذا الإنسان الخليفة محور هذا الكون والعالم المتوازن ... مثل العالم في ذلك والله المثل الأعلى كميزاننا المعتاد .. كل ما في تكوين الميزان من تقابل منتظم دقيق .. هو

لأجل إحداث التوازن بين كفتي الميزان اللتين هما كفتا ميزان الإنسان كما سيبدو بعد قليل ..

- فلأجل إحداث التوازن الذي يثمر اللؤلؤ والمرجان لهذا الإنسان .. نظم

سبحانه وتعالى الكون وجعل حركات الأجرام فيه بحسبان ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ الرحمن: ٥ .. فالمعلوم أن الأجرام الفلكية لكل منها مجاله المغناطيسي وجاذبيته، وأن هذه المجالات تختلف قوة وضعفا من جرم إلى جرم آخر..ولو أن هذه المجالات والجاذبيات كانت بلا حسابان ولا نظام يحكمها لتناطحت الأجرام وتفتت وانتهى أمرها إلى فساد الكون الذي نعرفه.

- و"الرَّحْمَنُ" .. ومن أسمائه الرافع.. رفع السماء في نطاق الحسبان المذكور بما فيها من نجوم تضيئ بذاتها، ومن كواكب تنير بانعكاس الضوء عليها ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا﴾ يونس: ٥ ... ومن ثمَّ كان الليل والنهار أيضا بحسبان .. وسبحانه جعل النجوم والكواكب دلائل يهتدي بها الإنسان في ظلمات البر والبحر .. فكان رفع السماء من آلاء الرحمن التي تستحق الحمد من عباد الله .. ولا ننس أن السماء كانت محل نزول القوت الروحاني للإنسان الذي أشارت إليه السورة الكريمة في موضعين ..

أولهما وأشرفهما ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾..ولذلك كان له صدارة الالتصاق

والاقتران باسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في صدارة السورة الكريمة .. وثانيهما ..

وبالتوازي معه ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .. كتمهيد وتأسيس لإحدى كفتي الميزان الإنساني .. وهي "الروح".

- وإذا كان سبحانه وتعالى يسمى "الرافع" فمن أسمائه كذلك "الخافض"، وقد جاء في التعبير عن هذا المعنى استعمال الفعل "وضع" في مكانين أولهما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ والثاني قوله جل شأنه ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الرحمن: ١٠... ويستفاد من الشركة بين الميزان والأرض في الاقتران بهذا الفعل - والله أعلم - أن المقصود بالميزان هو التوازن الذي أنشأه سبحانه وتعالى بين مخلوقاته في الكم والكيف بحيث لا يكون بعض المخلوقات سببا في إفساد الحياة .. فنحن نقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ فصلت: ١٠ ونقرأ قوله تعالى:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد: ٨ ... ونقرأ قوله: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩.. هذا "القدر" وذلك "التقدير" و"المقدار" .. هو "الميزان" الذي نحن بصدده .. والله أعلم...

... وهذا هو التمهيد والتأسيس لكفة الميزان الأخرى في الإنسان .. كافة المادية التي في خلق وتكوين الإنسان وهو من مادة الأرض .. فإذا كان ﴿الرَّحْمَنُ﴾ قد وضع الميزان ووضع الأرض .. فالميزان مرتبط بالإنسان الذي يسكن الأرض، ويتخذها بيئة يتبوها .. وهنا يرد على خاطر ما يعرف بتوازن البيئة، ولو اختلف توازن البيئة لفسدت الأرض .. وانظر مثلا إلى ما

حدث من ثقب لطبقة "الأوزون" في الغلاف الجوى بسبب المبالغة والمغالاة التي أدت إلى الانحراف عن التوازن في استعمال بعض الغازات ... إن الاحتباس الحراري يهدد بغرق كثير من سواحل البحار والمحيطات فضلا عن

الأرض .. ومن هنا ينبهنا سبحانه بقوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾

الرحمن: ٨ .

- كفتا الميزان إذن في الإنسان، وهما كفتا الروح والمادة فيه والتي يراد لهما التوازن.. أصلها التوازن بين السماء وما فيها وما نزل منها .. وبين الأرض وما فيها وما أنزل عليها .. قال المولى: ﴿ سَتْرِيهِمْ أَئِيتَانِي

الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فصلت: ٥٣

.. وقال الشاعر:

أتحسب أنك جرم صغير      وفيك انطوى العالم الأكبر

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن سورة "الرحمن" هي مدنية، رغم أنها تشبه في جوها وأسلوبها السور المكية .. لكن لهذا دلالاته المميزة، كما لو أن سورة

تبين رحمة ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ بمعناها الواسع، وترسم صورة هذا العالم المتوازن .. ما كان لها إلا أن تنتزل في المدينة، عندما يبدأ المجتمع المتوازن بالنهوض والقيام .. ومن ثمَّ كان معيار التوازن هكذا بعد رفع السماء ووضع الميزان

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ الرحمن: ٨.. كيف يكون ذلك ؟ .. ينبهنا سبحانه

وتعالى إلى ذلك فقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾

الرحمن: ٩ فلا تغطي كفة على كفة .. ولا تخسر كفة أمام كفة... التوازن المطلوب الذي يثمر اللؤلؤ والمرجان وهو ذاته التوازن الذي ينشئه الإسلام ..

### **التوازن .. بين المادة .. والروح**

فلا مادية بحتة كمادية الجاهلية المعاصرة اليوم .. ولا روحانية بحتة كالجاهليات التي تظهر الروح بكبت الجسد وتحقيره .. وتعذيبه .. وإهمال مطالبه ... وبالتالي إهمال الدنيا كلها وإهمال عمارة الأرض .  
إنه وحده .. التوازن بين الفطرة والدوافع .. فلا إطلاق للدوافع الفطرية بلا ضابط فتقلب شهوات مدمرة .. ولا كبت لهذه الدوافع وتعطيل الحياة بالرهبانية .

### **التوازن الدقيق بين العمل للدنيا والعمل للآخرة**

لنكون أمةً تعمل للدنيا والآخرة في سياق واحد، بموازنة بسيطة، تجعل العمل عبادة، والعبادة عملاً كذلك .. فتقوم بعمارة الأرض في ظل الله والعقيدة .. لا بمعزل عن الله والعقيدة، وتقوم بشعائر التعبد لصالح الدنيا وصالح الآخرة في ذات الوقت.

التوازن بين .."الملكية الفردية" و"مصالح المجموع" ..وبين المغانم..والمغارم .. في المجتمع.

التوازن بين .. "سلطة الحاكم" و"سلطة الأمة" .. فلا يغطي أحدهما على الآخر الحاكم له السمع والطاعة في المعروف .. والأمة لها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لولي الأمر.

التوازن بين .. "الفرد" و"الجماعة" .. فلا يغطي الفرد فيحطم الجماعة، ولا تغطي الجماعة فتحطم الفرد.

التوازن بين " العلم " و "الإيمان" .. فلا يطغى العلم العقلي أو المادي فينكر الوحي، ولا يمنع الإيمان التعلم والتجريب والاجتهاد حيثما كان كل مجال. ...وفي جو هذا التوازن .. يجب أن لا ننسَ أنه من بين معاني قوله

تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي جعل القرآن "علامة" لنا .. علامة على طريق الاختيار، والموازنة بين كفتي الميزان .. علامة على درب حياة كل منا تدله على الطريق الصحيح في كل مفترق يواجهه .. فهو المنارة التي تنير ظلمة البحار .. البوصلة التي توجه وتهدى إلى الاتجاه الصحيح، ولا ننس أنه لم يُعَلِّم القرآن فحسب .. بل كان بالتوازي والتوازن معه كَرَّمَ الإنسان و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ والبيان هو كل أدوات الفهم والإدراك والتجريد التي اختص بها المولى عز وجل الإنسان بها دون غيره من مخلوقاته الأخرى ... الاثنان معا ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .. تشيران إلى خطين متوازيين .. القرآن علامة وبوصلة على درب حياتنا .. والبيان وسيلة لفهم هذا القرآن ودوره في حياتنا وفي دورنا على هذه الأرض.

ويصفهما الدكتور العمري في كتابه " كيمياء الصلاة": "بأنهما جناحان لا يمكن التحليق من دونهما، ولا يمكن رفع واقعا من دونهما .. القرآن وأدوات فهمه وإدراكه .. من دون الفهم والقدرة على استنباط الجديد والمتجدد سيتحول القرآن إلى لوح حجري لا يتفاعل مع الواقع ولا يغيره.. ومن دون القرآن ستكون أدوات الفهم ضائعة بلا بوصلة ... بلا حدود.

... مع القرآن والبيان في وضع هذا العالم الذي خلقه "الرَّحْمَنُ" عالم

متوازن .. عالم جديد أكثر عدالة وتماسكا .. وارتباطه بخلق "الرَّحْمَنُ" الذي ليس فيه تفاوت هو الذي يتيح عالما متماسكا بلا فطور...

ويضيف الكاتب قائلاً: وتذكرنا ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ .. أن عملية الوزن والموازنة مستمرة ودائمة، وهي لا تشمل الأشياء المادية التي تقاس وتكال وتوضع في كفتي ميزان .. بل هي حالة توازن مستمرة تضعك أنت شخصيا في واحدة من كفتي الميزان، وتضع في الكفة الأخرى ما يجب أن تكونه وما يجب أن تفعله .. ستضع العالم كما هو في كفة، وتضع العالم كما يجب أن يكون في الكفة الأخرى، وتحاول أن توازن .. تحاول أن تسهم في تعديل الميزان .. في جعل الكفتين متعادلتين ... وستعرف بالتدريج أن كفة حقوقك حينما تتعادل مع كفة واجباتك سيساهم بالتدريج في صنع عالم أكثر توازنا.. عالم أكثر عدالة في عالم الميزان والقسطاس المستقيم، فلا يبغي شيء على شيء .. سيظل هناك برزخ في موضع آخر .. يبقى كل شيء في حدوده وإطاره .. وهكذا كل توازنات الغيب والمادة، والفرد والمجتمع، والحق والواجب .. كلها ستثمر اللؤلؤ والمرجان.

إذن بارتباط العالم " بالرحمن" وبارتباطه "بالميزان" سيكون علوه وارتفاعه .. ذلك أن ارتفاع المجتمع لا يكون إلا كما ارتفعت السماء عبر "الميزان" ومن خلال "الرحمن".



## من إشارات عالم "الرحمن"

كل سورة الرحمن عن الرحمن، وتتجلى فيها آثار الرحمن... انظر:

- الله ..... تجلى باسم ..... ﴿الرَّحْمَنُ﴾
- ﴿الْقُرْآنَ﴾ ..... تجلى بتعليمه فقال: ..... ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾
- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ... وتجلي عليه ..... فـ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .
- ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ..... تجلى عليهما برحمته فجعلهما .. ﴿بِحُسْبَانٍ﴾
- ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾ ... جعلهما ..... ﴿يَسْجُدَانِ﴾
- ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ ..... أعلى مقامها ..... فـ ﴿رَفَعَهَا﴾ .
- ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ ..... ووضع معها ..... ﴿الْمِيزَانَ﴾

## أجواء وأصداء الرحيم:

سبق أن تكلمنا عن الفرق بين لفظتي "الرحمن" و "الرحيم" في مقدمة  
مبحث "الرحمن الرحيم" .. وتكلمنا بشيء من التفصيل في فقرة "اتساع مشيئة  
البسط والنشر للرحمة" عن لفظة "الرحيم" ونحن إذ نتناول صفة أو اسم  
"الرحيم" لنلتمس بعضاً من عطاء هذه اللفظة الكريمة، فسوف نتناولها من  
خلال ذلك التنوع في طريقة ورودها في الكتاب القرآن كفاصلة قرآنية .  
أولاً: اقتران رحمة الرحيم بالتوبة .. والرفقة .. والمغفرة .. والود .. والبر  
.. والعزة.

يقول الدكتور العمري: ( لفظ "الرحيم" في حقيقته أقرب إلى صورة الأم العطوف الرقيقة من "الرحمن" ... ) .. وأضيف إلى ذلك بأنها صورة الأم التي تعطي الفرصة للإصلاح والتغيير ليس هذا فقط بل هي على استعداد دائم أن تعطي الفرصة بغير مهادنة ..ثالثة أو رابعة أو خامسة .. ما دامت النية نحو التغيير صادقة والمحاولات قائمة .. لأن من أظهر مصاديق رحمة الرحيم أنه "التواب" .. لهذا كان أول صفة تجلى بها الرحيم على آدم عليه السلام إثر

تجربته الأولى ﴿ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾

البقرة: ٣٧ .

ولفظه "الرحيم" تشير إلى كونها في الغالب خاصة بالمؤمنين داخل دائرة ربوبية المولى للعالمين كما سبق أن أوضحنا .. هي بمثابة وضع هامش أوسع يتم فيه التخفيف عن أولئك الذين لم يحققوا التوازن المطلوب كما بيناه في فقرة "الرحمن والميزان " .. ربما لأنهم حاولوا، ولكن محاولتهم لم تكف، أو ربما لأن الظروف حالت بينهم وبين ذلك، أو ربما لأنهم غرر بهم، أو ربما لأسباب أخرى لا نعرفها .. فكون لفظ "الرحيم" جاء تاليا على الدوام للتواب، والرؤوف، والغفور، يفسر أن رحمة "الرحيم" تمنح الفرصة التالية دائما لأن تخرج من الرحم من جديد .. أن تولد من جديد .. تماما كالعائد من الحج وقد طهر وغفرت له ذنوبه ... ولعل هذا يفسر سر عدم ورود لفظه "الرحمن" في سورة الحج .. فضلا عن ورود المركب المزدوج "رؤوف رحيم" كمرة وحيدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الحج: ٦٥... ذلك أن

الحج هو بمثابة الرحمة العملية التطبيقية التي طهرت وغفرت من خلالها كافة الذنوب.

- إذن فورود الرحمة بعد المغفرة التي "غطت الذنب" تفتح باب الطاعة والإقبال على الله من جديد .. ليس هذا فقط بل تمنح الفرصة للتميز في تلك الطاعة وذلك الإقبال .. ومن هنا فهو "الرحيم" وبعد التوبة "التي قطعت جذور الذنب" تكون الرحمة أيضا بمثل ما كانت المغفرة ...

ومع الرأفة " التي هي بالغ الرحمة وخاصتها" .. الرأفة بدفع المشقة تكون الرحمة أيضا بجلب الخير .. انظر إلى قوله تعالى في سورة النحل وهو يتكلم عن الأنعام ﴿ وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل: ٧

الرأفة: يناسبها قوله: ﴿ وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ النحل: ٧.

والرحمة: يناسبها قوله تعالى قبلها ﴿ وَاللَّائِمَةَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ النحل: ٥ - ٦.

وبعدها في قوله: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٨ .

وهكذا لفظة "الرحيم" تأتي عندما يكون هناك هامش "اضطرار" عندما يضطر الإنسان "غير باغ ولا عاد" أن يتجاوز حدا معيناً يلزم معه المغفرة أو التوبة أو الرأفة .. يكون هناك دائماً "الرحيم" يفتح باب الأمل .. يفتح طاقة ومشكاة النور لتخرج من النفق المظلم من عنق الرحم الضيق لتولد من جديد. - على أن هناك في سياق القرآن ما جاءت فيه صفة أو اسم "الرحيم" مقترنا باسم آخر لا يدل على هامش الاضطرار الذي تكلمنا عنه .. بل هو مقام البر والرحمة بعباده وهو .. قوله تعالى في سورة الطور: ﴿ إِنَّا

كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ الطور: ٢٨ .

إن هذه الآية الكريمة وردت في سياق النعيم والرخاء والرغد الذي يعيش فيه المتقون في الجنة .. وفي ظل هذا النعيم المأنوس يعرض مشهدا للمؤمنين وهم يتسامرون فيما بينهم، ويتذكرون الماضي، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم .. فيكشف المولى سر هذا المتاع للقلوب ويشير إلى الطريق المؤدي لهذا .. السر في ذلك أنهم عاشوا على حذر من يوم القيامة، عاشوا في خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه، عاشوا كذلك وهم في أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم يندعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم ينشغلوا .. عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم .. وذلك لأنهم كانوا مع الإشفاق والحذر يدعون ربهم ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ

نَدَّعُوهُ ﴿٥٠﴾ .. وهم يعرفون من صفاته البر والرحمة بعبئده ﴿٥١﴾ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ  
الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ فهذا مقام البر والوفاء بالوعد بالرحمة المنشودة .

ويأتي لفظ "الرحيم" في صحبة لفظ "العزیز" كما سبق أن قلنا في سياق  
الوعد بالنصر كما في قوله تعالى: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ﴾ الروم: ٥٠... وكذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ  
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ الدخان: ٤١ - ٤٢ ... أو في طلب التوكل نحو  
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الشعراء: 217... أو الكلام عن تنزيل الكتاب  
نحو ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ يس: ٥ .

أما في سورة الشعراء .. فقد وردت عدة مرات في الآيات 9، 68،  
104، 122، 140، 159، 175، 191 .. في معرض الحكم على نتائج  
رسالات الأنبياء عليهم السلام .. وذلك على صورة موحدة هي: ﴿إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾  
الشعراء: ٦٧ - ٦٨ ... فالعزة هنا متعلقة بوجود "الآية" الدالة على قدرة الله .  
ثانياً: كل الصفات التي اقترنت بـ"الرحيم" كانت تتقدمها لتكون "الرحمة"  
بمثابة المظلة التي تجمع وتظل تحتها تلك الصفات الرحيمية .. إلا فيما تعلق  
بتقدم "الرحيم" على .. "الغفور" .. وتقدم الرحيم على "الودود"...فما السر في  
ذلك !؟

الموطن الأول: آية سبأ .. قال تعالى في سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ

الْغَفُورُ﴾ سبأ: ٢... فما السر في ذلك التقديم في هذا الموطن الوحيد في

القرآن كله للرحمة على المغفرة ؟ ...

لقد جاء في ختام سورة الأحزاب التي قبل سبأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب: ٧٢... بهذا

الترتيب: السموات .. والأرض .. ثم استهلّت سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

الْخَيْرُ﴾ سبأ: ١ .

فناسب ذلك تقديم ما يلج في الأرض وهو من السماء على ما يخرج منها

وهو من الأرض تقديمًا وجوديًا .. وكذلك علمه سبحانه وتعالى بما ينزل من

السماء وما يعرج فيها من الأرض على نفس النسق والترتيب ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ

فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ

الْغَفُورُ﴾ سبأ: ٢... فالولوج سابق على الخروج، وكذلك النزول سابق على

العروج .. فينزل الماء من السماء إلى الأرض فتحضر الأرض وتثمر ..

وكذلك ينزل من السماء شهب الحديد المتساقطة في الأرض .. ثم يخرج منها

النبت والزرور والمعادن والصخور على سبيل "القوت المادى" للإنسان ... وهكذا التفاعل والتناسب بين السماء والأرض خير ما نزل من السماء يقابله خير ما خرج من الأرض ... كذلك فإنه من آثار الرحمة الفائقة ينزل من السماء الوحي "بالقوت الروحاني" .. وهو القرآن قمة الرحمة:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩... فَبِمَ قَابِلَ الْإِنْسَانَ هَذِهِ الرَّحْمَةُ؟ .. بدلا من أن يكون كالأرض التي قابلت خير السماء بالخير الخارج منها .. إذا بالسماء يصعد إليها أعمال العباد من الذنوب والسيئات .. مصداقا للحديث القدسي الذي جاء فيه "يا عبادي خيري إليكم نازل وشركم إلى صاعد.." والتي تقابل من الله بالمغفرة ..

ولذا جاءت هكذا الصفتان على ترتيب الذكر من حيث الولوج والخروج .. ومن حيث النزول والعروج .. فتقدمت الرحمة على المغفرة .. وهناك سبب آخر لتقدم الرحمة على المغفرة .. لأن الرحمة للعموم ... فالرحمة تشمل الجميع .. والمغفرة تخص البعض .. فتقدمت الرحمة على المغفرة تقدم العموم على الخصوص.

## الموطن الثاني:

موطن سورة هود .. ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي

رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هود: ٩٠ .. جاءت هذه الآية في معرض دعوة شعيب قومه أهل مدين إلى عقيدة التوحيد .. ومع هذه الدعوة قضية الأمانة بالنهاي عن

النقص في الميزان والمكيال، والأمر بالإيفاء لهما بالقسط والعدل في التعامل مع الناس بعدم بخرس الناس أشياءهم والنهي عن العثو في الأرض فسادا ... فبماذا قابل قومه تلك الدعوة...!!!؟

لقد قابلوها بالسخرية منه قائلين: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧... فبم قابل سخريتهم واستهزاءهم ؟.. لقد قابلها بالتلطف والتقرب والود من خلال التذكير بأواصر الرحم القريبة .. فلم ينقطع نداؤه لهم بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾<sup>(1)</sup> في سياق دعوته لهم.. ثم دعاهم في نهاية الأمر إلى الاستغفار والتوبة قائلا لهم: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ... فذكر الرحمة بعد التوبة، وهذا ما كثر ذكره في الكتاب الكريم بالوصف المزدوج لصفات الله "الْتَّوَابُ الرَّحِيمُ" من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ التوبة: ١١٨... ثم في آيتنا هذه أضاف فوق التوبة والرحمة أنه سبحانه وتعالى "ودود" أي كثير الود والمحبة والإحسان لمن يصدق في التوبة والأوبة إليه سبحانه مصداقا لما جاء في الحديث القدسي<sup>(2)</sup> "أنا عند حسن ظن عبدي بي ... " والذي جاء فيه " .. وإن تقرب إلى ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن آتاني يمشي أتيته هرولة " ..

1- انظر هود 88-89

2- رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب ( ويحذركم الله نفسه) وقوله جل ذكره ( تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ج9 ص120. - القسطلاني ج10 ص381.



إذن فجملة ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ هود: ٩٠ تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة أي عظيم الرحمة للتائبين .. ليس هذا فقط بل يرفع منزلتهم وإكرامهم فيكون مبالغا في اللطف والإحسان إليهم.

### ثالثاً: المواطن التي جاءت فيها اسم وصفة "الرحيم" مفردة:

ولقد جاءت هذه الصفة مفردة في ثلاثة مواطن تتشابه إلى حد بعيد في الكيفية التي وردت بها وهي على الترتيب.. قوله تعالى في سورة النساء:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ

رَحِيمًا﴾ النساء: ٢٩.. وقوله في سورة الإسراء: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي

لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الإسراء: ٦٦

وقوله في سورة الأحزاب آية 43: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

وسأكتفي ببيان سر ذلك في سورة الأحزاب نظراً لأن قوله تعالى فيها:

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الأحزاب: ٤٣ " إجمال فيه تعليل لما

ورد في المواطن الثلاثة .. يقول تعالى قبل آية الأحزاب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١ - ٤٢

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب: ٤٣ ... فما يخرج الناس من الظلمات إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم ويهديهم إلى فطرتهم، فطرة التوحيد التي هي فطرة الوجود .. فرحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ بتوفيقهم إلى فعل ما يرضاه الله، فإنهم أهل خاصته فيحملهم على الإخلاص في الطاعات، ويرفع لهم الدرجات في روضات الجنات.. فالمقام مقام رحمة المنح بفيض العطاء.

#### رابعاً: الرحمن الرحيم:

سبحانه وتعالى ليس هو "الرَّحْمَنُ" فقط ولا "الرَّحِيمُ" وحده بل هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .. أولاً .. لكن ظهور آثار أنه "الرَّحْمَنُ" بالرحمة العامة على الوجود أسبق من ظهور آثار أنه "الرَّحِيمُ" بالرحمة الخاصة على عباده وخلقه ومربوبيه المؤمنين.

ولعل هذا يكون من أسرار ذكر ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة مرتين .. فالتي في البسمة تتعلق بـ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أولاً، ولذا فقد اقترنت مباشرة باسمه الأعظم "الله" .. والثانية بعد "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" تتعلق بظهور آثار رحمته العامة بالعالمين، ورحمته الخاصة بالمؤمنين.

فسبحانه هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أولاً .. وهو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد الخلق والإيجاد.

إذن ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها  
وإذن ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يستمد منه كل موجود وجوده .. ويبدأ منه كل  
مبدوء بدؤه .

وإذن ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ معك بعد الوجود .. يعينك .. يحرسك ..  
يعززك .. أنت مغمور برحمته منذ وجودك إلى يوم أن تقف بين يديه.

هذا المركب اللفظي ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تتواءم وتتناسق فيه الرحمة  
العامة مع الرحمة الخاصة ..

**الرحمة العامة:** وتتمثل في ذلك التوازن الذي بني عليه الكون ابتداءً،  
والذي منح الجميع الفرصة في بناء عالم متوازن

**والرحمة الخاصة:** هي النظر بالشروط المخففة، وإفساح المجال لمن  
يستحق هامش الاضطرار .. ويضيف العمري فيقول: " وعندما يصير فهمك

لـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ جزءاً من رؤيتك الإيجابية للعالم .. جزءاً من العدسة  
التي تنظر من خلالها إلى العالم، فإنك ستعتبر أن مهمتك في إعادة بناء العالم،  
متعاضدة وتنقوى بالرحمة العامة التي أودعها في بنية الكون وهو التوازن ..  
ولذلك فإنك سوف تشعر أنك جزء من رحمته عندما تسهم في إعادة التوازن  
لميزان اختلت كفته هنا أو هناك.. سيكون عملاً معززاً برحمتين، العامة التي  
تأمل أن تصير جزءاً منها .. والخاصة التي ستأمل أن تشملك على اضطرار

هنا أو هناك لا يخلو منه إنسان .. فمع "الرحمن الرحيم" ستشعر أنك مغمور برحمته، لكنها الرحمة التي تقويك .. الرحمة التي تجعلك أصلب، وأكثر إثماراً، وأكثر فاعلية .. إنها الرحمة التي تخرجك من "الرحم" تجعلك تولد من جديد"، فسبحانه له الجلال والجمال من الاسم المفرد ومن اجتماعهما معاً. ولقد ورد ذكر هذا المركب المزدوج في ستة مواضع .. هي على الترتيب:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣ .

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ النمل: ٣٠ .

﴿ حَمَّ ① تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فصلت: ١ - ٢ .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ ﴾ الحشر: ٢٢ .

وأما عن مواطن البسملة، وموطن آية النمل .. فقد سبق الحديث عنهما في البسملة .. وأما مواطن الفاتحة الآخر فقد ذكرنا طرفاً منه .. وها نحن نطوف مع المواطن الأخرى:

## 1) موطن آية البقرة:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمُّ لِلَّهِ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
ثم قال في الآية التالية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤  
إن ظلال كونه "الرحمن" تتلاقى مع ظلال كونه "الرحيم" تتآلفان، تتجانسان، وينشأ عنهما ما يترتب على كونه "الرحمن" مع كونه "الرحيم" في أبداع سياق وأدق نسق ونظم.

لقد قدم "السموات" لعظم خلقها وتعلقها الأكبر بـ"الرحمن" .. يكفي أنها محل نزول القرآن .. ولذا فهو "الرَّحْمَنُ" ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ .

ثم عقب بـ"الأرض" وتعلقها الأكبر بـ"الرحيم" .. فمنها خلق الإنسان وظهرت آثار كونه "الرحيم" به .. فسبق ذكر عالم الملكوت والسماء طرف منه، وكذلك الليل والنهار، ثم أعقب بذكر طرف من عالم الملك، وهو قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ البقرة: ١٦٤ وهي طرف من عالم الأرض .. ثم أعقب ذلك بأمور اشترك فيها العالم العلوي "الملكوت" والعالم السفلي "الملك" .. عالم السموات والأرض .. عالم كونه "الرحمن" مع عالم كونه "الرحيم" بأهل الأرض، وهو إنزال الماء من السماء، ونشر ما كان

دفيينا في الأرض بالإحياء..ثم ذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وهي كذلك من الأمور المشتركة .. ما دلالة ذلك .. إنه ليس "الرحمن" فقط ولا "الرحيم" وحده .. بل هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المركب المزدوج .. حيث يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها في العالمين والإنسان.

## (2) موطن آية فصلت:

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْءَانًا

عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿فصلت: ١ - ٤ .

ولقد ألمحنا في آية البقرة ما يخدم المعنى هنا .. فهو سبحانه وتعالى "الرَّحْمَنُ" بالقرآن .. ولذلك فهو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾ "فالرحمن" هنا إذن يعود في الآية الكريمة على قوله: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فصلت: ٣.. و"الرحيم" يتعلق بالإنسان المؤمن على وجه الخصوص ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .. ولذا فالرحيم متعلق بقوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت: ٣.. ويجمع بين المتعلقين معا الرحمن بالقرآن .. الرحيم بالإنسان، قوله بعدها ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فصلت: ٤ بشيرًا بالقرآن ونذيرًا للإنسان.

### (3) موطن آية الحشر:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
الحشر: 22

جاءت هذه الآية في سياق ضرب الأمثال للناس لعلهم ينفكرون ﴿لَوْ

أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ الحشر: ٢١ ومن ثمَّ

تجيء هذه التسيحة المديدة بأسماء الله التي ذكرت في هذه الآية، والآيات التي بعدها .. ونلمح بإيجاز هذين الخطين المتوازيين المتجانسين، وكنت قد أشرت إليهما في المواطن السابقة وفي مواطن أخرى.

#### الخط الأول: يضم "القرآن" و "الغيب" و "الرحمن"

وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ..

وقوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ق: ٣٣ .

والخط الثاني: يضم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ في آية الحشر التي قبلها

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ الحشر: ٢١

"وَالشَّهَادَةِ" و "الرَّحِيمُ" في آيتنا هذه.

ويؤكد هذا التعلق بنفس الترتيب للغيب والشهادة آية السجدة ﴿ ذَلِكْ عَلِيمٌ ﴾  
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ السجدة: 6 .. فاشترك كونه عالم الشهادة  
 مع كونه الرحيم في آيتي الحشر والسجدة .. وتقدم عالم الغيب لكونه  
 الأعلى، وللإشارة إلى أن علم ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ مطلق لا تحده حدود، فيستوي لديه  
 القريب والبعيد، والظاهر والخفي .. إذ لا قرب ولا بعد، ولا خفاء ولا ظهور  
 .. فذاك حال العلم القاصر المحدود .. أما علم الرحمن فهو المطلق الكامل.  
 فما أعجبه من نظم .. فهو "الرَّحْمَنُ" لأنه "عَلِيمُ الْغَيْبِ" الذي أنزل  
 "القرآن" ... وهو "الرَّحِيمُ" لأنه "عالم الشهادة" لعل الناس "يَنْفَكُرُونَ"  
 ..ومن ثم فهو "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" أزلاً.. وهو "الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" بعد الخلق  
 والإيجاد.

### لطائف الختام:

الأولى: هذه اللطيفة تكمن في أن الجمع بين الرحمن والرحيم يثري الفرق  
 بين القلب والفؤاد - فإن اسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب، ومعناها قريب  
 كقرب معنى الاسمين "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" .

فحافظ القلب هو الرحمن لأن القلب معدن الإيمان، قال تعالى:

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ  
 فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ والمؤمن توكل بإيمانه على الرحمن، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ



الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿١﴾ كما أن خشية الرحمن هي سبب إنابة القلب،  
قال تعالى: ﴿٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣﴾ .

وحافظ الفؤاد هو الرحيم خاصة بأهل الإيمان والتقوى، قال تعالى:

﴿٤﴾ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وقال: ﴿٦﴾ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ  
فُؤَادَكَ ﴿٧﴾ الفرقان : 32.

الثانية: حظ العبد من "الرحمن": أن يرحم عباده الغافلين فيصرفهم عن  
طريق الغفلة إلى طريق الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن  
ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء، وأن تكون كل معصية تجري  
في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جهدا في إزالتها بقدر وسعِهِ رحمةً  
لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى فيستحق البعد عن جواره .

وحظ العبد من "الرحيم": أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته،  
ولا يترك فقيرا في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله أو  
جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك ..  
فبالدعاء، وإظهار الحزن لسد حاجته.. رقة عليه وعطفا، كأنه مساهم له في  
ضره، وحاجته .

الثالثة: وفي طي هذه اللطيفة لطيفة الخيرية في الرحمة والمغفرة بين ما جاء  
على لسان الرسل والأنبياء عامة .. وما جاء على لسان خاتم النبيين  
والمرسلين خاصة :

ورد في القرآن مقترنا مع الدعاء بطلب المغفرة والرحمة ما يلي:

﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٥٥

ورد هذا الدعاء على لسان سيدنا موسى استغفارا عن قومه "بني إسرائيل" لعبادتهم العجل بعد إيمانهم .. فالمقام مقام مغفرة في المقام الأول .. ورحمته في المقام الثاني وخصيصة لهم ..

كما ورد على لسان موسى في موضوع العجل أيضا .. ولكن دعاء له

ولأخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِينَ ﴾ الأعراف: ١٥١ وعلى لسان يعقوب ﴿ فَأَلَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ

أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ يوسف: ٦٤ .

وعلى لسان يوسف دعاؤه: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ

لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ يوسف: ٩٢ .

وعلى لسان أيوب نداؤه ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ

أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٣

- وقد تبين في كل ما مر من دعاء .. أنه كان على لسان الأنبياء في حقهم وخصيصة لهم أن يغفر الله لهم ويرحمهم .. في حين جرى الدعاء على لسان

أمة محمد ﷺ وشاركت فيه رسولها الأكرم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴾ المؤمنون: ١٠٩

وكان دعاؤه ﷺ مثل دعاء أمته .. تكريماً لأمته .. دعاءً بالخيرية المطلقة:  
خيرية الرحمن التي وسعت كل شيء: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ  
الرَّحِيمِينَ ﴾ المؤمنون: ١١٨ .

فأرحم الراحمين: وصف لأرحم رحمة .. وأما خير الراحمين: فوصف ليس  
فقط لأرحم رحمة .. بل هي معها وصف لأوسع وأعم رحمة..

ثم إن بين دعاء موسى عليه السلام: "... ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ..

ودعاء الرسول ﷺ: "... ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴾ .. فارق ما بين خيرية جبر  
النقص بالمغفرة .. وخيرية زيادة الفضل بالرحمة .. تلك الخيرية التي فضلت  
بها أمة محمد ﷺ بأفضلية رسولها محمد ﷺ.

.. وهكذا .. فكما هو ﷺ شهيد على جميع الأمم والأنبياء .. وكما "خيريته"  
ﷺ شهيدة عليهم جميعاً رسالةً ورسولاً وأمةً .. كذلك "رحمته" ﷺ شهيدة على  
جميع "رحمات" الأمم والأنبياء .. وهي "خير الرحمات" ..  
وقد جاءت تلك "الخيرية الرحمية" تكريماً من الله إلى رسوله الأكرم خطاباً  
وتلقيناً له وحده ﷺ من بين الرسل والأنبياء:

﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴾ (١١٨) المؤمنون: ١١٨ .. فهو "دعاء  
الرب تعالى" علمه نبيه عناية به وصيانة لفضله له..

.. وتلك شهادة الرب سبحانه لرسول الإسلام ﷺ ولأمة المسلمين...

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ  
"مَجْدُنِي عَبْدِي"



# مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ " مَجْدُنِي عَبْدِي "

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ :

هي ختام النصف الأول فيما يخص المولى جل وعلا من الصلاة المقسومة بين العبد وربّه، والتي تنتهي المعاني فيه إلى أنه سبحانه وتعالى صاحب الثناء وصاحب المجد.

أولاً : الملك - أو مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

اقتترنت صفة الملك لله سبحانه وتعالى بصفة الرحمة في أول منظومة أسمائه الحسنی ( هو الله الذي لا اله إلا هو الرحمن الرحيم الملك.. ) وهو الذي

يوافق ذات الترتيب كما ورد في سورة الحشر ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴿ الحشر: 22- ٢٣ وهو ذات الاقتران الذي عبرت عنه

فاتحة الكتاب ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿..

كذلك فإن ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ تلتقي مع ما جاء في معاني ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ﴿ بدلالة الباء على الملك كما سبق أن أشرنا في "البسمة" فضلاً

عن كون اسم "الله" مستلزما لجميع الأسماء دالا عليها بالإجمال، ومنها كونه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. وبذلك فقد اقترن الملك بالرحمة أيضا في البسمة بدلالة الباء واسم الجلالة "الله" مع ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .. فما دلالة ذلك؟.

ملك الشيء لغةً أي حازه وانفرد باستعماله والانتفاع به أو التصرف فيه .. وأملكه الشيء أو ملّكه الشيء : أي جعله ملكا له .. وتملّك الشيء أي امتلكه.

و "المَلِكُ" بفتح الميم واللام هو واحد الملائكة، وهو جنس من خلق الله نوراني لطيف كجبريل ..

أما "المَلِكُ" بفتح الميم وكسر اللام فهو اسم من أسماء الله الحسنى .. وهو يعنى: ذو الملك وصاحب التصرف فيما يملك بجميع الوجود، ما علمناه منها من عالم المُلْك والشهادة، وما لم نعلمه من عالم الغيب والملكوت.

- وقد يستخدم الاسم "مَلِكُ" مع الإنسان، ولكن نلاحظ انه يأتي دائما مضافا مقيدا بجزئية المُلْك التي يمتلكها فنقول : مَلِكُ بلجيكا .. أي ولي السلطة بلجيكا

هذا عن مُلْكِ الإنسان .. وأما عن مُلْكِ الحق جل جلاله فإن الأمر يختلف تماما، لأنه سبحانه وتعالى ليس مالكا فحسب بل هو المَلِكُ الذي يملك الأشياء، ويملك من يملكها ولذا فهو مالك الملك.

ومُلْكُ الله تبارك وتعالى يتضمن مفهوم الملكية البسيطة المستفادة من ملكية الناس لبعض متاع الدنيا، ويزيد عليه بوجوه .. فملكية الإنسان للأشياء

ملكية رمزية .. إما أن يزول عنه ملكه للشيء أو يفارق هو ملكه بالموت ..  
 أما ملكية المولى جل وعلا فهي ملكية حقيقية، فلا يفوته ملكه، ولا يفوته  
 سبحانه وتعالى .. من ذلك أنه سبحانه وتعالى يملك مخلوقاته كلها جليها  
 ودقيقها .. ولا يشاركه في هذه الملكية أحد ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

فِيهِنَّ﴾ المائدة: ١٢٠ .

- كما يملك أن يضيف إلى كونه ما ليس فيه كما قال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ

مَّثْنَىٰ وَثُلَّةَ ۖ وَرَبِّعَ ۖ زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاطر: ١ .

- ومن آثار ملكه أنه تبارك وتعالى يحيي ويميت من يشاء حين يشاء، ولا  
 يشاركه في ذلك أحد .. انظر كيف قهر إبراهيم حجة الكافر المجادل بالباطل

الذي تخيل بجهله أنه يملك الإحياء والإماتة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ

فِي رَبِّهِ ۖ أَن ۖ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ۖ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

قَالَ أَنَا أَحْيِي ۖ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

البقرة: ٢٥٨ .

- ومن آثار ملكه أنه يعلم عن كونه كل شيء .. يعلم كل صغيرة وكبيرة وفي

ذلك يقول تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

الأنعام: ٨٠ .



- ومن آثار ملكه أيضا أن كل ما يستجد في الكون، وهو الغيب بالنسبة لنا، يستجد بإرادته وعلمه ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الزمر: ٤٦ .

- بل إنه سبحانه وتعالى يعلم ما يجول بخواطر البشر وما تنطوي عليه صدورهم ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ القصص: ٦٩ وهو ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ طه: ٧ .

- وهو متفرد بالملك لا ينازعه فيه احد ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ ﴾ الإسراء: ١١١ .

- ومن آثار ملكه أن مآل كل شيء إليه - فكما كانت البداية منه فإن النهاية تكون إليه ﴿ لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ الحديد: ٥ .

- كما أنه هو مالك يوم الدين ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ غافر: ١٦ .

إذا فهمنا ذلك .. فإنه ينبغي علينا أن ننصرف إليه بالدعاء في كل صغيرة وكبيرة ولا نغتر بظواهر الخلق، فهم من أسباب الله وعبيده، وهو الضار والنافع وحده ﴿ قُلْ أَعْبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ المائدة: ٧٦ .

وهو الرزاق الحق ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ﴾

- ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يحثنا علي أن نتوجه إليه سبحانه وتعالى بالدعاء ودون أن نشرك معه غيره مع الثقة بأن كل شيء منه - وأن بيده الخير.....

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

آل عمران: ٢٦ .

لقد أدرك نبي الله سليمان هذه الحقيقة فدعا ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

ص: ٣٥ .

فماذا كانت ثمرة ونتيجة هذا الدعاء:

﴿ فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَظُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ص: ٣٦ - ٤٠ .

**ثانياً : بين قراءتي " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ " و " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ "**

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ و ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قراءتان صحيحتان

متواترتان عن رسول الله ﷺ وقد نزل بهما جبريل من عند الرحمن .. ولكل

قراءة معنى كما هو معلوم، وكل قراءة تستدعي أموراً لا تستدعيها القراءة الأخرى.

— قراءة "مَلِك" أقرب إلى السيادة والاستعلاء .. فمع "مَلِك" بحذف الألف يكون هو المتصرف بالأمر والنهي في الأمور من أفراد المَلِك بضم الميم .. ومع المَلِك يُتصور عرشه .. فكل ملك ذو عرش ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ

الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ المؤمنون: ١١٦.

ومتعلق "المَلِك" جوازات "المَلِك" .. فهو إذن "مَلِك" ذلك اليوم :

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ لا مَلِك غيره سبحانه .. إذ لا ملوك اليوم لا على

الحقيقة ولا على المجاز. هو وحده "المَلِك" ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ ﴾ غافر: ١٦ .. فملوك الدنيا سيبعثون مع الناس حفاة عراة ﴿ فَتَعَلَى

اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ .

وقد قيل: إن قراءة "مَلِك" "أبلغ من" مَلِك " لأن كل "مَلِك مالِك"

وليس كل مالِك مَلِكاً .. وللاجماع على قوله تعالى: ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾

وقوله: ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ وقوله: ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ .

- وقراءة " مَلِكٍ " أقرب إلى الحيازة والاستيلاء ومعها القيومية

والتصرف .. فـ " مَلِكٍ " عبر الألف هو المتصرف في الأعيان المملوكة

كيف يشاء .. فهو إذن "مالك" ذلك اليوم " مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ " فيتصرف فيه

كيف يشاء .. ليس هذا فقط بل لا "يوم" حينئذ لأحد غيره .. استوفى الجميع

أيامهم في الدنيا إلا ذلك اليوم .. حيث يكون اليوم يومه .. تتلاشي جميع أيام

الناس .. لا يبقى سوى يوم واحد بعينه ﴿ ذَلِكِ يَوْمٌ جَمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ هود: ١٠٣ .. يوم الآخرة، يوم الفصل والحساب، يوم الحكم

والجزاء .. يوم الدين .. يوم الله المالك الأعظم لذلك اليوم الأعظم ﴿ لِمَنْ

أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ﴾ غافر: ١٦ .. ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ التغابن: ٩ .

- القراءتان إذن تتعاضدان وتتكاملان .. وكذلك كل القراءات الصحيحة الثابتة

هي سعة رحمة وعلم .. هي من مظاهر التعاون على البر والتقوى في السياق

والنظم القرآنى .. فالمالك يتصرف ما لا يتصرفه المَلِكُ من البيع والهبة

والإيجار .. والمَلِكُ يتصرف بالفصل والحكم والعدل والإنصاف ما لا يتصرفه

المالك.

- المَلِكُ ملك للرعية يرجون منه العدل والإنصاف .. والمالك مالك للعبيد

يرجون منه الكسوة والطعام والرحمة والتربية .. فالمَلِكُ أرفق بالرعية،

والمالك أرفق بالعبيد .. والخلق عباد الله ورعاياه.

— من ذلك أيضا أن المَلِك لا يكلف من كان في مشقة المرض بما لا يُطاق،  
وأما المالك يعالجه ويعينه ويطعمه .. نعم قد يكون الملك في حياتنا أعظم  
الناس وأعلاهم، ولا يكون إلا واحدا في حين أن كل واحد يمكنه أن يكون  
مالكا .. لكن المالك بإضافة نفائس وفرائد ما يملكه إليه يصبح ملكا فيه .. فما  
بالك حين يكون المضاف إلى ملكه "يَوْمِ الدِّينِ".

- هو إذن " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ " لا يشاركه في ذلك أحد، ولعل حذف رسم  
الألف من " مَلِكِ " يشير إلى تمكن دلالة المَلِك .. فلا مالك ليوم الدين سواه  
.. وإذا كان حذف الألف من رسم " مَلِكِ " يشير إلى كون ذلك اليوم من عالم  
الغيب والملكوت الذي لا يمكن أن يعرفه أو يحدده العباد .. فإنه في ذات  
الوقت يشير مع دلالة اسم الفاعل علي تمكنه من حاضر ملكه وغائب ملكوته.  
- الجمع بين القراءتين إذن وليس تفضيل إحداهما على الأخرى يثرى التأمل  
والتدبر .. بل إنه من خلال التوجيه البلاغي للقراءتين ما يساعد على استنباط  
واستقطاب المعاني الدقيقة المتباينة .. فيكونا كالقمرين يتعاقبان المعاني كالليل  
والنهار .. الاسمان معا من حيث الجمع كالبحرين اللذين مرج الله بينهما ..  
وفي ذات الوقت يلتقيان .. ثم يخرج منهما ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ .

ويقول صاحب ملك التأويل : "والذي يبدو لي إنما أنزلت القراءتان  
لتجمعا بين معنيي المالك والمَلِك، فيكون مالكا ومَلِكاً وذلك نظير قوله تعالى:

﴿مَلِكِ الْمَلِكِ﴾ آل عمران: ٢٦ فالملك إنما هو للملك لا للمالك، كما قال تعالى على لسان فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ الزخرف: ٥١ .. فجمع بين المالك والملك وأفاد أن الملك له، ولا يتأتي ذلك في قراءة واحدة.

- ويضيف الباحث إلى أن أهم ما تميز قراءة "مَلِكِ" على وزن فاعل أنها تجمع بين كل من سمات الاسم والفعل معا، وقد ترتب علي تلك الطبيعة المزدوجة لاسم الفاعل أن صار مشتركا بين الدلالة على الثبوت من جهة النظر إليه كاسم .. فهو مالك الجن والإنس والطير والدواب .. ولا تضاف "مَلِكِ" إلى هذه الأصناف .. هذا في مقابل ما تحمله صيغة مالك أيضا من معاني الفعل الدالة على التجديد .. لأنه مالك ويملك ما يجد وما يستجد في الكون ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبأ: ٣ .

- التلاوة بالقراءتين مناسبة للرحمة من كل الوجوه في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبلها .. فـ "مَلِكِ" اسم ذات أقرب إلى "الرَّحْمَنِ" .. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الفرقان: ٢٦ .

وهي من معاني الألوهية .. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ الأنعام: ١٢ .

و "مَلِكٍ" بدلالة الفعل في اسم الفاعل أقرب إلى "الرَّحِيمِ" فهي من

باب الربوبية ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ يس: ٥٨..

ومن ثم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الأنعام: ٥٤ .

- الجمع بين القراءتين يفيد إذن أنه إذا توجهت عنايتك إلى استحضار

عظمة الذات المقدسة "الرَّحْمَنِ" في ذلك اليوم ترَجَّحَ لديك اختيار "مَلِكٍ

يَوْمِ الدِّينِ" .. خاصة وقد قلت قبلها "الْحَمْدُ لِلَّهِ" .. وختمت مثلها في

آخر سورة الناس ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ .. فهو هنا ﴿مَلِكِ يَوْمِ

الدِّينِ﴾ .

وإذا توجهت عنايتك إلى استحضار رحمة ربوبيته في ذلك اليوم المهيب "

الرَّحِيمِ" ترَجَّحَ لديك اختيار "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" خاصة وقد قلت قبلها

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وختمت بعدها بالرب - في آخر القرآن - سورة

الناس كذلك: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهو هنا ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

- حصاد القراءتين معا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .. ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ

الدِّينِ﴾ .. وذلك باستدعاء الأسماء "الله" "الرَّحْمَنِ" "المَلِكِ".

وكذلك " ... رَبِّ الْعَالَمِينَ " " الرَّحِيمِ " ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. باستدعاء  
أسماء " رَبِّ الْعَالَمِينَ " " الرَّحِيمِ " " المالك "

### ثالثاً: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

هي قضية ضخمة من قضايا العقيدة .. بل هي أساس الدين لأنها  
تعطينا أن البداية من الله، والنهاية إلى الله .. وبما أننا سنلقى الله فلا بد أن  
نعمل لهذا اليوم .. ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً إلا وفي باله الله .. وأنه  
سيحاسب يوم القيامة ... ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في باله شيء  
من ذلك .. وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ  
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ  
فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ النور: ٣٩.

ويقول الشعراوي: إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد .. فإن ﴿ مَلِكِ ﴾

يَوْمِ الدِّينِ ﴿ تستحق الحمد الكبير لأن ملكية الله ليوم الدين أعطت الاتزان  
للوجود كله .. فهذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف والمظلوم،  
وأبقت الحق في كون الله .. إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها  
القوى بالضعيف، والظالم بالمظلوم، أن هناك آخرة وحساباً، وأن الله سبحانه  
هو الذي سيحاسب خلقه.



والآن فلنعيش المعاني المترتبة على ملكية الله سبحانه وتعالى ليوم الدين .. ولن نستطيع أن نحيط بالمعاني كلها، ولا نستطيع أن نستوفي معنى واحدا من المعاني.

## (1) ملكية اليوم:

من بين كل ما يمتلكه مالك الملك، وهو مالك كل ما يمكن أن يمتلك في هذه الدنيا وفي سواها .. فإن الفاتحة تتجاوز كل ذلك .. بل تتجاوز رصيد كل ما يمكن أن تمتلكه البشرية .. فالقيمة العليا للتملك تكمن في بعد آخر تماما غير الأبعاد الثلاثة .. إنه امتلاك البعد الرابع: الزمن.

هذا هو أعلى ما يمكن امتلاكه .. لأن ما لا يمكن امتلاكه حقا ليس إلا الله عز وجل.

كل لحظة تفوتك لا يمكن أن تستردها .. كل لحظة تقدم عليك لا يمكن أن تدفعها أو ترددها .. كل لحظة تعيشها لا يمكن أن تنفك عنها أو تتصل منها.

سبحانه وتعالى يعيد الأيام واللحظات الماضية .. بل لقد أحصاها في

كتاب: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا

يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

الإسراء: ١٣ - ١٤.

سبحانه وتعالى يجمع القرون من الناس والأجيال المختلفة في صعيد واحد، ويجمع الأزمنة الماضية من حياة هؤلاء الناس ويختزلها و يختزنها في

يوم واحد هو يوم الدين ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ  
اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران: ٩ .

سوف تجد كل نفس ما مضى من أيامها في هذا اليوم ﴿ يَوْمَ تَجِدُ  
كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا  
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ آل عمران: ٣٠ .. ولذلك يحذرنا المولى في ذات الآية

﴿ وَيَحذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران: ٣٠

فاستعد لهذا اليوم ﴿ فَأَقْرِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا  
مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ الروم: ٤٣ .

... أجل هو وحده المالك الحقيقي للبعد الرابع: الزمن .. أجل هو وحده  
يمتلك رصيدك كله ليس مالا ولا أرضا ولا جاها .. فكل ذلك من أعراض  
الدنيا الزائلة التي تفوتك وتفوتها .. إنه سبحانه وتعالى يمتلك رصيدك الحقيقي  
.. عمرك كله بالسنين والأعوام والشهور واللحظات، ولا أصغر من ذلك ولا  
أكبر إلا عنده في كتاب مبين .. ذلك لأنه وحده هو الذي يملك الوقت والزمن  
.. أما ملكيتنا نحن البشر للوقت في حقيقتها فهي ملكية من نوع خاص .. إنها  
ملكية مؤقتة .. حيازة مؤقتة فحسب .. إنه في حقيقته تخويل استعمال مؤقت  
الذي هو في حقيقته جوهر الاستخلاف في الأرض .. المالك الأصلي هو  
الوحيد الذي يمكنه حيازة الوقت، حيازة البعد الرابع: مده وبسطه، طيه

واسترجاعه، ذلك أنه المطلق المنزه عن الأبعاد .. بل هو خالق ومبدع كل الأبعاد ﴿ مَثْنَى وَثُلَّةَ وَرُبْعَ ﴾ النساء: ٣ .

الله عز وجل مالك الثواني والدقائق والساعات والأيام .. كل شيء عنده بحسبان .. إنه المالك الحقيقي للزمن بكل تقسيماته، إنه مالك اليوم، ويوم غد، ويوم أمس .. إنه مالك أعلى ما يمكن امتلاكه ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. ذلك الذي ظفرت بذكره وحده سورة الفاتحة .. فاتحة الكتاب .. أم القرآن.

## (2) نسبة اليوم وطلاقته:

سبحانه وتعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: 2

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد: ٨ .. من ذلك المقدار وذلك التقدير الوقت - الزمن .. أو ما يطلق عليه الآن البعد الرابع .. ولذلك فقد سخر الأجرام لأجل ذلك كله بحسبان ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ الأنعام: ٩٦ .

- اليوم على كوكبنا من شروق الشمس إلى شروق الشمس .. وهذا ما نسميه فلكيا "اليوم" .. فيومنا محكوم بالشمس هذا الجرم العظيم الذي خلقه الله .. سبحانه وتعالى لا يحكمه زمان ولا مكان .. يمكنه أن يخلق يوما مقداره ساعة، ويوما كأيام الدنيا على أرضنا مقداره أربع وعشرون ساعة .. ويوما مقداره ألف سنة .. ويوما مقداره خمسون ألف سنة ... فذلك خاضع لمشيئته .. يقول المولى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

الحج: ٤٧... وكذلك يقول: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ  
مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج: ٤ أي تعرج في خمسين يوما من الأيام  
عند ربنا سبحانه.

إذن الزمن أو الوقت عند البشر نسبي يرتبط بمشيئة الله وتقديره .  
.. أليس القبر .. كما جاء في الحديث آخر منازل الدنيا وأول منازل  
الآخرة؟

.. أليس من مات فقد قامت قيامته؟  
.. أليس القبر حينئذ إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر  
النار؟

.. ومع طول البقاء في القبر إلى قيام الساعة، يخرجون يقولون  
ويتخافتون بينهم : ﴿إِن لِّيَوْمِ الْآخِرَةِ﴾ طه: ١٠٣.. ويقول "أمتلهم طريقة  
﴿إِن لِّيَوْمِ الْآخِرَةِ﴾ طه: ١٠٤.. واليوم الشعوري المقصود للمؤمن في يوم  
الآخرة: ساعة من نهار ما بين الظهر والعصر ... واليوم الشعوري للكافر  
والعاصي في يوم الآخرة .. وهو على حقيقته الزمنية دون طي أو نشر ..  
لخمسين ألف سنة.

إذن الزمن لدينا نسبي .. اليوم كذلك عندنا نسبي ... أما الزمن طيه  
ونشره إطلاقه ونسبته فعلمه وتقديره عند الله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ

غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ  
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿الكهف: ٢٦﴾ .

- ويقول الدكتور منصور محمد في كتابه "الإشارات القرآنية للسرعة العظمى والنسبية":

"والزمن الذي نعيشه نحن على كوكب الأرض يختلف عن الزمن المقيس على الكواكب الأخرى لأن مدة العام الواحد كمقياس لدورة الكواكب حول الشمس .. ومدة اليوم الواحد كمقياس لدورة الكوكب حول نفسه مسألة نسبية .. فالسنة على كوكب عطارد تعادل 88 يوما من أيامنا .. وأما يوم عطارد فيعادل 59 يوما من أيامنا ... وبهذا قصر عامه، وطال يومه بالنسبة لأعوامنا وأيامنا ... والسنة على المشترى تعادل 12 سنة من سنيننا .. فلو كان عمرك على الأرض 60 سنة .. فعمرك على كوكب المشترى 5 أعوام .. وبذلك طال العام على هذا الكوكب بينما قصر يومه إلى عشر ساعات على عكس عطارد.

- فالتقويم في أي مكان يختلف عن تقويمنا .. وعموما فالزمن لا معنى له إذا لم ينسب إلى النظام الذي اشتق منه .. وإلى الكوكب الذي يعيش فيه الزمن.

ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النسبية في قياس الزمن الذي لبثه أهل الكهف في كهفهم معبرا بمقدار 300 سنة ميلادية، وبما يعادل 309 سنة في

التقويم القمري المضبوط على الهلال .. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْشُوا فِي

كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ الكهف: ٢٥.

- ولم يقتصر القرآن على الإشارة على اختلاف التقويم على نفس الكوكب،

ولكن الآية التي تليها أكدت نسبية الزمن ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا﴾ .. لأن

الله هو الوحيد الذي يعلم العدد الحقيقي لتلك السنوات (في ذلك الكهف الزمني)

لأن العدد المذكور في الآية يختلف حتما من مكان إلى آخر في هذا الكون

المملوء بالحركة، والذي يختلف فيه الزمن باختلاف حركة الراصد

والمرصود، ومكانهما وسرعتهما، وهذا مما لا يعلمه علما شاملا إلا الله ﴿لَهُ

غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سبحانه وتعالى لأنه محيط بالزمان لا أحد

غيره.

ويضيف الباحث: اليوم نحن نحدده ظاهريا بأنه أربع وعشرون ساعة،

ونحدده بأنه الليل والنهار .. ولكن الحقيقة أن الليل والنهار اللذين نقدر بهما

اليوم موجودان دائما على الأرض .. نظنهما يتعاقبان ويتبادلان .. لكن

الحقيقة أنهما موجودان دائما على الأرض .. فعندما تتحرك الأرض حول

نفسها، كل حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة أخرى ..

هي بداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة أخرى .. ولذلك ففي كل لحظة

ينتهي يوم ويبدأ يوم جديد ..

فأي يوم يومنا هذا ؟! .. وأي يوم يوم غيرنا ؟!

- لازلنا في عالم النسبية حتى على كوكبنا الذي نعيش فيه .. حتى لو افترضنا طلاقة معرفتنا به .. فالكرة الأرضية بنظرة شاملة كلية لا ينتهي عليها نهار أبدا، ولا ينتهي عنها ليل أبدا ..

ولعل هذا يزيح ستارا من كهوف آية المدثر ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ التي تكون حروفها من الشمال إلى اليمين ما تكوّن حروفها من اليمين إلى الشمال ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ بعد حذف الواو ... إنك لو وضعت أحرف هذه الآية السبعة موزعة بانتظام فوق ساعتنا الأرضية تدور مع عقاربها أو ضد عقاربها، لاكتشفت أنه سبحانه وتعالى يُكَبِّرُ له في كل لحظة من لحظات الزمن النسبي الذي نعرفه ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ النور: ٣٦ .. حيث لا ينقطع الأذان أبدا لحظة من اللحظات ..

ففي كل لحظة ﴿ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾

فاطر: ١٠ .

وسواء أكانت القارات أو البلدان أثناء دورة الكوكب عن اليمين أو الشمال .. فالكل يكبر ويسبح سجداً ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيئُوا ظُلْمَهُ عَنِ الِيمينِ وَالشَّمالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ النحل: ٤٨ .

فالله وحده هو خالق اليوم .. وهو وحده الذي يحدد أبعاده ... من ذلك أن كل يوم لك بالأمس كان غدا وكل غد مقبل صار أمساً.. ولكن حين الساعة، يوم القيامة، يوم الدين، سوف يصير الغد، كل الغد يوما.

إذن فساعتك التي أنت فيها على الحقيقة هي ساعة الآخرة، ويومك الحقيقي هو يوم الدين، وغدك الحقيقي الذي سيصير يوما هو غد الآخرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

الحشر: ١٨

... رصيدك الحقيقي من هذا اليوم أو الغد هو التقوى .. التي حصر

سبحانه كل يوم وكل غد بين ناصيتي التقوى في أول الآية وفي آخرها.

وبعد ..

- فقد كانت النسبية هي المهيمنة على يومنا الذي نعيشه على كوكبنا ..

فماذا عن يوم القيامة!؟

لليوم هنا شأن آخر .. الناس كلهم جميعا منذ بدء الخليقة مع اختلاف

رصيد كل منهم من اليوم ومن الغد .. على قرب أو بعد بينهم في القرون

والأجيال، مجموعون جميعا ليوم واحد لا ريب فيه ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ

النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران: ٩

فيوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى بأحداثه كلها .. بجنته وناره ..

وكل الخلق سيحاسبون، وعندما يريد أن يكون ذلك اليوم، ويخرج من علمه

سبحانه إلى علم خلقه.. سواء كانوا من الملائكة أو من البشر أو الجان ..

يقول: كن .. فالله وحده هو خالق هذا اليوم .. وهو وحده الذي يحدد أبعاده ..

فكما "المُلك" في الآخرة مطلق له وحده تعالى .. فكذلك "اليوم" مطلق بملكه



وخصائصه وعلمه وزمانه له وحده!! ... ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحْدِ

الْقَهَّارِ﴾ غافر: ١٦... لأنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾

الحشر: ٢٣ .

- إنه يوم الكشف يوم ظهور الحق واستعلائته، .. يوم ترجمة معنى قول

الرسول ﷺ " لكل قول حقيقة" .. ولقد كان القول وكانت الرسالة قرآنا ..

فهذا يوم تجلي القرآن، حيث يجمع سوره وقصصه وأخباره .. تجمع آياته

بشاراتها وإنذارها .. تجمع كلماته وحروفه بتصريحها وإيمائها وتعريضها

وإشاراتها في آن واحد وصعيد واحد حيث يكون الحق من الحق هو السمة

المهيمنة على هذا اليوم والمشهد العظيم .. إنه يوم ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ

﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ الحاقة: ١ - ٣.. إنه يوم الحق يظهره الحق حيث

سحبت سجادة وبساط الحياة الزائفة، ومدت وبسطت الأخرى التي كنت تنكرها

سجادة الحياة الخالدة .. إنه يوم الطي والنشر .. الطي في قوله:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

نُعِيدُهُ﴾ الأنبياء: ١٠٤، وأما النشر فالناس ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ

جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ القمر: ٧ يذهلهم أن وجدوا ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ التكويد: ١٠

... ليست صحفا عامة شاملة لكل الناس، كلا لكل واحد صحيفته وكتابه:

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ

مَنْشُورًا ﴾ الإسراء: ١٣

- إنه يوم تغير النواميس ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾

إبراهيم: ٤٨

ويوم ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ التكوير: ١ كذلك ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ ﴿ وَإِذَا

الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴾ وكذلك ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ المرسلات: 8 ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِرَتْ ﴾ الانفطار: ٣ " وكذلك ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ التكوير: ٦ إنه يوم

تكون فيه ﴿ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ القارعة: ٥ .

لقد كان ميلاد اليوم على كوكبنا بطريق الأسباب من خلال أجرام الشمس

والقمر ﴿ وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَابِّينَ ۖ وَسَحَّرَ لَكُمْ أَيْلَ

وَالنَّهَارَ ﴾ إبراهيم: ٣٣ .

.. أما وقد انتهت وفنيت أسباب الأرض حيث نفخ في الصور نفخة واحدة

فإذا الجميع قيام ينظرون، وتبدلت النواميس فلا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا

ليل ولا نهار .. حينئذ سوف تشرق الأرض بالطريق المباشر ﴿ وَأَشْرَقَتِ

الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الزمر: ٦٩ .

.. لا نسبية في هذا اليوم .. لقد رفع الله حجاب النسبية والأسباب ..  
 انتهى ناموسه وقانونه، لم يبق ولن يبقى سوى ناموس واحد وقانون واحد ..  
 هو قانون طلاقة الزمن بالخلود .. الخلود في النعيم الأبدي، والخلود أيضا في  
 العذاب الأبدي .. نعم هناك آخرون مرجون لأمر الله يمضون في جهنم  
 يعذبون إلى ما شاء الله.. ثم يدخلون الجنة حيث دار الخلود أيضا لهم .. إنك  
 على كل حال سوف تمنح صك الخلود ... ويوضح المولى تلك الأحوال  
 الثلاث في هذا اليوم بما جاء في سورة هود على النحو التالي ..

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ جَمْعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُوحِرُوهٗ  
 إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهَا ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ  
 وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦  
 خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ  
 لِّمَا يُرِيدُ ﴾ هود: ١٠٣ - ١٠٧ .

هذا حال الشقي في النار حيث يشير قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ إلى  
 خلوده في النار .. وحال الذي يعذب في النار لبعض الوقت ثم يخرج منها ..  
 ويشير إلى ذلك الفصل لقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ .. في آية مستقلة عما قبلها  
 إضافة إلى الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ .. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ  
 فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

أما السعيد فيصف المولى حاله ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾ هـود: ١٠٨... حيث يشير قوله تعالى: أيضا: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ البقرة: ١٦٢ متصلا في آية واحدة مع ما قبلها إلى الخلود في الجنة إضافة إلى قوله تعالى: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾ أي غير مقطوع .  
 إنه يوم طلاقة اليوم بالخلود الدائم بالنعيم الدائم أو العذاب الدائم.. لأنه ببساطة ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. يوم قضاء الدين .. والله سبحانه وتعالى هو:  
 ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

### (3) يوم الدين:

لماذا قال سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ؟  
 لَمْ لَمْ يَقُلْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. أو الآخرة.. أو الساعة .. أو البعث ؟  
 وقبل كل ذلك لم خص سبحانه وتعالى المُلْكِ بيوم الدين ولم يذكر الدنيا؟  
 إن الفاتحة بموقعها الفريد على قمة الهرم القرآني .. سواءً في القرآن أم في الصلاة لا تذكر غير ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. لا بد أن هناك مغزى لذلك .. !  
 من ذلك ما ورد في السؤال الأخير عن سر عدم ذكر الدنيا .. والجواب والله أعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر قبلها ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهو يشمل

الدنيا، وأن ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني يوم الجزاء .. ولا شك أن مالك يوم الجزاء هو مالك ما قبله من أيام العمل، وإلا فكيف يجزى على ما ليس ملكا له.. !  
- وأما لماذا هو ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ وليس يوم القيامة أو الساعة أو البعث أو الحساب؟

أقول والله أعلم: الرؤية الشاملة للحياة هي الرؤية الكاملة، حيث تصطف كل الأجزاء والتفاصيل في إطارها المتكامل، حيث يكون لكل جزء وكل تفصيلة موقعه من الصورة والسياق والإطار .. وسيكون تقويم الخير والشر من خلال هذه الرؤية الشاملة.. سيكون الحكم .. وتطالعنا النتيجة .. ويال هول المفاجأة، إذا كانت حصيلة النتيجة ﴿أَتَأْمِدُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِعُونَ﴾ الصافات: ٥٣ - ٥٤.. سوف يفهمون يومئذ معنى ﴿يَوْمِذٍ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ النور: ٢٥ .

- سوف تعضون أنامل الحسرة والندم حين تفرعون ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ الواقعة: ٨٦

- سوف تتذكرون كفتي الميزان التي قيل لكم ﴿أَلَا تَطَّغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ الرحمن: ٨ وقيل لكم ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن: ٩ .. هذا هو معني "الدين" في القرآن، حين يُكشَفُ الغطاء ويكون البصر حديدا .. حين يصير عالم الدنيا أو عالم الملك الذي كنت فيه .. هو

عالم ملكوت الواقع بينما عالم الغيب والملكوت الذي كنت تستبعده في الدنيا

صار عالم الملك والشهادة ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٢٦ .

يوم الدين: إذن ليس هو فقط يوم البعث من القبور .. فذلك مجرد بداية .. ولا هو يوم القيامة حين يقوم الناس، أو حين يقوم الفرد وتقوم قيامته .. فذلك تمهيد لما يحدث ... ليس هو يوم الآخرة .. فهذه لقطة النهاية ... وليس هو حتى يوم الحساب .. فما دام الحساب مستمرا .. فذلك يعني أن الحكم لم يصدر بعد.

يوم الدين: هو ظرف الأحداث كلها .. من قيامة الإنسان .. أو بعثه .. أو القيامة العامة وما بعدها من الحساب.

... إبليس اللعين حين طرده المولى من رحمته أنظره وأمهله إلى "يوم

الدين " فقال له: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الحجر: ٣٥ .

يوم الدين: حين يصدر الحكم .. حين ينتهي كل شيء .. حين تتوج الصورة بالعدل الذي يكملها ويتمها .. ليس للعين إبليس فقط .. ولكن أيضا لمن كان عند حسن ظنه من أعوانه ورفقائه في الجحيم .

يوم الدين: هو "يوم التغابن" .. "يوم الفصل" .. حيث يفصل في المظالم ويصدر الحكم.

يوم الدين: هو يوم دين الحق الذي أرسل به رسوله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٣٣ .

**يوم الدين:** هو يوم المكافأة للذين قال عنهم المولى ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ  
الَّذِينَ ﴾ .. الذين استجابوا لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
فَكَادَعُوهُ مَخْصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ غافر: ٦٥ .

يوم الدين: هو اليوم الذي تنقلب فيه موازين الدنيا ومعادلاتها الجائرة والتي  
من مظاهرها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا  
مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا  
رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ المطففين:  
٢٩ - ٣٣... تعادل الموازين وتستقيم المعادلات حين يوضع الميزان الحق

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ ۚ هَلْ  
تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ المطففين: ٣٤ - ٣٦ - ٣٤ .

لأجل ذلك، وإلى غير ذلك مما لم نذكره أو نقدر على إحصائه أو  
استقصائه كانت الفاتحة بموقعها الرسمي في القرآن أم في الصلاة.. لا تذكر  
غير "يَوْمِ الدِّينِ" .

#### (4) أهمية فهمنا ليوم الدين:

بين طلوع الشمس وغروبها .. بين الظل والضوء .. بعضهم يفضل الظل، وبعضهم يساهم في النور، وبعضهم لا يبالي ... ماذا يترسخ لدينا في رؤيتنا مما فهمناه عن ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ؟.

أولاً: يذكرك لفظ اليوم أن تجعل كل يوم لك في حياتك مشروع حساب: هل ساهمت في شروق الشمس نفسه حين ﴿جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ المائدة: ١٥.. هل كنت من ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ الأعراف: ١٥٧.. أم كنت من الذين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ التوبة: ٣٢.. هل كنت ميتا أم أسهمت لميلاد نور فجر يوم جديد!.

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢.

.. هل كنت من الذين ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ البقرة: ١٧.. أم كنت من فائزي هذا اليوم ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ الحديد: ١٢.

يوم الدين: الذي طالعك في أم القرآن وفتحة الكتاب يذكرك بذلك

ثانياً: مالك يوم الدين: يذكرك دائما بالاستخلاف .. يذكرك دائما بالصراع بين آدم وإبليس، بل سيضعك فيه .. فعليك أن تثبت أنك مؤهل للاستخلاف



وأنك تستحق أن تنال الشرف الذي منحك الله إياه شرف سجود الملائكة للنوع الإنساني.

**ثالثاً:** يذكرك بالمفهوم الحقيقي للحياة .. سيذكرك أن مفهوم الدين أوسع بكثير من شعائر وطقوس منفصلة عن الحياة .. بل إنه مفهوم واسع للحياة .. وسيلة لقياس الأمور وتقويمها ضمن هذا المفهوم .. فلن يكون يومك يوماً ولا حياتك، إن لم يكن الدين بهذا المعنى الواسع للدين.

لأجل ذلك كله، ولأجل البشرية كلها منذ أن نفخ الله في روح آدم إلى آخر مخلوق إنساني كان "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" التي لم تأت إلا في الفاتحة أم القرآن التي استودع سبحانه تعالى أسرار كتابه الكريم فيها.

**تمة .. وكما هو سبحانه ملك ومالك .. فهو سبحانه "ملك":**  
بالرجوع إلى مادة وجذر الكلمة "مَلَك" نجد في القرآن الكريم من أسمائه سبحانه وتعالى:مَلِك .. ومالك .. ومليك ..

ولقد تناولنا في دراستنا السابقة الأسمين: مالك وهو على وزن فاعل بما لها من الدلالات والإشارات .. وكذلك مَلِك بما لها أيضاً من المعاني والدلالات ... ويتبين لنا أن القراءتين معا هما من باب سعة الرحمة .. وهما من مظاهر التعاون على البر والتقوى في السياق والنظم القرآني.

فماذا عن اسمه سبحانه "ملك" .. والذي اختص بصيغة خاصة في المبالغة وهي صيغة فعيل .. ويجدر بنا أن نوضح معنى وصف "المبالغة" على صفات الله سبحانه .. فقد يتوهم البعض أنه ينبغي ألا يطلق على صفات الله وصف المبالغة .. لأنها صفات حقيقية، وليست مبالغاً فيها .. ولإزالة هذا التوهم نفيد بأن هذا البناء أو هذه الصيغة تفيد كثرة وقوع الفعل وليس المقصود أن الأمر

مبالغ فيه .. فـ"عليم" أبلغ من "عالم" .. و" صبور" أبلغ من "صابر" .. ذلك أن الموصوف بـ"عليم" معناه أنه موصوف بكثرة العلم وسعته وإحاطته، وليس المقصود أن صاحبه وصف بهذا الوصف وهو لا يستحق أن يوصف به فكان الوصف به مبالغة ... وهكذا كشفت الشبهة، وأزيل التوهم ..

### في رحاب "مليك":

لفظة "مليك" شأنها كشأن كل ألفاظ القرآن فريدة النظم والموقع والرونق، حتى لكأنك تؤمن بأن هذا المكان من النظم كأنما خلقت له هذه الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها .

إن لفظة "مَلِيكٍ" فوق ذلك لها شأن آخر فهي من جنس اللآلئ والفرائد

والجواهر القرآنية التي لم ترد في الكتاب سوى مرة واحدة .. لفظة "مَلِيكٍ" وهي اسم من أسماء الله الحسنى لم ترد إلا في ختام سورة القمر في قوله تعالى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْنَدٍ ﴾ القمر: ٥٥ في ختام حلقاتها السبع المتتابة ... كانت الحلقات الست الأولى تمثل كل حلقة فيها مشهدا من مشاهد التعذيب للمكذبين .. فما بين مشهد من مشاهد القيامة في المطلع .. إلى مشهد من هذه المشاهد في الختام .. وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه .. وبذلك تتم الحلقات الست المهيبة المفزعة ..

تُرى ماذا تكون الحلقة السابعة .. "الحلقة الأخيرة" من ختام الحلقات ؟ .. إنها حلقة من لون خاص .. حلقة المشهد الأخير يطل علينا بظلال أخرى

وأجواء مختلفة .. مشهد الأمن، والطمأنينة والسكينة .. مشهد المتقين ﴿ إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

القمر: ٥٤ - ٥٥ .

بهذا الإيقاع الهادئ، والظل الآمن، تنتهي السورة التي حفلت حلقاتها الست السابقة بالفزع والكرب، والأخذ والتدمير .. فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادئ طعم وروح أعمق وأروح .. ومن ثم تلتحم مباشرة بـ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ في سورة الرحمن .. بما لها من الرنين والظل الظليل في بيان ظلال آلاء الرحمن فيما تلاها من آيات .

### وقفات مع لفظة ملك:

**الوقفة الأولى:** ما سر مجيء لفظة أو صفة "مقتدر" بنفس السياق اللغوي والنحوي مرتين في سورة القمر من بين المرات الأربع التي وردت في القرآن الكريم، وألاها اقترنت بوصف "عزيز" ومنه المركب المزدوج ﴿ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾، وثانيهما اقترنت بوصف "ملك" ... ومنه الازدواج

﴿ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ؟

الفعل "اقتدر" على وزن افتعل أبلغ من الفعل "قدر" .. ومن ثم فاسم الفاعل "مقتدر" أبلغ من اسم الفاعل "قادر" بدلالته على المبالغة والتصرف والاجتهاد والطلب والتمكن في تحصيل الفعل ومن ثم فإن قوله تعالى:

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٤٢ .. بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ عَالٍ

فَرَعُونَ النَّذْرَ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴿٤١﴾ القمر: ٤١ - ٤٢ .. قد جاء بعد الذي صدر من أعتى وأشد الأمم في الكفر والتكذيب، في نهاية مطاف ذكر الأمم الظالمة .. لهو بمثابة نهاية المطاف وإسدال الستار على أمثال هؤلاء من عتاة الكفر والعناد والجحود والتكذيب .. ومن ثم فإن ﴿عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ يليق بظلال الشدة في الأخذ، وفيها تعريض بقوة فرعون واقتداره على الظلم والبغي، ومن ثم احتلت قصته مع قومه صدارة الذكر في الكتاب الحكيم كما وكيفاء... ولذلك فإن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسُّسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ﴾ هود: ٩٨... هذا القوم المشين المخزي يقابله قوم الصدق باتباع الرسل .. القوم الذي تطئن إليه النفوس المؤمنة حين تنزلزل القلوب والأقدام لمن كان مثل فرعون وأتباعه.. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يونس: ٢ .

بالصورة الوضيئة ونعيم القرب والأنس بالله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر: ٥٤ - ٥٥ .. بهذا المركب المزدوج ﴿مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مع المتقين .. في مقابل ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مع الكافرين .. وكما كانت "مُّقْتَدِرٍ" أبلغ من قادر فإن "مَلِكٍ" أبلغ من "مَلِك" .. فالوزن فعيل أبلغ وأثبت من الوزن فعيل .. لأن الوزن فعيل أشبه بالاسم .. والوزن فعيل أشبه بالفعل .. فالمركب المزدوج

﴿مَلِيكَ مُقَدِّرٍ﴾ يشير إلى النعيم بطرفيه، طرفه الأول نعيم الحس والجوارح في أقصى درجاته ﴿فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾ بالدلالة على السعة في الأرزاق والمنازل بدلالة جمع "جَنَّتِ" .. والدلالة على اليسر والانسباب والاتصال إضافة إلى الجمع بدلالة "وَنَهْرٍ" ففاقت في هذا الموطن لفضة الأنهار التي وردت في كثير من المواطن الأخرى.. وطرفه الثاني، نعيم القلب والروح .. نعيم القرب والأنس والتكريم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقَدِّرٍ﴾ حيث هو مقعد حق ثابت مطمئن قريب كريم .. مأنوس بالقرب مطمئن بالتمكين.

ولعل هذا يجيب على سؤال فرض نفسه في هذه الوقفة وهو سر ورود لفظة "مَلِيكَ" مرة واحدة في الكتاب الكريم كله، وفي هذا الموطن والسياق.. إنه يشير بذلك إلى نعيم القرب الذي لا يحدث إلا في نهاية رحلة المطاف وإسدال الستار بالنهاية الجميلة والختام المأنوس بالصورة الوضيئة لنهاية وختام رحلة السعداء ﴿فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقَدِّرٍ﴾ .. فكما تفردت الصورة الوضيئة، وتفرد المقام الكريم .. تفردت اللفظة في الورد.

الوقفه الثانية: وكما تفردت لفظه "مَلِكٍ" من حيث ورودها في الكتاب الكريم مره واحده .. فلقد تفردت بورودها بنظم خاص يختلف عن "مَلِك" و"مَالِك" فيما يخص المولى سبحانه وتعالى.

مَلِك: تأتي مضافة دوما ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ الناس: ٢ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. فهي إضافة تعريف وتحقيق للملك.

مالك: تأتي مضافة كذلك ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فهي إضافة تعريف وتحقيق للمالكية.

أما ملك: متفرده بلا إضافة ﴿ مَلِكِ مُقَدِّرِ ﴾ .. فلأنها مكتفية التعريف متمكنة التحقيق ... وفيها احتواء لمعنى "مَلِك" و "مَالِك" بمطلق التمكين فيهما ... وفيها ارتقاء بالتجلي "الرحماني" بعد الفراغ من مُلْك ومالكية الدنيا .. ومُلْك ومالكية الفصل والجزاء في الآخرة "مليكا مقتدرا"

فملك: في معنى استقر واستتب له الأمر .. كما "الرَّحْمَنُ": في معنى الاصطفاء الاسمي - من بين أسماء الله الحسنى - استواءً على العرش ... ولهذا أيضاً ناسب ختام سورة القمر "مَلِكِ مُقَدِّرِ" أن يوصل بـ "الرَّحْمَنُ" في أول سورة الرحمن .. أن يوصل قمة التمكين .. مع قمة الاصطفاء. سبحانه: إنك تشعر وأنت تعايش ظلال أسماء الله الحسنى في سياقها ونظمها بأنه إذا كان سبحانه وتعالى اسمه "المقتدر" .. فهو تجلي "القادر" و"القدير" ..

وأن "مليك" هو تجلي "ملك" و"مالك" ... وأن "الرَّحْمَنُ" هو قمة تجلي "مليك" في الموطن والموقف الفريد المأنوس بالقرب والتكريم. ... وكأنما هذه الأسماء تصنع هرماً قاعدته "ملك ومالك" .. لارتباطهما بكل من تجلي الدنيا والآخرة معاً، وقرب الالتحام برأس هذا الهرم يأتي "مليك" حيث التجلي الأخرى البحت.

.. ومن ثمَّ يتجلى "الرَّحْمَنُ" بكل ما يستغرقه الاسم من معاني الرحمة في أقصى درجاتها بالاسم الخاص والفعل الخاص في هذا الموطن الخاص على رأس وقمة الهرم. سبحانه وكأنما "مليك" يكونها من عالم الملكوت واسطة عقد بين "ملك" و"مالك" من عالم الملك والشريعة .. وبين "الرَّحْمَنُ" من عالم الشهود والحقيقة.

وسبحانه: إن لفظة "العَرْش" بورودها في السياقات المختلفة النظم مقترنة بالصفات المختلفة .. تارة بأنه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .. وتارة بكون الله ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ .. وتارة ثالثة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ .. تتهايف مع أسمائه ملك، ومالك، ومليك، والرحمن.

ففي معرض محاكاة الكافرين وإنكارهم البعث يأتي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ المؤمنون: ٨٦ ... فيأتي " الْعَرْشِ " مقرونا بـ " الْعَظِيمِ " للدلالة على الشدة والبأس والعذاب العظيم لهؤلاء الكفرة .. ولو تتبععت لفظة "عظيم" في القرآن لوجدتها قد اقترنت كثيرا بسياقات الشدة والعذاب والهلاك.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان: ١٣ ... ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مريم: ٣٧ ... ﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الجاثية: ١٠ .

ويدعم ذلك أن الموطنين الآخرين في سورتي النمل والتوبة ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ النمل: ٢٦ . ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة: ١٢٩ .

إن الآية الأولى قد وردت في سياق الإنكار على من يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل .. والثانية وردت في سياق من تولى بالكلية عن الدخول في دين الله واتباع المنهج الذي أرسل على رسوله.



فهذه المواطن بما فيها من الإيعاز بالبطش والهلاك والعذاب .. تتناسب

مع كونه ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ ﴾ و " مَلِكِ " أو ﴿ مَلِكِ ﴾  
يَوْمِ الدِّينِ ﴿ .

كذلك فإن قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿ ١٥ ﴾ فَعَالٌ  
لِمَا يُرِيدُ ﴿ .. يتناسب مع كونه ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ و ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ ﴾  
و ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أو ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ... حيث وردت  
الآيات في معرض بيان أنه سبحانه وتعالى: ﴿ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ بإظهار  
المغفرة والود لشهداء الأخدود من المؤمنين .. في مقابل إظهار البطش الشديد  
لرؤوس الكفر الذين نقموا بالمؤمنين .. فكان قوله بعدها: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ  
لَشَدِيدٌ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَيَعِيدُ ﴿ ١٣ ﴾ البروج: ١٢ - ١٦ .

ويدعم ذلك ما جاء في حديث "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي: " ... فإذا  
قال: مالك يوم الدين .. قال: مجدني عبدي " .. بدلالة التمجيد على الملك  
والمالكية .. ودليل ذلك في آيتنا هذه قوله تعالى بعدها: ﴿ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾  
دليل على مطلق التصرف بالملك والمالكية.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ المؤمنون: ١٦ حيث يأتي وصف العرش بالكريم في مقامات الحديث عن الآخرة على وجه الاختصاص .. ويشير إلى ذلك قوله

تعالى قبلها: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٥ .. حيث يبرز للجميع مؤمنهم وكافرهم بكونه الملك الحق .. تعالى اسمه.

إذن فالرَّحْمَنُ " ليس هو فقط ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ و ﴿ ذُو

الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴾ .. بل هو سبحانه ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .. لأن غاية البركة والكرم من الله تعالى هو إكرامه لعبادة المؤمنين .. وفي الجنة تحديدا .. بتجليه في أوسع مصاديق رحمته التي وسعت كل شيء باسم الرحمن .. الرحمن بالمؤمنين على وجه الاختصاص في الآخرة في دار المزيد .. حيث يكون ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ق: ٣٥ .. فيفضل عليهم

بهذا المزيد في مقابل جهنم التي يسألها ربها ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ ق: ٣٠ .. نعم .. يُقْبَلُ الْمَوْلَى عَلَى أَحْبَائِهِ وَأَحْبَابِهِ

بالمزيد .. والمزيد لا يكون إلا من ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ التي لم ترد في الكتاب الكريم إلا مرة واحدة مثلها في ذلك ﴿ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ تلذذا بسماع كلامه سبحانه وتعالى إقبالا وقدوما لأن ﴿ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ

رَبِّهِمْ ﴿يُونُسُ: ٢﴾ وكذلك ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يُمَكِّنُهُم مِنَ النَّظَرِ إِلَى نُورِ  
 وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي  
 وَجْهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿المطففين: ٢٢ - ٢٤.. وفوق ذلك هي: ﴿وَجُوهٌ يُؤْمَدُ  
 نَاصِرَةٌ ﴿٢٤﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ﴿القيامة: ٢٢ - ٢٣.. خاصة وأنه أورد بعد قوله:  
 ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾  
 المؤمنون: ١١٧ كإشارة لفلاح المؤمنين الذين ذكرهم في أول السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ  
 الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿المؤمنون: ١.. وكذلك في الختام ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ  
 خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ ﴿المؤمنون: ١١٨ .

ومن ثمَّ فالله سبحانه وتعالى وفي آخر فصول يوم الدين .. في ذروة يوم  
 الدين .. يتجلى لعباده المتقين وهم ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ القمر: ٥٤ ﴿فِي مَقْعَدِ  
 صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ باسم وصفة "الرَّحْمَنُ" على وجه  
 الاختصاص ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الرحمن: ١ - ٢... وإلى ذلك  
 الاسم وتلك الصفة يشير ختام السورة التي حملت ذات الاسم والصفة ﴿بُزْرَكَ﴾  
 أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٧٨ والتي استوى بها المولى على  
 عرشه ابتداءً ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ طه: ٥.

وختاما لخواطرننا نحو لفظة "مَلِيكٍ" فلنتابع رحلة الصدق من أولها حتى  
 الوصول والقرار في ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ... لقد سأل  
 أبو الأنبياء إبراهيم ربه أن يجازي ويكافئ الأمة بـ"محمد ﷺ"، فدعا  
 ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ الشعراء: ٨٤.. فاستجاب له المولى  
 فجاء بالحبيب الذي علمه ربه أن يستهل دعاءه بصدق المدخل والمخرج  
 ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ  
 لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ الإسراء: ٨٠.. وهي ذات البشرى التي بشر بها  
 المولى الذين آمنوا بصدق الاتباع وصدق القدوم ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ  
 لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يونس: ٢.. قدم صدق راسخة موقنة لا تتزعزع  
 ولا تضطرب ولا تنزل ولا تتردد .. قادمة ماضية في الطريق الذي رسمه  
 لها مولاها .. لتفوز بالحضرة الإلهية حيث تطئن النفوس المؤمنة ﴿ فِي  
 مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٥٥... حيث يتجلى عليهم ﴿ الرَّحْمٰنُ  
 ﴾: ﴿ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾ بمثل ما تجلى به على عرشه ابتداءً ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلٰى  
 الْعَرْشِ اُسْتَوٰى ﴾ طه: ٥ .



﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾  
**هذا بيني وبين عبدي**



## ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

هذا بيني وبين عبدي

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ه .. هما الكلمتان

المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين .. فنصفهما له تعالى وهو "إِيَّاكَ

نَعْبُدُ" .. ونصفها الآخر لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

مر بنا ما رواه الإمام بن كثير عن بعض السلف قوله "إن الفاتحة سر

القرآن وسرها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وجاء في مدارج

السالكين للإمام بن القيم "وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع والثواب

انتهى إلى هاتين الكلمتين .. وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل: أنزل

الله مائة كتاب وأربعة كتب، جميع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن وجمع

معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع

معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ .

إن الآية الكريمة ككل آيات الله تحمل من المعاني والدلالات ما يفوق

التصور، وما يفوق الحصر والاحتمال .. ولكنها "أي الآية الكريمة" بما ذكر

عنها في الحديث القدسي، وبما انتهى إليه بعض السلف من أنها سر الفاتحة



التي هي سر القرآن، وبأن جميع المعاني تصب فيها .. تجعلنا نحاول بقدر  
الوسع والطاقة أن نتلمس الكثير من فيض عطائها، وظلال معانيها ..  
- ولأجل ذلك سوف نحاول اقتفاء هذه المعاني والدلالات من خلال  
البحث والتتبع لكل سر من أسرارها المتاحة لنا، من ذلك.  
أولاً: سنحاول بحث سر النظم فيها .. أي سر تقديم مفعولي نعبد، ونستعين  
على فعليهما .. وكذلك سر تقديم العبادة على الاستعانة.  
ثانياً: البحث في سر الالتفات من الغيب إلى الخطاب، وسر إطلاق  
الاستعانة، وكذلك سر العدول من صيغة الأفراد إلى صيغة الجمع.  
ثالثاً: بيان سر الصرف في الفعلين:

رابعاً: البحث في سر تكرار "إِيَّاكَ" حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ .. ولم يقل "إياك نعبد ونستعين" ..

أولاً: النظم:

1) تقديم مفعولي نعبد ونستعين على فعليهما:

يقول العلماء: التقديم لقصد الاختصاص .. والمعنى: نخصك بالعبادة  
ونخصك بالاستعانة .. فلا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، وهو نظير قوله

تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ الزمر: ٦٦ .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل يحتاج المولى سبحانه وتعالى إلى هذا  
التأكيد بالاختصاص؟ .. وبصيغة أخرى: هل من الممكن أن يعبد سواه أو  
يستعان بغيره؟.

نعم .. ثَمَّةَ بشر لا يعبدون ولا يتعبدون .. ملاحدة لا دين لهم .. أو حتى

هم كسالى لا يطيقون العبادة .. هم لا يدخلون في حيز ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

## نَسْتَعِينُ﴾

إذن .. فما فائدة الاختصاص فيمن يؤمنون بالله ويعبدونه ويستعينون به؟  
يشير تقديم الضمير هنا على الفعل، وهو من أساليب التوكيد  
والاختصاص، إلى أن الفعل سيحصل بكل الأحوال، العبادة والاستعانة سواء  
لله أو لسواه .. وتقديم الضمير الذي يشير إلى الله عز وجل على الفعل يعني  
ويقدم ربطا مستحكما لهذا الفعل بالله عز وجل على وجه الحصر والتحديد.

إن معنى العبودية ومعنى الاستعانة أوسع بكثير من مفهومنا المألوف  
والمعتاد .. إن فعل "عبد" الذي يفيد التذلل والخضوع، يفيد أيضا معنى  
الطريق الذي يُعَبَّدُ بأقدام الناس .. إذن فالمعنى الأعمق هنا والأشمل هو إعادة  
التعبيد والتشكيل .. أي تتشكل كما يريد معبودك.

**هذا هو جوهر العبادة .. أن تكون كما يريد معبودك أن تكون ..** وحيثما  
يريد أن تكون .. وأينما يريد أن تكون .. لا يتعلق الأمر فقط بالوجدان في  
شعائر معينة وأوقات معينة فحسب .. أي لا يتعلق فقط فيما يفهمه عن العبادة  
فيحصرها في صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة .. لا .. المعنى أوسع بكثير  
.. المعنى أن تتشكل بالكلية بالبدن والجوهر والكيان والمضمون كما يريد  
معبودك .. وهي عملية لا تنتهي عند عمر معين، ولا تقف عند حد معين ..  
بل هي تستمر دوما.

**العبادة ..** بذلك تجمع بين أصليين: غاية الحب .. بغاية الذل والخضوع ... فمن أحببته ولم تكن خاضعا له .. لم تكن عبدا له ... ومن خضعت له بلا محبة.. لم تكن عبدا له حتى تكون محبا خاضعا.

والشخصية الإنسانية في حقيقتها ونموها ونضوجها كله هي نوع من أنواع التعبد .. ذلك لأنها أي "الشخصية الإنسانية" تتقوّل بشكل القلب الذي توضع فيه، خاصة في مرحلة الطفولة .. "القوالب" .. هنا تعني العادات والتقاليد الاجتماعية، أو ثقافة معينة، أو حضارة معينة، أو دينا بعينه.. إنه قالب معين تتشكل من خلاله .. إنه التعبد في جوهره حيث تحدث عملية التشكل تلقائياً دونما إذن مسبق .. تماما مثل عمليتي الشهيق والزفير .. التشكل إذن يحدث بكل الأحوال عبر قوالب توفرها البيئة والمجتمع والثقافة والإعلام .. قد تكون قوالب عالمية تتخطى الحدود والقارات، وتنتهي لحضارة كاسحة منتصرة .. وقد تكون قوالب محدودة بمكان وإقليم .. وقد تكون فكرا أيدلوجيا معينة .. أو مذهباً دينيا معينة .. أو فلسفة معينة أحيائها شخص ما ولم يكن لها أثر في بيئته الأولى .. وقد تكون قوالب قُسرَ أو قُهرَ عليها.. ولم يدرك أنه أُفسِرَ أو أُفهرَ عليها.

هذا التشكل وآلياته هو في حقيقته جوهر العبادة إذا عدنا إلى جذرها اللغوي حتى لو لم يكن هناك شعائر وطقوس بالمعنى المتعارف عليه.

وكما يقول الدكتور العمري: " فلنسجل هذا كله ولنقرأ الآن للمرة الأولى

بعد كل ما كان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .. أصب نفسي في القلب الذي تحدده أنت

.. مادام لا مفر من القوالب، ما دمت أتشكل بطريقة ما عبر القوالب المحيطة،  
فإني لن أجد نفسي إلا في القالب الذي حددته أنت لي "

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الأعلى: ٢ - ٣ .

مادام التشكل عبر قالب ما حتمي ويجري في كل لحظة، فإنني أستبق  
ذلك، أستبق الفعل وأخصك أنت يا رب العالمين لكي أتشكل كما تريد .. فأنت  
﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ ومن ثمَّ "فَهُوَ يَهْدِينِ" الشعراء: ٧٨.. هذا هو قوام "إِيَّاكَ  
نَعْبُدُ" .

اختار عبوديتي لك لأن فيها وحدها أستطيع أن أتححر من كل العبوديات  
الأخرى الزائفة التي تصم آذاني، وتعمي بصري، وتضع الران على قلبي ..  
أتححر من عبودتي لذاتي، وشهواتي، ورغباتي، وهواي.. ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ  
إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً  
فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ٢٣ .

أتححر من عبوديتي لغيري .. أعرافا كانت .. أو أنظمة .. أو مذاهب ..  
أو أيولوجيات متغيرة .. شركاء متشاكسين تكبلني وتعوقني عن التفاعل مع  
سلامة الفطرة .. ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا  
سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩

عبوديتي لك إذن يا رب .. هي حريتي الممكنة .. حريتي الوحيدة التي

هي الحرية الحقيقية .. لذا: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ".

وأما عن "الاستعانة" وهي طلب العون، والذي يعني في لغة العرب

الظهير... ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

الكهف: ٩٥ .

فالعامل الأساس كان يقوم به ذو القرنين، لكنه طلب من الآخرين أن

يعاونوه في الأمر .. أي أن يكونوا له الظهير .. وموسي عليه السلام ..

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ القصص: ١٧ ..

أي لن أكون عوناً لهم.

طلب الاستعانة يعني بالتعريف أننا نقوم بشيء "ما" .. أن هناك فعلاً "ما"

نقوم به .. هذا الفعل يحتاج لأجل إنمائه إلى ظهير وإسناد.

ما هي حقيقة هذا الفعل الذي نطلب العون عليه؟.

حقيقته تكمن في "الاستخلاف" .. ليس أن تكون كدادود وسليمان وذوي

القرنين وعمر .. أو أن تكون رئيس دولة .. أو تكون رئيساً أو عضواً في

هيئة "ما" كبرى ... كلا .. الأمر لا يتعلق بالأمر الوظيفي بقدر ما له علاقة

بفهم التوصيف الوظيفي الذي استخلفنا على أساسه .. بائعة اللبن التي رفضت

مزج اللبن بالماء .. وسمعتها الخليفة عمر في الحادثة المعروفة .. كانت هي

الأخرى تمارس "الاستخلاف في الأرض" رغم أن وظيفتها كانت "بائعة لبن"

الاستخلاف إذن .. يسكن كل المهام، بشرط أن تؤدي معنى الاستخلاف

فيها، ما دمت تؤدي وهدف إحقاق الحق وإقامة العدل منتصب أمام عين من

يؤدي المهمة .. إنه ليس أن تكون أبا جيدا .. أو صاحب معمل جيدا .. أو مصرفيا جيدا .. بل أن تكون إلى جانب تلك الإجابة والجودة واعيا لدورك في الاستخلاف .. أي شيء دون هذا الفهم .. دون وجود روح الله في عملك .. سيجعلك مجرد طبيب ماهر أو مهندس حاذق، يمكن لأي منتقم لدين آخر لا يضم هذه المعاني أن يكون ذلك، بل يمكن لأي ملحدٍ ديني أن يكون كذلك.

إذن فالأمر مختلف .. إنه ليس عمل الصالحات فحسب .. بل فعل الصالحات ضمن الإطار الشامل للتوصيف الوظيفي الأساس .. أن تكون خليفة .. أن تؤدي ما تؤديه وأنت مؤمن بدورك، مؤمن بالذي كلفك بهذا الدور .. بشكل يصب تلك "الصالحات" في سياق إطارها .. في سياق نيتك .. وفي سياق تكليفك .. ولذلك فقد كان الربط الدائم في القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح .. إذ لا معنى لعمل صالح، ما لم تكن مؤمنا أنك مكلف به .. لا معنى لعمل صالح ما لم يكن في الإطار الذي تؤمن أنك خلقت من أجله.

وكما أن "العبادة" تجمع بين أصلي غاية الحب وغاية الذل والخضوع .

فإن "الاستعانة" تجمع بين أصليين .. الثقة بالله، والاعتماد عليه... فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغناؤه عنه .. وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ولعدم ما يقوم مقامه .. فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به ..

لأجل ذلك يا رب.. "استعين بك" .

- وعلى بعد آيات قليلة وعلى مسافة غير بعيدة من طلب العون في الفاتحة .. يأتي الرد الإلهي ليحدد مقام وموضع طلب العون .. في سورة البقرة آية 153

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

لماذا الصبر والصلاة ؟ !.. الصلاة بمفهومها الواسع العميق الذي يجعل منها دورة تدريبية لإعادة بناء وتشكيل العالم على أسس أكثر عدلا وتوازنا .. والصبر كنبذة الصبار، التي تتحدى الجذب والجفاف والعطش لتقتنص فرص الحياة عبر صمودها، أقوى أمثلة الإيجابية .. إنه صبر المثابرة والدأب .. ليس صبر الانتظار المرادف لليأس والقنوط

الصبر والصلاة معا يعنيان استحقاق المعونة .. ﴿ وَأَمْرًا هَلَّاكَ بِالصَّلَاةِ

وَأَصْطَبِرُ عَلَيْهَا ﴾ طه: ١٣٢ .. الصبر الذي يجعل الانتكاسات والنوائب ألما عارضا عابرا .. قد تكون عملية صعبة كبيرة يقررها النص القرآني في سورة البقرة أيضا ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥ .

وكانت هذه أول الآيتين .. ومن ثم فقد اجتازوا العقبة وبشرهم المولى في موطن الآية الثانية ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣ ... أي أن العون الإلهي قد جاء فعلا وحقا .. لكن جاء بعد مرور طلب العون بمرحلة هامة معينة تبين فيها جديته وحصول استحقاقه عن طريق مركب "الصبر والصلاة" معا .. وهكذا تكون "إياك نستعين".

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الكلمتان المقسومتان بين الرب

وبين عبده نصفين .. إذن تعنيان بالكلية التبرؤ من الشرك والتبرؤ من الحول

والقوة وتفويض الأمر لله عز وجل، وقد ذلك على الطريق والوسيلة من خلال  
"الصبر والصلاة" معا

- هاتان الكلمتان اللتان نصفهما الله ونصفهما للعبد لهما ثمرة عظيمة

تفصي إلى معنى التوكل وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ..  
هذان الأصلان وهما "التوكل والعبادة" .. قد ذكرا في القرآن في مواضع  
كثيرة قرنت بينهما .. منها

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ الملك: ٢٩ .

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ الرعد: ٣٠  
- مازال عطاء الآية الكريمة متواصلا .. إن الرسم القرآني أو المصحفي أو  
العثماني - وكلها مسميات صحيحة - في رحاب النظم له ضلاله وجلاله ..  
انظر إلام يشير إثبات ألف ﴿إِيَّاكَ﴾ صراحة في وسط الكلمة في جميع  
سياقاتها القرآنية .. غير أنه حينما تكلم المولى عن نفسه بلفظة ﴿وَإِنِّي﴾  
حذفت هذه اللألف رسما في مواطنها الأربعة التي وردت فيها.. وهي على  
الترتيب ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ البقرة: ٤٠ .. ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٤١ ..  
﴿فَأِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ النحل: ٥١ .. ﴿فَأِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ العنكبوت: ٥٦ .

بِمَ يوحى ذلك من الإشارات ؟ أقول والله أعلم: إن المولى حين يتكلم عن  
نفسه يكون الحذف لرسم الألف وسط الكلمة ﴿وَإِنِّي﴾ دليلاً على تثبيت



أحديته سبحانه وتعالى .. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا  
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ  
 ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

الأنعام: ١٠٢ - ١٠٣ .

ليس بدلالة ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ نصا فقط .. ولكن بدلالة الرسم  
 بحذف الألف في ألفاظ "ذَلِكُمْ"، الله، إِلَهَ، خَلَقَ، وَالْأَبْصَارُ" إضافة إلى  
 التوكيد بالجملة الاسمية والقصر، وختام الآيتين .. وكل ذلك يزكي معنى هذه  
 الأحذية.

- أما حينما يكون الكلام صادرا عن العباد فيكون معه إثبات الألف في  
 وسط الكلمة ﴿إِيَّاكَ﴾ دليلا على وجود فاصل بين الله وخلقه، وخطأ  
 نظريات الحلول .. وأن الله أحد وأنه الواحد، وأنه الحي القيوم، وأن كل من  
 عليها فان: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٢٧ .. ويدل من  
 طرف آخر على أن العبد بالعبادة يسمو.. وبالاستعانة يرقى.

"الإيقاع الصوتي" .. أيضا في رحاب النظم يدل على ذلك .. فلفظة

﴿إِيَّاكَ﴾ من حيث هذا الإيقاع الصوتي تشير إلى استجماع القصد الوجودي  
 من العبد لإله معبود بحق، ورب مستعان به بحق.

فـ "كاف الخطاب " .. المفتوحة في ﴿إِيَاكَ﴾ .. تشير إلى العلو  
والسمو للرب العلى العظيم .. والألف المكسورة الهمزة .. في اللفظة ذاتها  
﴿إِيَاكَ﴾ هي رمز الانكسار عبودية وخضوعا وسجودا لله تعالى .. والياء  
المشددة فيها .. هي رمز لتحمل ميثاق الإيمان والشهادة من العباد في عالم  
الذر من عالم الغيب .. وتحمل ميثاق الإيمان والإقرار في عالم التكليف ..  
والألف البينية المنتصبة إلى أعلى في ﴿إِيَاكَ﴾ .. هي رمز الرحلة  
الإيمانية من أهل التراب .. سموا إلى رب العرش الكريم.. من العبد إلى الله  
العالى العظيم.  
وبين إطلاق الألف الوسطية .. وكاف الخطاب المفتوحة قاب قوسين أو  
أدنى .. يشير إلى وصول المقصد إلى حضرة الرب سبحانه وتعالى ... ولكل  
نصيبه من القرب أو البعد بحسب درجة العبودية ودرجة الاستعانة.

الألف المكسورة في "إِيَاكَ" .. والياء المشددة .. والألف الصاعدة  
الراغبة حتى بلوغ الكاف المفتوحة كأنها رموز لقوله تعالى:

﴿يَتَّئِبَهَا الْإِنْسَانُ  
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ  
رَبِّكَ كَدْحًا  
فَمُلْقِيهِ﴾  
إِ يَّ ا ك

## 2) تقديم العبادة على الاستعانة ..

تقديم " العبادة " على " الاستعانة " كما يقول ابن القيم .. من باب تقديم "الغايات" على "الوسائل" .. إذ "العبادة" غاية العباد التي خلقوا لها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦... و"الاستعانة" وسيلة إليها .. ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته واسمه "الله" و ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه "الرب" فقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ " على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. كما قدم اسم "الله" على "الرب" في أول السورة<sup>(1)</sup>.

- ولأنهما أي ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين .. فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب وقد عبر عنه في الحديث القدسي بقوله "بيني" ابتداءً منه سبحانه وتعالى .. فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله لكونه أولى به .. ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد .. وقد عبر عنه بقوله " وبين عبدي " تالياً .. فكان من الشطر الثاني الذي هو ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر

1- مقصد " الحمد لله رب العالمين "

السورة.. فالعبادة حق الله وقسمه .. والاستعانة قسمُ العبد، وحق الله أولى بالتقديم ..

كما أن "العبادة" أكثر مناسبة للجزاء .. أعني قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ

الدين﴾ و"الاستعانة" أنسب لطلب الهداية اعني ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فوضع كل تعبير مع ما يناسبه...

- ولأن "الاستعانة" جزء من "العبادة" من غير عكس .. وكذلك لأن "الاستعانة" طلب منه .. و"العبادة" طلب له .. فقدم "العبادة" على "الاستعانة" - ولأن "العبادة" لا تكون إلا من مخلص .. و"الاستعانة" تكون من مخلص وغير مخلص.

- ولأن "العبادة" هي حق الله الذي أوجبه عليك .. و "الاستعانة" هي طلب العون على العبادة وهي بيان صدقته التي تصدق بها عليك .. فأداء حقه أهم من التعرض لصدقته

- ولأن "العبادة" هي شكر نعمته عليه .. والله يحب أن يشكر .. و"الإعانة" فعله بك وتوفيقه لك .. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقبها .. أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقبها سببا لنيل الإجابة، وكلما كان العبد أتم عبودية .. كانت الإعانة من الله أعظم ..

- و"العبودية" محفوفة بإعانتين: "إعانة" قبلها على التزامها والقيام بها، و"إعانة" بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه ..

ويوضح ذلك في الحديث القدسي الذي رواه البخاري حيث يقول ﷺ: فيما رواه عن ربه " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

" قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" رواه البخاري<sup>(1)</sup>.

- وكما أن "الاستعانة" هي ثمرة العبودية .. ولا يتأتي ذلك أن "العبادة" مما يستعان عليه أيضا بالله ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضي له عز وجل .. لا منافاة بين الأمرين .. لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى .. "فالعبادة" .. تكون سببا للمعونة من وجه .. و"المعونة" تكون سببا للعبادة من وجه آخر .. وكذلك الأعمال تطبع الأخلاق في النفس، ثم تكون الأخلاق مصادر الأعمال .

### ثانياً: (1) سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

يقول صاحب الكشاف: "إن العبد إذا افتتح مولاه بقول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الدال على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرك للإقبال عليه سبحانه .. فإذا انتقل إلى قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الدال على ربوبيته لجميعهم قوى تحركه، فإذا قال ﴿ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴾ الدال على أنه المنعم بأنواع النعم جليها

<sup>1</sup> - البخاري - باب التواضع ج 5 ص 2384.

ودقيقها، تزايد التحرك عنده .. فإذا وصل إلى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو خاتمة الصفات الدالة على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، وجد من نفسه حاملا، لا يقدر على دفعه، على خطاب من هذه صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويضيف الباحث أن النظم الفريد للسورة الكريمة يعزز ذلك تماما .. فالآيات الأولى حتى قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. تمثل تمام التعريف للمعبود على سبيل الخبر اليقين دون استعمال لحرف العطف "الواو" سواء بين هذه الآيات أو بين نهاية التعريف ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. وبين بداية الاستحقاق في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لكمال الاتصال، حيث يقوى الاتصال ويشد فلا يحتاج إلى هذه الأحرف من العطف .. أو إلى سبيل الإنشاء والطلب في النظم .. بينما ظهر العطف مع بداية الاستحقاق في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وظهر الإنشاء في التماس الطلب ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

وكان فاصلة ما بين تمام التعريف والاستحقاق تقول: ها هو تعريفي كما تقدم لك .. أيها الخليفة .. ﴿وَأَنَا أَحْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ﴾ طه: ١٣ - ١٥ .. وإذا بضرورة

السعي وضرورة الاستحقاق الفطرية بخطاب التكليف تستحضر العبد أمام سيده ومولاه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ الأنبياء: ٨٧.. أنت مقصودي ورضاك مطلوبي .. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

- ومنها أنه سبحانه وتعالى لما وصف بأنه "رَبِّ الْعَالَمِينَ" .. عُلِمَ أنه حاضر في كل مكان وزمان، وليس غائبا .. وذلك لأنه رب العالمين، فلا يغيب عنهم ولا يغيبون عنه .. فلما عُلِمَ حضوره، نُودِيَ ببدء الحاضر المخاطب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وفي هذا توطئة للدعاء والسؤال ﴿أَهْدِنَا﴾ .. حيث الطلب من الحاضر أقوى من الطلب من الغائب..

- وقيل: إنه لما كان "الحمد" دون العبادة في الرتبة واختير للحمد الغيبة .. ناسب ذلك أن تكون العبادة مع الخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .. لينسب إلى العظيم حالة المخاطبة والمواجهة .. كما أن "الحمد" مدح .. والبلاغة والإخلاص فيه الغيبة .. و"الاستعانة" طلب والتماس .. والبلاغة فيه الخطاب..

- وقيل إن سر الالتفات هو أن مبدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه وتعالى، وقصورهم عن محاضرتهم ومخاطبتهم، وقيام حجاب العظمة عليهم، فإذا عرفوه بما هو له وتوسلوا للقرب بالثناء عليه، وأقروا بالمحامد له،

وتعبدوا بما يليق به .. تأهلوا لمخاطبته ومناجاته .. فقالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ .

- وسمعت من أحد الصالحين يقول: إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

بعد قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تسليم أمين للمعنى في غاية الاستيفاء والاصطفاء.. تسليم تحوطه البركة .. فإن بركة الآخرة أعظم من بركة الدنيا .. فإنها باقية موصولة بغاية الغايات، وأبعد المقاصد، وخيرها "يوم الدين" بالشهود الأكبر للمتقين ناظرين إلى وجه الرب ذي الجلال والإكرام .. ذلك أن مقام وموضع الحمد والثناء على الله كان في دار الدنيا .. و﴿مَلِكِ يَوْمِ

الدِّينِ﴾ ارتحال من بقايا الدنيا مع الإشراف على أول منازل الآخرة .. ومن ثم الارتقاء والتجلي إلى ذلك الشهود الأكبر، والذي عبر عنه شهود وتجلي السياق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وكأننا مع آخر حرف، أو

آخر غاية في ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ نطل على الدنيا من أعلى شرف الآخرة "شرفة الحضرة الإلهية والشهود الرحماني" .. تتجلي معه "الحضرة والشهود القرآني" لرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .



## (2) سر إطلاق الاستعانة:

حيث قال: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلم يقل نستعين على كذا كقول نستعين على العبادة، أو نستعين على الطاعة، أو ما إلى ذلك .. وذلك لأنه أراد إطلاق الاستعانة لتشمل كل شيء يريده الإنسان، ولا يخصها بشيء .. فهو يستعين بالله على العبادة، وعلى طلب الرزق، وعلى النصر على الأعداء، وعلى أن يبسر له أمره، وعلى أن يقضي الله حوائجه .. فتشمل كل أمور الدنيا والآخرة ... ولو خص الاستعانة بالعبادة والطاعة، لبقى حكم الاستعانة في غيرها مجهولاً.

- جاء في روح المعاني: " في سر إطلاق الاستعانة .. فقيل: ليتناول كل مستعان فيه، فالحذف هنا مثله في قولهم "فلان يعطى" في الدلالة على العموم .. وأيضاً لو كان المراد الاستعانة به وبتوقيه على أداء العبادة لبقى حكم الاستعانة في غيرها غير معلوم في أم الكتاب.. وهي أم الكتاب .. كما توضح أيضاً أن الاستعانة بالله يجب أن تكون في كل شيء، وأما الاستعانة بالناس مما هو في استطاعة الناس من قبيل الأسباب المسنونة.

## (3) سر العدول من الأفراد إلى الجمع

حيث لم يقل: "إياك أعبد وإياك أستعين" .. ذلك أن الالتفات بنون الاستتباع كما جاء في نظم الدرر، إشعار بأن العبادة بنيت على الاجتماع .. وذلك إشارة إلى أهمية الجماعة في الإسلام.. فالدين الإسلامي ليس ديناً فردياً، بل هو دين جماعي، وهو سر من أسرار الاستخلاف للإنسان في الأرض

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

النور: ٥٥... ومبعث على التعاون ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ المائدة: ٢.  
ومعظم العبادات قائمة على الجماعة .. فصلاة الجماعة تفضل صلاة

الفرد بسبع وعشرين درجة .. ولذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ النساء: ١٠٣... حيث تحت الآية الكريمة

على التزام الجماعة في الصلاة لأنها عنوان الإسلام، فقله ﴿ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالجمع محصور بين قوسي الصلاة الواحدة بالإفراد قبلها

والكتاب الموقوت أيضا بالإفراد بعدها .. فليست المساجد إلا مظهرًا من  
مظاهر الجماعة .. وهذه السورة التي يتردد ذكرها في كل ركعة من الصلاة

فيها إشارات إلى أهمية الجماعة .. نلمس ذلك في ألفاظ نَبَدُ، وَنَسَعِيْتُ،

و أَهْدِنَا.

وانظر إلى خطاب الجماعة أيضا في الصيام ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٨٣... وهكذا الخطاب في سائر العبادات، ومنها الحج ..

والزكاة والصدقات من أكبر مظاهر التكافل الاجتماعي، والجهاد من شئون  
الجماعة، وتعيين الأعياد، ووجوب الإفطار فيها فلا يشذ فرد واحد عن

المجتمع من أكبر مظاهر الجماعة .. وعبادة المرضى أمر جماعي .. وغير ذلك من مظاهر الجماعة .. جاء في تفسير الرازي: " إن المؤمنين أخوة، فلو قال: "إياك أعبد " لكان قد ذكر عبادة نفسه ولم يذكر عبادة غيره .. أما لما قال: "إياك نعبد " كان قد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين، شرقا وغربا، فكأنه سعى في إصلاح مهمات المسلمين" .. هذا عن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .. وأما ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث قرنت العبادة بالاستعانة ليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله وتوفيقه، ولا ينهض إلا بالتوكل عليه .. فهو إقرار بالعجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة، إذا لم يعنه الله على ذلك .. فالاستعانة بالله علاج لغرور الإنسان وكبريائه، وهما داءان قتالان .. وليجمع أيضا بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته.

ويضيف الباحث .. بأن فيها إشارة لبيان أنه ما دامت الثمرة العظيمة للعبادة في الجماعة كان ذلك من باب أولى في الاستعانة .. وفي هذا حض وحث للإنسان بأن يكون في معاملاته بمثل ما يكون في عباداته، فكأنما الحياة كلها بالنسبة إليه على امتدادها مكانا وزمنا وأحداثا "مسجده الكبير"

### ثالثاً: سر الصرف في الفعلين:

وأعني كون الفعل "نَعْبُدُ" مجردا .. وكون الفعل "نَسْتَعِينُ" مزيدا بأحرف الطلب .. أقول والله أعلم: إن تجرد الفعل "نَعْبُدُ" دليل على فطرية

التوحيد والعبودية في نفس الإنسان ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ  
اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم: ٣٠ .

وأما زيادة فعل الاستعانة فهي دليل على الانفعال الطلبي والحركي لهذه  
النفس بطلب المزيد من العون في كل الأمور وأخصها العبادة .. فهناك مثير  
هو "تعبد" .. وهناك مستجيب وهو "تستعين" .. ولعل جوهر العبادة والاستعانة  
يكمن في دعاء الاستفتاح الذي نستهل به الصلاة، حيث جمع بين دعاء أبي  
الأنبياء إبراهيم قرب منتصف سورة الأنعام حيث أعلن براءته من كل ألوان  
الشرك متوجها إلى فاطر السموات والأرض ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي  
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام:  
٧٩... وبين دعاء سيد الأنبياء محمد ﷺ قرب خواتيم السورة ﴿ قُلْ إِنْ  
صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ  
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣ .

وذلك جوهر العبودية وجوهر "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" وكانت قنطرة التواصل  
المشتركة بين أبي الأنبياء وسيد الأنبياء هي قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا  
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١... وذلك جوهر الاستعانة وجوهر:  
﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

## رابعاً: سر تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾:

درج العلماء على القول في سر تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾ أنها للتخصيص على طلب العون منه تعالى، فإنه لو قال سبحانه "إياك نعبد ونستعين" لاحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون من غير أن يعين ممن يطلب .. وقيل: لو اقتصر على واحد ربما توهم أنه لا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالجمع بينهما .. والواقع خلافه .. وقيل: إن في تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾ من الاهتمام والقوة ما ليس في الحذف.

هذا هو مجمل ما دارت عليه أقوال العلماء في سر تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾ والأقوال جميعها لها وجاهتها ومغزاها في بيان دلالة الاختصاص .. - ويضيف الباحث بأن الآية الكريمة كشأن كل آيات الكتاب الحكيم - مازال عطاؤها يتجدد ومددها يفيض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٠٩ .. ولا ننس أن هذه الآية تحوى الكلمتين المقسومتين بين الرب وعبده نصفين، نصفها له تعالى وهو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفها لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وهي الآية التي روى ابن كثير عن بعض

السلف قولهم فيها "إن الفاتحة سر القرآن، وسرها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ﴾ .

- إن من يعيد أو يكرر قراءة أم القرآن، سائلا المولى سبحانه أن يمنحه  
عون التفكير والتدبر لآيات السورة الكريمة فسوف يلمح ثم يدرك أن للسورة  
نهرين أو بحسب التعبير القرآني بحرين من المعاني يلتقيان .. وفي ذات  
الوقت بينهما برزخ لا يبغيان .. سبحانه وتعالى جل شأنه .

إن هذا التعبير القرآني لا يوضح ولا يبين ولا يكشف السر في تكرير  
"إياك" فقط .. بل إنه فضلا عن ذلك يفصل الأمر في كثير من قضايا العقيدة  
التي تبنى على الربط .. وكذلك الفصل بين العبودية والاستعانة .. وسيأتي  
بيان ذلك بإيجاز في الصفحات التالية.

- فلنقرأ معا آيات أم الكتاب آية بآية .. مع الوقف هنيهة عند مقاطع  
المعاني لكل آية على حدة، وذلك لتدبر أسرار النظم والتقسيم التي يشير إليها  
مجرى هذين البحرين من المعاني .. ولسوف يتبين بعد هذه القراءة المتأنية أن  
هذه المقاطع من آيات أم الكتاب.

"الْحَمْدُ لِلَّهِ - الرَّحْمَنِ - مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ - إِيَّاكَ نَعْبُدُ " .. تمثل نهر  
المجرى الأول للمعاني الذي تتجلى فيه معاني الإلوهية والعقيدة والعبودية ..  
وسوف يتبين أيضا أن هذه المقاطع الأخرى من الآيات " رَبِّ الْعَالَمِينَ -

الرَّحِيمِ - إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ - أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .. تمثل نهر المجرى  
الثاني للمعاني ويتجلى فيه بالمقابل معاني الربوبية والشريعة والاستعانة .

- ولقد سبق أن بينا فروق المعاني والدلالات بين قوله تعالى " الرَّحْمَنِ "

وهو الأقرب إلى معاني الألوهية .. وبين قوله " الرَّحِيمِ " وهي الأقرب لمعاني

الربوبية بالأدلة والبراهين عند الكلام على دلالة " الرَّحْمَنِ " على القوامة والعدل

.. وكذلك دلالة " الرَّحِيمِ " على العطاء والفضل في مباحث ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. فلا حاجة إلى التكرار .. فقط أضيف بعض الأدلة التي  
تزكي معاني هذين البحرين:

- فعن مجرى وتيار البحر الأول: بحر الإلوهية والعقيدة والعبودية ..

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ الإسراء: ١١٠ .. حيث جاءت

" الرَّحْمَنَ " بديلا اختياريًا عن الله .. ويقول ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٦٣ ..

ويقول: ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴾

مريم: ٩٣ .

كلا الشاهدين يربطان بين العبودية وكونه سبحانه وتعالى " الرَّحْمَنِ " ..

ويقول تعالى: ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٢٦ .. حيث يكون ربط

دلالة الملك للرحمن .. ويقول تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ حيث يكون ربط دلالة الملك لله.

- وعن مجرى وتيار البحر الثاني: الربوبية والشريعة والاستعانة ..

يقول تعالى في الربط بين كونه رب وكونه رحيم ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ يس: ٥٨ .

وعن الربط بين كونه ربا وكونه مستعانا به ﴿قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ١١٢ .. وكذلك ما جاء على لسان ذي القرنين ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ الكهف: ٩٥ .

وعن الربط بين الهداية والربوبية يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه: ٥٠ .

وعن الربط بين هداية الصراط المستقيم والربوبية .. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا﴾ الأنعام: ١٦١ .

أرأيت كيف تجرى وتتوزع المعاني التي أثمرت فأخرجت ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ .. حين استبان لنا كيف أن معاني "الإلوهية والربوبية" ومن ثم "العقيدة والشريعة" .. ومن ثم "العبودية والاستعانة" .. يجريان في هذين البحرين يلتقيان .. وفي ذات الوقت بينهما برزخ لا يبغيان.



فإنحاول أولاً أن نتبين معنى أنهما يلتقيان .. ثم نوضح كيف أن بينهما  
برزخا لا يبغيان.

### أولاً: دلالة أنهما يلتقيان:

كثير من الآيات القرآنية تربط بين كونه "الله" وكونه "الرب" في سياق  
واحد .. من ذلك قوله تعالى في أم الكتاب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ..  
﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ  
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ المؤمنون: ١١٦ .  
ومن ثمَّ فإنَّ المقامين أو البحرين يلتقيان .. فالألوهية نواة الربوبية،  
والربوبية ظل الإلوهية .. وبين نواة العقيدة، وظلال الشريعة يتقلب العبد  
ويتحرك .. وبين العبودية والاستعانة يتحقق الربط بين الإيمان الصحيح  
والتقوى الصادقة .. فالانتقال من العقيدة والشعيرة إلى الشريعة والتوجيه هو  
انتقال من جزئية من جزئيات الدين مقامها العبودية إلى جزئية أخرى منه  
مقامها الاستعانة .. وذلك كله داخل المحيط العام الذي هو في مجموعته  
"الدين" ..

ومن ثمَّ فإنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي قوام الدين وفحواه  
ونواته.

ومن ثمَّ أيضاً فإنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تستوعب القرآن كله  
مكيه الذي يركز على العقيدة .. ومدنيه الذي يركز على الشريعة .

مفهوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. إذن يعني أن المدلول الحقيقي للإيمان هو تحكيم الشريعة والتحاكم إليها .. فالأولى غاية تستتبعها العبودية .. والثانية وسيلة يستتبعها قصر الاستعانة عليه .. ومن ثم فإن العقيدة هي التيار الجاري الذي تستتبت على شاطئيه أحكام الشريعة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إذن هي بإيجاز ترسم إطار الحركة بين مقامي "الألوهية والربوبية" داخل السورة الكريمة .. وهما البحران اللذان يلتقيان في النفس المؤمنة الموقنة المطمئنة حيث يخرج منها اللؤلؤ والمرجان.

هذان النهران اللذان ينطلقان من الكلمتين المقسومتين بين الرب وعبده .. وفي ذات الوقت هما سر الفاتحة كما قرر ابن كثير  
هما .. "تعبدك إلهنا رحمانا مالكا ليوم الدين"  
و"تستعين بك ربا رحيمًا هاديًا إلى الصراط المستقيم"

وثمرتهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هذين النهرين.

### ثانيًا: دلالة أن بينهما برزخا لا يبغيان:

تأمل ارتباط الخلق بين اسمه سبحانه وتعالى "الله"، واسمه "الرب" .. كيف نشأ عنهما الخلق .. وكيف جمعا الخلق وفرقتهم .. فلها الجمع ولها الفرق .. فاسم "الرب" له الجمع الجامع لجميع المخلوقات .. فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره .. فاجتمعوا له بصفة الربوبية .. وافترقوا بصفة

الإلهية: فألهه ووحدته السعداء، وأفروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تتبغى العبادة، والتوكل، والرجاء، والخوف، والحب، والإنابة، والإخبات، والخشية، والتذلل، والخضوع .. إلا له..

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير .. وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقهم كما أن الربوبية هي التي جمعهم .. وهذا هو

الذي بينهما ﴿بَرَزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾

**ثالثاً: ثمرة الجمع بين "يلتقيان" وبينهما برزخ لا يبغيان":**

الثمرة هي أن يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .. ما هو هذا اللؤلؤ والمرجان؟ لقد انقسم العباد تحت هذين الأصلين "العبادة والاستعانة" إلى أربعة أقسام: أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة معا .. فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها .. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لربه معاذ بن جبل رضى الله عنه فقال:

" يا معاذ والله إني لا أحبك.. فلا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " (1).. فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته .. وأفضل المواهب: إسعافه بالمطلوب .. وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. ويؤكد الباحث على ذلك بدعاء أحد العارفين " اللهم أنت مقصودي ورضاك

1 - المستدرك - المجلد الأول ج 1 ص 273.

مطلوبي" فإن مقصوده يتجلى في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ورضاه مطلوب فيهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤالك العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهؤلاء هم من يحصدون "اللؤلؤ والمرجان" .. فلقد أوفوا بالأصلين: أوفوا بحق الله فيهم بالعبادة، وأوفوا بحق الرب فيهم بالاستعانة .. فنقلبوا بين مقام: "تعبدك إليها رحمانا مالكا ليوم الدين" .. ومقام: "ونستعين بك ربا رحيمًا هاديا إلى الصراط المستقيم".

وثاني الأقسام: وهم مقابل هؤلاء .. وهم المعرضون عن عبادته وعن الاستعانة به .. فلا عبادة ولا استعانة .. بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهوته، لا على مرضاة ربه وحقوقه ... فأبغض خلقه عدو الله إبليس سأله حاجة ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الحجر: ٣٦ فأعطاه إياها ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ الحجر: ٣٧ - ٣٨ .. ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته سبحانه تعالى، فكانت زيادة في شقوته وبعده عن الله وطرده من رحمته .. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونًا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته قاطعا له عنه ولا بد.

وثالث الأقسام: من له نوع عبادة بلا استعانة .. وهؤلاء نوعان:

أحدهما القدرية: القائلون بأن الله قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاظ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل .. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها .. بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة .. فأعان هؤلاء، كما أعان هؤلاء ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ الإسراء: ٢٠ ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان .. وأعدائه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وتعالى وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان .. وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر.

فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه .. فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد .. قال ابن عباس رضي الله عنه: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

ثانيهما: من لهم عبادات وأوراد .. ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة .. لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول .. ضعفت عزائمهم وقصرت همهم، فقل نصيبهم من ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف ..

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم ..  
ولهم من الخذلان والضعف والمهانة بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ..  
**ورابع الأقسام:** وهو من شهد تفرد الله بالنعمة والضرر، وأنه ما شاء كان،  
وما لم يشأ لم يكن .. ولم يَدْرُ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه واستعان به  
على حظوظه وشهوته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقضيت له  
وأسعف بها سواءً كانت أموالاً أو رياسةً أو جاهاً عند الخلق، أو أحوالاً من  
كشف وتأثير وقوة وتمكين .. ولكن لا عاقبة له .. فإنها من جنس الملك  
الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام فضلاً عن الولاية والقرب من الله .. فإن  
الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر .. فمن  
استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه  
المقربين .. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه،  
والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه .. فالحال من الدنيا فهو  
كالمُلك والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه  
بالمملوك العادلين البررة .. وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله  
وملحق بالمملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة

**ومن ثمرات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:**

1) القلب: يعرض له مرضان وخطران عظيمان، إن لم يتداركهما العبد  
تردى إلى التلف ولا بد: وهما "الرياء" و "الكبر" .. فدواء "الرياء" بـ

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء "الكبر" بـ "﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وقال شيخ

الإسلام ابن تيمية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء.. ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾  
تدفع الكبرياء.

(2) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تستحضر مع هذا التوجه والإقرار

تمام عهد وميثاق الذر أول الأمر والخلق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ  
مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ

شَهِدْنَا﴾ الأعراف: ١٧٢.. فبتجلى آيات القرآن في حياتنا الدنيا نستنتق

ونستفعل إقرار الإيمان والتكليف في ميثاق الحياة بعد الإقرار والإيمان

والإشهاد علينا في عالم الذر ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ

اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الروم: ٣٠ وهذا هو فحوى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وإذا أردت موقفاً واحداً جامعاً يتجلى فيه كل أبعاد ورؤى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهناك وحدها سجدة الرسول ﷺ تحت العرش يوم القيامة

سائلاً وطالبا الشفاعة لأمته .. فتلك " السجدة الحميدة الحال القدسية المقام

هي المطلوب والتحقيق الأعلى للعبادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهي الاضطرار الأشد

للاستعانة القصوى: ... ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. فمنذ ﴿وَإِذْ قَالَ

رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿البقرة: ٣٠﴾ وتتلاحق أقدار الحياة قدرا قدرا تحمل سرها إلى منتهاها مع قدر الله الأجل في ذلك اليوم الأجل في "سجدة العرش العظمى" .. وقبول الشفاعة الكبرى.

كان قد استهل الوليد "محمد" ﷺ حياته قبلها ساجدا .. ووحيا الرسول محمد ﷺ في دنياه لله ساجدا .. وتوجه محمد الشفيع في أخراه تحت العرش لله ساجدا .. في أعظم تجلٍ لمقصود ومطلوب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ..

وإذا كان السجود قمة العبادة .. فهانئا أعظم سجدة في أجمع عبادة في أجل موقف .. هي أصدق سجدة عبودية لله من أكرم ساجد لأكرم مسجود له "الله رب العالمين" ..

هي أحمد سجدة حمد فيها الرسول ﷺ فيها ربه بمحامد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .. ألهمه ربه تعالى إياها .. كأعظم مصداق للعبادة والمعونة في آن واحد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وهي أرجى سجدة تعلق فيها رجاء أهل الموقف العظيم يوم القيامة بأنوار بركاتهما وعظيم فضلها .. وهي أيقن سجدة لله .. وأحق سجدة صدقت وصادقت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهي الأقرب في التوجه لله .. وهي الأخلص في الإقبال على



الله .. إذ هي تحت عرش الرحمن الكريم .. وإذا كانت سجدة في الدنيا في ظل رحمة من مائة رحمة قد علت بصاحبها إلى مقام:

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ .

فكيف بسجدة في الآخرة في ظل المائة رحمة تحت عرش كُتِبَ عليه أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله - وكتب عليه ( إن رحمتي سبقت غضبي ) فهذه السجدة هي الأجمع في لسان الجمع " نعبد " .. إذ الرسول ﷺ قد أقبل بمجامع كُليته على الله سبحانه وتعالى بخالص عبوديته له تعالى .. مستجمعا عبودية المؤمنين من أمته والأمم أجمعين لرب العالمين ..

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومعها وفيها أحق توجه للاستعانة مصداقاً لـ ﴿وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ .

إذ هنا .. وهنا فقط ذروة التجلي لمضمون الاستعانة طلباً للشفاعة الكبرى حيث الخلائق محشورون رهن البلاء العظيم .. فرحلة الخلق في الحياة الدنيا مع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مستحضرة ومشهودة هنالك في تلك السجدة الآخرة الرحمانية المستجمعة لكل آيات الجلال والجمال للرحمن ذي الجلال والإكرام .. حيث يكون النداء الرحماني من فوق العرش الكريم المكتوب عليه " إن رحمتي سبقت غضبي " : " يا محمد ارفع رأسك .. وقل يُسمع لك .. وسل تعطه .. واشفع تشفع .." (1)

1- من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلاً .. رقم 326 .. والبخاري كتاب التوحيد

3) ثمرة الثمرات: من العلماء من يذهب إلى أن سر الفاتحة التي هي

سر القرآن مودع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وقد قال

بذلك ابن كثير نقلا عن بعض السلف "الفاتحة سر القرآن، وسرها

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. لأن اللفظتين قد جمعنا بين

العبودية والتوحيد.

- بينما يرى بعض العلماء أن نسبة البسمة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

من الفاتحة كنسبة الفاتحة من القرآن الذي هو تفصيل الإجمال فيها..

ويستدلون على ذلك بأن الفاتحة قد حوت ثلاثة من أسماء الله الحسنى التي هي

مرجع الأسماء الحسنى والصفات العلى ومدارها عليها "الله - الرب -

الرحمن " إضافة إلى صفات كونه "الرحيم - مالك يوم الدين" .. فهؤلاء

العلماء يرون أن كل هذه الأسماء والصفات مودعة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾.

فالباء: دالة على "مالك" بدليل المُلْك فيها والذي سبق أن أوضحناه عند

شرح ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

واسم الله مستلزم لجميع الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال، وذلك

مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنتين لكمال الملك والحمد ..

فصفات الجلال والجمال أخص باسم "الله": وصفات الفعل والقدرة

والتفرد بالنفع والضرر، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير

أمر الخليقة أخص باسم "الرب"

وصفات العدل والإحسان والجود والبر والحنان والرفافة واللفظ أخص

باسم "الرحمن" .. مع زيادة اختصاص المؤمنين من عباده برحمة الرحيم ..  
وهكذا فإن هؤلاء العلماء مع تأمل معاني البسمة، والتدبر فيها يرون أن  
البسمة بمحتواها وجلال معانيها هي رسول ومفتاح طاقة النور المودعة بين  
سور القرآن وآياته فضلا عن فاتحته .. حتى إن الإمام القشيري في كتابه  
"لطائف الإشارات" قد اعتبر البسمة قرآنا .. بل إنه قد أعطى لها تفسيراً  
منوعاً مختلفاً لكل سورة من سور القرآن لا يكاد يتشابه مع نظيره في السور  
الأخرى .. ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسمة يتمشى مع  
السياق العام للسورة كلها.. فـ "الله" و "الرحمن" و "الرحيم" .. لها دلالات  
خاصة في الفاتحة، ولها دلالات خاصة في النساء، ولها دلالات أخرى خاصة  
في الأنفال ..

وهكذا فعل البقاعي أيضاً في تفسيره المعروف باسم "نظم الدرر في  
تناسب الآيات والسور"

- والباحث يرى أنه لا تعارض بين الرأيين .. فإذا كانت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. كما سبق أن ذكرنا تنتهي بمجرى المعاني إلى نهريْن  
أو بحريْن رئيسيْن يلتقيان وفي ذات الوقت بينهما برزخ لا يبغيان .. فيجمع  
النهر الأول بين معاني "الألوهية والعقيدة والعبودية" على نحو "تعبك إليها  
رحمانا مالكا ليوم الدين" ..

ويجمع النهر الثاني بين معاني "الربوبية والشريعة والاستعانة" على  
نحو "تستعين بك ربا رحيماً هادياً إلى الصراط المستقيم" .. وبذلك فإن

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي قوام الدين وفحواه .. وهي تستوعب القرآن كله مكيه ومدنيه.

وإذا كان هذا هو شأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. فإن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .. هي المرعى الخصب الذي نبتت فيه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. فلقد أقر العلماء أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه "الله" الذي هو في "البسملة" مستلزم لصفات الجلال والجمال ثم اختص بما هو للجمال باسم "الرَّحْمَنِ" .. حيث قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الإسراء: ١١٠، وهي ذات الصفة التي استوى بها سبحانه على عرشه الذي هو أعظم وأوسع المخلوقات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ .. وهذه الصفة متضمنة في البسملة .. فنبت ذلك أيضا تعلق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بـ"الرَّحْمَنِ" .

كما أقر العلماء أيضا أن "إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" .. متعلق بربوبيته واسم "الرب" .. حيث تتجلى صفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر النفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة، وكمال القوة، وتدبير أمر الخليفة .. وأظهر ما في ربوبيته كونه "الرحيم" بعباده المؤمنين على وجه الخصوص .. كما قال: ﴿سَلَامٌ

قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ يس: ٥٨ وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

الأحزاب: ٤٣.. فثبت بذلك تعلق ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بكونه "الرحيم"  
.. ومن ثمَّ فإنَّ الآيتين الكريمتين معا تتعاونان معا على البر والتقوى  
تعاوننا ربانيا من لدن حكيم عليم .. فتنجمع أشعة أنوارهما في بؤرة حقيقة  
واحدة هي "العبودية والتوحيد" .. وتنتهي إلى غاية واحدة ومقصد واحد هو  
"الله": "اللهم أنت مقصودي .. ورضاك مطلوبي" ..

وترجمة ذلك بين "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" و﴿وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾

هو مصب النهرين: "تعبدك إليها رحمانا مالكا ليوم الدين" .. و"تستعين  
بك ربا رحيمًا هاديا إلى الصراط المستقيم".

- لقد ثبت لدينا إذن أن الفاتحة .. "مستودع سر القرآن" الذي تكمن طاقته في

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" .. وكذلك ﴿وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. ولقد

تبين لنا لم هي - أي الفاتحة - "أم القرآن" و"أم الكتاب" و"فاتحة الكتاب"

.. حيث يصب فيها كل معاني القرآن وأغراضه من توحيد وشرائع وقصص

.. فكل سورة من سور الكتاب الكريم تجد لها نصيبا وحظا من فاتحة الكتاب

على وجه العموم .. ومن ﴿وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. على وجه

الخصوص .. ودليل ذلك أن كل ما يتلوه المصلي من قرآن بعدها يتناسب

معها في مضمونها وفحواها .. فلو وضعت بجانب أي سورة من سور القرآن

لناسبتها بوجه من الوجوه .. إذا ما من سورة إلا فيها تفصيل لبعض ما  
أجملته الفاتحة .. وهذا ما سوف نفرده له بحثا مستقلا كمسك ختام طيب  
للفاتحة في نهاية الكتاب.

وإذا أردت على سبيل المثال لما نقصد .. فهناك قطرة من غيث .. سورة  
الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن:

ففي نهر "تعبدك إليها رحمانا مالكا ليوم الدين"

فإن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يلزم معها التعريف بمن نعبد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾  
وفي نهر "تستعين بك ربا رحيفا هاديا إلى الصراط المستقيم"

فإن ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. لأنه هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .... فهو  
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .

﴿وَأَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ "صراط الله" الذي ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ  
يُولَدْ﴾ ﴿٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .



﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾  
**هذا لعبدي ولعبي ما سأل**





## ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هذا لعبدي ولعبي ما سأل

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾: هي الحصاد والقطاف والجنى الداني الخالص بعد بدو صلاح ما أقبل به العبد على مولاه بالحمد والثناء والتمجيد والتوسل إليه بالعبودية والاستعانة .. وهو ما عبر عنه الحديث القدسي "هذا لعبدي خالصا .. ! .. وقد كان ما قبله مقسوما بين ربه وبينه نصفين ولما كان سؤال الهدى إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علم الله عباده كيفية سؤاله بالوسيلتين معا .. التي جمعت بينهما الفاتحة: وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده .. والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ..

ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الويلتين .. فالداعي به حقيق الإجابة .. ويشير قوله في الحديث القدسي " هذا لعبدي " إلى حقيقة غالية في غاية الأهمية، وهي أن خزائن الرحمة والإرادة الإلهية قد استوفت أزلاً لكل إنسان حقه وقدره في الهداية .. يدل على ذلك التعبير بلام المُلْك والاختصاص "لعبدي" والذي يرمي ويشير إلى أن المولى سبحانه وتعالى قد وقَّع شهادة استحقاق الهداية لكل فرد من عباده، وما على الطرف الثاني الذي هو العبد إلا التوقيع بخاتم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لينال بذلك صك وشهادة الاستحقاق لهذه الهداية ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ..

واستحقاق هذه الشهادة لا تحتاج من العبد سوى إلى توثيقها بـ ﴿ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ سبع عشرة مرة في اليوم الواحد على أقل تقدير .

ولقد أكدت السنة الصحيحة هذا المعنى: فعن جابر بن عبد الله قال: جاء سراقه بن مالك وقال يا رسول الله، فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقدام، وجرت به المقادير؟ .. أم فيما نستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقدام، وجرت به المقادير قال: ففيم العمل؟ قال .. "اعملوا فكل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله " رواه مسلم (1).

ويؤكد معنى الحديث قوله تعالى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ

فَسَوَّيْ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ الأعلى: ١ - ٣ .. وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ

الَّذِينَ الْقَيِّمُ ﴾ الروم: ٣٠.

ولكن الحقيقة .. أن مقادير البلاء والابتلاء قد كشفت أن ﴿ مِنْكُمْ

مَنْ يُرِيدُ الدِّينَ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ آل عمران: ١٥٢ .. إذن

كلُّ طائره في عنقه مرهون به ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

الكهف: ٢٩ .. وجائزة الاستحقاق ستكون ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾

التكوير: ٢٨.

1- أخرجه مسلم في صحيحة 2648

وعون الله قائم ودائم ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يونس: ٢٥ .. ما عليك إلا أن تعلن وتحقق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لتنال نصيبك المقدر بشهادة استحقاق الهداية ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

فلقد كانت لنا الأسوة في ذلك من رسول الله ﷺ .. فإنه كان يدعو إذا قام يصلي من الليل .. فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق .. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت .. فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت .. أنت إلهي لا إله إلا أنت " .. فذكر التوسل إليه بحمده، والثناء عليه، وبعبوديته له .. ثم سأل المغفرة<sup>(1)</sup>.

ولما كانت الهداية إلى ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهى أنجح الرغائب، درجات ومراتب وارتقاءات علوية .. الهدى فيها نور الصراط المستقيم، والصراط لها هو سلم الهدى، بدايته وأول درجاته ﴿ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ ﴾ وآخره .. وآخر درجاته ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .. ناسب ذلك

1 - الطبراني في معجمه الكبير ج 11 / ص 45 حديث 10993.

أن نرتقي ونعرج على سلم الصراط المستقيم على درجات أولها " أَهْدِنَا " وخاتمتها ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .. من خلال سلم الوسطة بينهما

﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

لأجل ذلك وعملاً بمقتضى هذا العروج والارتقاء سيكون العرض متوافقاً

مع النظم القرآني .. حيث نبدأ بـ أَهْدِنَا .. فـ الصِّرَاطَ .. الْمُسْتَقِيمَ ..

ثم في نهاية السلم ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .. وإلى هذا يشير قوله:

﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ الانشقاق: ٦ حيث يكون

اللقاء إن شاء الله ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴾ القمر: ٥٥ .

﴿ أَهْدِنَا ﴾

**أولاً: اختيار مادة الهدى:**

أثر الكتاب الحكيم اختيار مادة الهدى في قوله تعالى ﴿ أَهْدِنَا ﴾ بديلاً عن الرشاد أو الدلالة .. فلم يقل: أرشدنا أو دلنا .. وذلك أن الإرشاد إلى الشيء معناه مجرد التطريق إليه والتبيين له، فهو إذن محض تطريق وتبيين .. وكذلك الدلالة فهي ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، فهي أيضاً محض بيان وتبيين.

وأما "الهدى" فإنه يعني ما يفوق الإرشاد والدلالة، لأنها تعني الدلالة بلطف وتمكن على ما يوصل إلى المطلوب .. فهي من هذا الباب لا تكتفي بأن تضعك على أول الطريق .. بل تعرفك بأحوال الطريق حتى تصل إلى الغاية المرجوة.

ورغم أن الرشد في القرآن الكريم قد اختص بالخير دون الشر .. وأن الهدى استعمل في الكتاب الكريم في الخير والشر معا .. بيد أن ورود الهدى في الخير هو الأصل والأعم .. وما ورد منها في غير الخير لم يتعد ثلاثة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ

شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى

عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿الحج: ٣ - ٤ .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

الرَّشَادِ ﴿غافر: ٢٩ .

وقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١١﴾ ﴿أحشروا

الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مَن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ

الْبَحِيمِ ﴿الصافات: ٢١ - ٢٣ .

هذه المواضع فيها موضعان كان الفاعل في إحداهما الشيطان، والآخر فرعون .. وهما ضلال مبين ... وأما الموضع الثالث ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ .. فلقد أثار هذا الموضع انتباه الراغب الأصفهاني فقال: "استعمل فيه اللفظ على سبيل التهكم والمفارقة .. مبالغة في المعنى كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة: ٣٤ و ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .. وقول الشاعر " تحية بينهم ضرب وجيع".

كما أن الفعل "هدى" في هذه القرائن السابقة هو من باب "الهداية" لا "الهدى" .. وإن كان كلاهما في موضوع اللغة سواء.. إلا أن الله سبحانه وتعالى قد خص "الهدى" بما تولاه وأعطاه واختص هو به لا غيره من دونه من الإنسان أو غيره من المخلوقات.

ففي جانب أن الهدى منه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ البقرة: ٣٨ .

وفي جانب أن الوسيلة إلى الهدى من خلال الرسل ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٣٣ .

وفي جانب غاية وعائد الهدى على المؤمنين ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٥ .

ففي كل السياقات القرآنية التي ورد فيها المصدر "هُدَى" .. كان الأصل فيها أنها تتعلق بالمولى سبحانه وتعالى .. وكانت تعني بـ "الهدى" الخير المحض.

### ثانياً: دلالات تعدى فعل الهدى بنفسه وبحرف:

فعل الهدى قد يتعدى بنفسه أو بحرف .. فما السر في ذلك ؟  
يبدو لي والله وأعلم أنا الهدى على مراتب .. فالبعيد الضال عن الطريق يحتاج إلى هادٍ يده له على الطريق ويوصله إليه .. فهاهنا تستعمل بمعنى "يهدي إلى" .. أي يوصل ويرشد إلى .. والذي يصل إلى الطريق يحتاج إلى هادٍ يعرفه بأحوال الطريق ومراحلها وما فيها من مخاوف وأماكن الهلكة والأمن، ويعرفه بما يحتاجه السالك في هذه الطريق .. وهنا تستعمل بمعنى "هداه الطريق" ..

أما "اللام" في معنى "يهدي لـ" .. فإنها تستعمل في اللغة للتعليل وبيان الغاية كأن نقول "جئت لطلب العلم" .. أي أن طلب العلم هو غاية المجيء وعلته، بمعنى أن سالك السبيل يريد الوصول إلى غاية، وليس الطريق غاية في نفسه.

- والإنسان يحتاج إلى هذه الهدايات كلها .. فإن ضل احتاج من يهديه إلى الطريق .. وإن وصل احتاج من يعرفه بالطريق .. وإن سلك احتاج الوصول إلى الغاية والهدف، وألا ينقطع في الطريق .. وإن قطع الطريق احتاج إلى من يبلغه غايته، وأن ينيله مراده ويهديه له.



ومن أمثلة ما تعدى بـ"إلى" وقد تسند فيه الهداية إلى الله وإلى غير الله .. لأنها فقط بمعنى وسائط الإرشاد والدلالة الموصلة إلى أول الطريق قوله تعالى: ﴿ أَجَبَّهٖ وَهَدَّاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ النحل: ١٢١... حيث أسند إلى الله .. وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الشورى: ٥٢.. حيث أسنده إلى الرسول .. وقوله: ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الأحقاف: ٣٠.. حيث أسندت إلى الكتاب.

ومن أمثلة ما تعدى بذاته .. قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣.. وقوله: ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.. وقوله تعالى: ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

ومن أمثلة ما يتعدى "باللام" .. قال أصحاب الجنة بعد أن قطعوا الطريق وبلغوا مرامهم ومرادهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ الأعراف: ٤٣.. أي وفقنا لهذا في خاتمة مطاف الهدايات.

ولذلك فكما يقول "السامرائي" في كتابه "لمسات بيانية": "لم نجد استعمال "هدى" يتعدى باللام في القرآن الكريم مع السبيل أو الصراط .. فلا نجد مثل: "هداه لصرراط مستقيم أو هداه لسبيل مستقيم" .. لأن الصراط ليس هو الغاية بل هو طريق يوصل إلى الغاية، فهو مطلوب لغيره فيقال: هداه إلى الصراط،

وهده الصراط .. قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الحجرات: ١٧... فجعل الإيمان غاية وذلك أن الإيمان من الأمن، وهو استقرار النفس وطمأنينتها، وأكثر ما يرهق الإنسان فقد أمانة النفس، فبلوغه من أعظم الغايات.

- ومن الملاحظ أن هذه الهداية، وهي هداية للغاية والانتهاء إليها اختصها سبحانه وتعالى لنفسه أو لقرآنه .. من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ يونس: ٣٥ ..

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩ .. بينما كانت الهدايتان الأخريان تنسبان لله وغير الله .. وقد سبق ذكر شواهد لما هو منسوب إلى الله ...

وها هي شواهد مما نسب لغير الله في الهدايتين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى 52.. وقال على لسان إبراهيم ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مريم: ٤٣ .. وقال على لسان فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: ٢٩.

ولقد جمع سبحانه وتعالى بين الهدى الدال على أول الطريق .. والمعدى بالي .. له سبحانه ولغيره .. وبين الهدى الدال على الغاية المعدى باللام في قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي

إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي ﴾ يونس: ٣٥.

فإن الشركاء لا يستطيعون الدلالة إلى الحق والإرشاد إليه أصلاً .. ولكن الله يهدي إلى الحق وللحق .. فالله يرشدك إليه، ثم يوصلك إلى المنتهى ويبلغك المراد، وهكذا فإن الآية الكريمة قد جمعت بين البداية والمنتهى .. بين الرؤية الدالة على الطريق والغاية المرادة من الطريق، ومن ثم فقد تضمنت بالبداية الوسيلة بينهما وهي الهداية التي تتعدى بنفسها .

- وينبني على هذا التقسيم لمراتب الهداية أن يكون أولها ومبتدأها ما عدى بإلى .. وأن يكون غايتها ومنتهاها ما عدى باللام .. وأما الواسطة بين هذا المبتدى وذاك المنتهى فهو ما عدى بنفسه .

ويترتب وينشأ من ذلك وجود نوعين من الهداية:

أولهما: هداية الدلالة والبيان والإرشاد... وثانيهما: هداية المعونة والتوفيق والإلهام.

فهداية الدلالة والبيان والإرشاد يناسبها التعدي بإلى .. وهي هداية عامة لكل الناس ولا تتحقق إلا من خلال الرسل كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ

لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأما هداية المعونة والتوفيق والإلهام التي تفيد الوصول إلى الغاية .. فيناسبها التعدي باللام .. وهي هداية خاصة للمؤمنين وتتحقق بمعونة الله وتوفيقه .

فإذا ما حصل البيان والدلالة ترتب عليه هداية التوفيق .. وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه وتربيته وجعل العبد مؤثراً له راضياً به راغباً فيه .. كقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْنٌ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْنَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ الحجرات: 17.

وفيما بين الهدايتين باعتبار الوساطة والوسيلة بينهما يكون ما تعدى فيه الفعل بذاته ولذلك فإنه يغلب على هذه الهداية الوساطة اقترانها وتعيدها مباشرة بالمشيئة الدالة على التوفيق إلى الغاية .. كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ

الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأنعام: ١٤٩ .

مثلها في ذلك الهداية التي تعدت باللام في دلالاتها على الوصول إلى الغاية ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ النور: ٣٥.. وهذا وجه من أوجه ارتباطها الخاص بهداية الغاية.. حيث لم يقترن مباشرة فعل المشيئة مع هداية الدلالة والبداية.

وكذلك وكما سبق أن قلنا فإن هذه الهداية الوساطة قد اقترنت أيضاً بالصراط المستقيم .. مثلها في ذلك مثل هداية البداية والدلالة التي تعدت بـ "

إلى" .. كقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الفتح: ٢.. ﴿وَإِنَّكَ

لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى: ٥٢.. وهذا أيضاً وجه من أوجه ارتباطها الخاص بهداية الدلالة، حيث لم يرد ذكر الصراط المستقيم أبداً مع هداية بلوغ الغاية لأن الصراط المستقيم وسيلة وليس مراداً وغاية في ذاته.

وبذلك فقد تفردت هذه الهداية الواسطة بأنها هي التي كان لها الجمع بين المشيئة مباشرة من طرف الغاية .. وبين الصراط المستقيم من طرف الدلالة .. ولم يكن هذا الجمع لأي من هذين الطرفين.

ولتأكيد الدلالة على أن هذه الهداية واسطة ووسيلة بين الهديتين .. فإنها على سبيل المثال لا الحصر قد جمعت ما يدل على الواسطة والبدائية في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

البقرة: ١٤٢ .

وجمعت أيضا بين هذه الواسطة والغاية في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدانا اللَّهُ ﴾ الأعراف: ٤٣ .

ولذلك فإن هداية المعونة تزيد بزيادة الاهتداء كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ

أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ محمد: ١٧ .

وقد بين وحصر سبحانه وتعالى المحرومين من هداية المعونة في ثلاثة من القوم: وهم الكافرون، والفاسقون، والظالمون

فقال: ﴿ وَأَنْتَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ النحل: ١٠٧ ..

وقال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة: ١٠٨ .. وقال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥٨ .

فهؤلاء هم الذين خالفوا وابتعدوا عن منهج الله فتخلى عنهم وتركهم في

ضلالهم ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

الزخرف: ٣٦ .

وإذا كانت فاتحة الكتاب وقد تعدى فيها الفعل بنفسه .. ﴿ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قد أشارت إلى نوعي الهداية المشار إليهما كما يقول

العلماء .. فإن الباحث يضيف أن قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يشير قطعاً إلى طرف الهداية الأعلى فقط التي هي أعلى مراتب الهداية وهي هداية المعونة والتوفيق والإلهام لتلك الهداية.

وتأسيساً على ذلك فإن: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هي هداية

معونة وتوفيق بالنسبة إلى الهدى المعدى بالى .. وهي أيضاً هداية دلالة وبيان .. بالنسبة إلى الهدى المعدى باللام .. لأنها وسيط بين الهدايتين

## ثالثاً:

### 1- اهدنا بدلا من اهدني:

والسؤال لمَ العدول من القول "اهدني" إلى قوله تعالى "اهدنا" ؟

والسر في ذلك والله أعلم، وكما أشرنا في فقرة سر العدول من الأفراد

إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أن العبادة بنيت

على الاجتماع، وذلك إشارة إلى أهمية الجماعة في الإسلام .. ولذلك كان

الدعاء "اهدنا" كما يكون بالأصالة عن النفس، فإنه أيضا يكون بالنيابة عن الآخرين .. وهذه هي روح الجماعة التي تسرى أنسامها في كل العبادات صلواتٍ كانت أم صياماً أم حجاً أم جهاداً .. إلى غير ذلك مما هو شأن الجماعة دائماً.

كما أن الدعاء "اهدنا" مناسب للجمع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وجاء في تفسير الرازي: "كأن العبد يقول: سمعت رسولك يقول: "الجماعة رحمة والفراق عذاب" .. فلما أردت تحميدك ذكرت حمد الجميع فقلت "الْحَمْدُ لِلَّهِ" .. ولما ذكرت العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"

..ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت .. ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولما طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع، فقلت: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .. ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ..

ومنها كما جاء في نفس التفسير: "إن الدعاء كلما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب"

ومنها أن تحب للآخرين ما تحبه لنفسك .. فتغسل النفس مما فيها من درن الأثرة، ونوازع الانفراد بالخير، ويشيع في المسلم حب التعاون.

## (2) الحفاظ على الترتيب بين الفعل والفاعل والمفعول:

والسؤال أيضا لِمَ لَمْ يقدّم مفعول الهداية كما فعل مع العبادة الاستعانة؟.

أَي لَمْ يَلَمْ يَقُلْ "إِيَانَا إِهْدِ" .. كَمَا قَالَ: ﴿إِيَاكَ نَعْبُدُ وَإِيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟  
يقول السامرائي في كتابه "لمسات بيانية": لا يصح التقديم لأنه لا يصلح طلب التخصيص بالهداية دون سائر الناس .. فلا يصح أن نقول "اللهم اهْدني ولا تهْد أحدا سواي" .. "أو اللهم ارحمني ولا ترحم أحدا غيري" .. بل: لك أن تسأل الهداية لنفسك ولا تقصرها عليك .. فلو قلت: إيانا اهد " لكان المعنى اهدنا ولا تهْد أحدا سوانا .. وهذا لا يصلح.  
ويضيف الباحث: ولعله من سرائر الأسرار في قوله تعالى "اهدنا" في دلالتها علي سمو وارتقاء الهداية ما نجده من التجاوب في المدلول الصوتي بين لفظتي "إِيَاكَ" و "أَهْدِنَا" بما يشير إليه من استجماع القصد الوجودي من العبد تجاه معبوده الحق.

فالهَمْزَةُ فِي كُلِّ مِنْ "إِيَاكَ" وَ "أَهْدِنَا" بِكسرها هي رمز الانكسار والعبودية والخضوع والسجود للمولى سبحانه وتعالى.

وإذا كانت الياء المشددة في "إِيَاكَ" هي رمز لتحمل ميثاق الإقرار بالإيمان في عالم الذر الذي هو من عالم الغيب .. ورمز أيضا لتحمل ميثاق الإقرار بالإيمان في عالم التكليف.

فإن "هاء" في قوله "أَهْدِنَا" بما يشير إليه من عمق المخرج .. وإيقاع الهمس يشير وبقوة إلى إخلاص السر للمولى سبحانه وتعالى .. وكأنما هاء "



"أَهْدِنَا" يشير إلى هاء "الله" .. وقد يدعم ذلك طبيعة رسم هاء "أَهْدِنَا" بدلالاتها على عقدة الإيمان التي لا تفك ولا تحل ..  
ويُضاف إلى ذلك أنّ الإيقاع الهامس العميق للهاء مرهون ومربوط بحرف الدال، وهو حرف مخرجه الجهة العكسية المقابلة تماما لمخرج الهاء، بما يشير إلى ظهور أثر إخلاص السر على الجوارح.

وكما تشير أيضا **كاف الخطاب المفتوحة** في "إِيَّاكَ" إلى السمو والعلو

للرب العلى العظيم .. فإن "تا" في "أَهْدِنَا" تصل بنا إلى نفس النتيجة خاصة إذ علمنا أن للهداية العامة والخاصة عشر مراتب ذكرها ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" وكأن الصراط المستقيم درج وسلّم يصعد إليه وعليه.

### **رابعًا: مفهوم الهداية والاهتداء:**

جاء في كتاب الدكتور العمري، "كيمياء الصلاة": الهداية ليست عود كبريت يشتعل ويضيء لمرة واحدة فقط .. إنها ليست خيارا واحدا تقرره، وتمضي في حياة صممت على هذا الخيار .. بل هي الضوء تلو الضوء - وأضيف والخيار تلو الخيار - ويستطرد الكاتب قائلاً: بل أي "الهداية" هي الضوء يبحث عن ضوء، فنادرًا ما يكون الضوء الذي تجده - أو الذي يجدهك - ضوءًا ينير الطريق كله .. بل غالبًا ما ينير الخطوة التالية فحسب أو يضع خطوات تالية في أحسن الأحوال .. ولذلك فإنك لأجل الاهتداء ستطلبها سبع

عشرة مرة في اليوم الواحد على أقل تقدير .. فذلك هو الحد الأدنى المقبول

لقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

والهداية ليست بالضرورة الضوء .. إنها أحيانا العلامة الموجودة على الطريق الصحيح.. ولكنك قد تحتاج إلى ضوء قد يكون ضوء مصباح صغير ينبعث من داخلك .. وقد تحمله في يدك لتراه .

ويضيف الباحث على قول الدكتور العمري: ولعل هذا يشير إلى الحكمة في تنوع فعل الهداية متعبداً بـ "إلى" و"بذاته" .. وفي نهاية المطاف بـ"اللام" الدالة على الغاية والاختصاص

فالهداية بـ "إلى" تشير إلى العلامة والراية الدالة على أول الطريق .. والهداية بـ"ذاتها" تشير إلى ذلك المصباح الذي ينبعث من داخلك ويصاحبك أو تحمله في يدك ولا تتركه، والهداية بـ"اللام" تشير إلى الإصرار على بلوغ الغاية التي تبحث عنها وتصر على رؤيتها والوصول والاهتداء لها.

- وعلامات الطريق موجودة على الطريق، وهي للجميع ولأجل الجميع .. لكن ليس الجميع يهتدون بها إلى الطريق الصحيح.. فالهداية ليست فعلا إلهيا يقع بلا سبب على شخص ما فيهديه إليه وينتهي الأمر كما يتوهم البعض، وكما يحاول أن يجتزئ بعض الآيات من سياقها، ويتعسف في فهمها فيظلم نفسه أو يظلم الآخرين .. ومن ثم فهو لا يهتدي .. من ذلك قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فاطر: ٨.

كلا إن "الهداية" .. استحقاق تكسبه وتحزره وتعمل لأجله .. وهذا هو وجه الهداية المسمى بالاهتداء .. فالاهتداء بالتعريف فعل إنساني يتفاعل

إراديا مع كل معطيات الهداية الموجودة أصلا في العالم من حولنا بل في

أنفسنا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فصلت: ٥٣ .

إن التاء التي تدخل على الفعل "هَدَى" تمنح الفعل المعنى المشدد الذي يركز على الإنسان وهو يقوم بالفعل .. إنه يجعل الإنسان "فاعلا" و "متفاعلا" في الوقت نفسه مع الطريق من حوله .. مع العلامات التي على الطريق .. إنه يحاول أن يهتدي .. لذلك فهو يركز على العلامات ويحاول أن يقرأها بشكل صحيح ليفوز بهذا الاهتداء ..

- فهم الهداية حقا يتطلب النظر فيما جاء فيها من آيات قرآنية .. وليس اجتزاءً أو انتقاءً لآية واحدة من سياقها لأي سبب من الأسباب.

ولذلك فإن هناك شروطا قرآنية للهداية .. كما أن هناك موانع لها .. وبين الشروط والموانع تقع دائرة الاستحقاق الإنساني لحيازة الهداية، ولو عبر تسلق جبل الهداية الوعر .. هناك قبل ذلك كله رحمة الله البالغة التي يمكن أن تغني عن أي دليل هداية آخر .. وذلك لمن يحسن استخدام هذه الحجة البالغة .. الأدوات العقلية التي ميز الله بها الإنسان وجعله سيد المخلوقات كلها .. والتي تمكنه نظريا على الأقل حتى دون علامات إرشاد أن يصل إلى الطريق

الصحيح ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأنعام: ١٤٩

## خامساً: شروط الهداية وموانعها ودائرة الاستحقاق لها:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩.. فهذه المجاهدة

هي جوهر عملية الاهتداء التي يقوم بها الإنسان نفسه ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا

أَضَلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

سبأ: ٥٠ .

فالاهتداء هنا هو الفعل الإنساني تجاه الوحي الإلهي، تجاه هداية الدلالة والبيان والإرشاد، ومن خلاله سيكون الاهتداء الذي سيؤدي حتماً باتباعه

واقفائه إلى ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ مريم: ٧٦.. ﴿ وَالَّذِينَ

اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ محمد: ١٧ .

الاهتداء البشري .. حتماً يؤدي إلى المزيد من الهدى لكنه هدى إلهي .. هدى التوفيق والمعونة .. والذي قال عنه الدكتور العمري: إنه النور الذي سيتدفق من الثقب الصغير الذي أجهدت نفسك في الحواجز والأسوار من حولك .. ربما لم تطمع بأكثر من بقعة ضوء في خضم الظلمة والعتمة .. لكن النور سيتدفق من ذلك الثقب لأن الذين يهتدون بأنفسهم يزيدهم عز وجل هدى، مصداقاً لما جاء في الحديث القدسي "... ومن تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعاً..(1).

1 - مسند الإمام أحمد - سند أبي هريرة - ج16 - الصفحة 530.

والسؤال الآن: ما هي شروط الاهتداء؟ .. لماذا يهتدي البعض ويضل البعض الآخر؟ .. لماذا يكون هناك الشيء الواحد يهتدي به البعض ويضل به البعض الآخر؟ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

البقرة: ٢٦ .

الاهتداء يعتمد على وجود الرغبة الجادة لشخص ما أن يصل إلى الحق والحقيقة .. ليس جدلاً فكرياً نقضي فيه وبه الوقت .. ليس مجرد هواية كالشطرنج أو جمع الطوابع.

ويشبه هذا ذلك التحدي الإبراهيمي الذي جمع بين الجدية والإصرار والمجاهدة في تحديه لكل الحقائق حوله لأجل الوصول إلى الحقيقة الواحدة .. إنه الإصرار على الحصول على الهداية ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا

رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٧٧)

الأنعام: ٧٧... فلم يكن ينتظر الهداية دون أن يقوم بشيء حيال ذلك .. لم يكن يتوكل .. لم يطلبها في دعائه دون أن يستحق الحصول عليها بجهد .. معبود تلو معبود: كوكب، قمر، شمس .. قام بسبره ورفضه رغم أنهم كانوا يمثلون أعمدة العالم الذي آمن به قومه .. لكنه هداه جميعاً الواحد تلو الآخر .. كما هدَّ الأصنام قبلها .. وهد بذلك العالم القديم من أجل أن يهديه إلى عالم آخر .. عالم جديد أكثر عدالة .. ولأنه استحق ذلك فقد هداه الله حقاً ﴿ وَحَاجَّهُ ﴾

قَوْمَهُ قَالَ أُمْتَجِبُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿

الأنعام: ٨٠ .

كانت هذه هي شروط الهداية .. فما موانعها؟.

لقد أوجزها المولى سبحانه وتعالى في ثلاثة موانع: هي الكفر والظلم والفسوق

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٦٤ .

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥٨ .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الصف: ٥

فالكفر جود لا يري صاحبه أي هامش للتواصل مع الإيمان بالله عز

وجل، ومن ثم الرضوخ له ..

والظلم يعلمك دوما أن لا ترى إلا نفسك والانحياز لجهة ما دون وجه

حق .. والذي يتنافى مع الاهتداء الذي يتطلب قدرا من النزاهة يجعلك تتحمل

نتائج ما وصلت إليه..

والفسوق يمنع عملية الاهتداء لأنه يجعلك ببساطة عازفا عنها، وعن كل

ما هو جدي ونافع حقاً .. إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة ويجعلها

محور حياتك وعالمك بعيدا عن كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام

وأدب.

- وبين هذه الشروط والموانع تقع دائرة الاستحقاق الإنساني لحياسة الهداية

والاهتداء وذلك لأن الاهتداء والهداية مرتبطان بطريقة تجعل فصلهما عملية

صعبة .. إنها تفاعل دائري مغلق .. العناصر الأصلية الموجودة في التفاعل تنتج مركبات جديدة تظل تمد العناصر الأصلية بروافد إضافية للتفاعل ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ النور: ٣٥ فتكون النتائج كالتالي دائماً ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ ﴾ الأعراف: ٤٣ .. ليس لأن الهداية نزلت هكذا كيفما اتفق .. ولكن الله وضع علامات الهداية للجميع ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ البلد: ١٠ .. ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣ ... ولكن ليس الجميع ينتبهون .. وليس الجميع يهتدون . فعندما ينتج ويثمر ذلك التفاعل الوصول إلى الطريق الصواب .. فإن الإقرار بأننا ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ ﴾ .. هو إقرار بالأمر الواقع .. إن هذا كله ما كان سيكون لولا أن وضع الله كل تلك العلامات على الطريق .. ووضع قبل كل ذلك تلك الأدوات الإدراكية التي جعلت الإنسان إنساناً .. وجعلته يفهم تلك العلامات ويقرأها بشكل صحيح .. إن هو أراد ذلك . كل ذلك يساعدنا على فهم ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ . ذلك أن طلبنا الهداية إلى الصراط المستقيم هو جزء من مفهوم الهداية بشكل عام .. بل هو في الجوهر والأساس من هذا المفهوم .. وهكذا فإن: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ترتبط فوراً بمعادلة اهتدائنا له بل بدأنا بإصرارنا على ذلك .

بتكرارنا الأمر: سبع عشرة مرة في اليوم الواحد على أقل تقدير .

## ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

### مقدمة:

سورة الفاتحة لم تكن أول ما نزل من القرآن الكريم، ولا هي من أوائل السور التي نزلت بمكة المكرمة .. ومع ذلك فهي توضع أول المصحف الشريف وتسمى "أم الكتاب" .. ذلك أن هذه السورة ذات السبع الآيات القصار في المبنى الكبار في المعنى .. قد حوت على الغرض الأساس في الكتاب الكريم، الذي ترتد إليه بقية الأغراض وتدور حوله بقية المعاني ..

وإذا أردنا أن نحدد هذا الغرض في سورة الفاتحة فإننا نلتسمه في كلمة

﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ التي جاءت في سياق العبادة، والاستعانة، والدعاء بالهداية .. وهي الثمرة المرجوة إزاء التمهيد لها بما سبقها من حمد وتمجيد وعبادة المصدر الواحد.

والآن نبدأ مع الصراط المستقيم من أوله وبدأياته .. حتى يصل بنا إلى

الغاية الكبرى على أعتاب أبواب الجنة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمًا ﴾ النساء: ١٧٥ .



## الصراط المستقيم صراطان:

الصراط المستقيم ليس صراطا واحدا .. بل صراطين:

أولهما: صراط الدنيا: ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المؤمنون: ٧٣.

ثانيهما: صراط الآخرة: ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ﴾ المؤمنون: ٧٤ .

ويجمع بين الصراطين معا قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ

أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الملك: ٢٢ .

فإن الصراطين ليسا منفصلين .. بل إن صراط الدنيا ممتد إلى صراط

الآخرة.. فمن سلم في الدنيا على الصراط المستقيم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ﴾ سلم في الآخرة على صراطها المستقيم إلى الجنة .. ومن ضل في

الدنيا عن الصراط المستقيم من المغضوب عليهم والضالين .. تتكبد في

الآخرة عن صراطها إلى النار ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ

لَنُكَبُّونَ﴾ المؤمنون: ٧٤ .

- ورغم أن صراط الدنيا هو المعبر والقنطرة والواسطة التي تؤدي بالعباد

إلى صراط الآخرة .. غير أن هذين الصراطين يختلفان جوهريا ومعنويا ..

فصراط الدنيا عريض معنوي .. ارتقائي ممتد .. ومحدد.

هو عريض تلتقي فيه كل سبل السلام .. وهو معنوي لأنه صراط هدى

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ

اللَّهُ مِنَ اتَّبَعِ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ المائدة: ١٥- ١٦

وهو ارتقائي ممتد .. لأنه هدى الله عز وجل في علاه ﴿ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿ الانشقاق: ٦.

بدلالة التقدم والتعدي يهدي إلى ← يهدي ← يهدي لل...

وتفاوت نسبة الاستعلاء بين ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿

... ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ . وأيضاً: ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿ ... ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ . وهو محدد

لأنه صراط مستقيم واحد لا يمكن الحيدة عنه ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ الأنعام: ١٥٣ .

وأما صراط الآخرة: فهو صراط حاد .. حسي .. غيبي .. ويشير إلى ذلك

ما جاء في كتاب "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" ... باب كيف

الجواز على الصراط وصفته ..

وفي رواية قال أبو سعيد الخدري: بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف .. وفي رواية "أرق من الشعر" رواه مسلم.. ويشير إلى ذلك جهارة واستعلاء حرف الصاد ودلالته على الحدة والمبالغة.

ولعل الرسم القرآني .. أو المصحفي .. أو ما يطلق عليه الرسم العثماني

لكلمة "الصِّرَاطُ" .. محذوفة الألف الوسطية يشير إلى طبيعتي صراطي الدنيا والآخرة ..

فبالنسبة إلى صراط الدنيا تشير الألف المحذوفة إلى كونه صراطا معنويا .. كما تشير أيضا إلى وحدة الطريق أو الصراط.. وعدم انفصاله لأنه طريق محدد لا متاهة فيه وإنما فيه كل الهدى

كما يشير حذف ألف صراط الآخرة.. إلى أنه من أمور الغيب التي لا ندركها ولا يعلمها إلا المولى سبحانه وتعالى.

### أولاً: صراط الدنيا المستقيم:

الصراط المستقيم: للحياة الدنيا ليس خطا هندسيا مرسوما على صفحة

الحياة .. بل هو نبض الحياة ذاتها.. ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا

لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الأنعام: ١٢٢ .

وليس في حياتنا الدنيا تحقيق لهذه الحياة على سبيل الحقيقة والتعيين إلا في

كتاب الله العزيز الحكيم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤ .

- كل كلام يقدم ويبلى وينتهي دوره في الحياة، إما بسكون نبض الحياة فيه، وحلول جديد محله .. وإما بانقطاع نبض الحياة فيه بموت صاحبه.. لكن كلام الحي القيوم .. الذي هو الكتاب جوهر الصراط المستقيم، حي لا يموت .. لأنه بإيجاز صادر من الحي القيوم الذي لا يموت.

- صراط الله المستقيم إذن.. صراط حي يتفاعل وينفعل ليبيث الحياة في طالبيه وناشديه، حياة طيبه راضية مرضية .. بل يمتد أجله وزمانه ليكون هو ذاته الصراط الذي يعبر بك إلى صراط الآخرة ومنه إلى جنة الخلد والخلود.

- نتشوق ونتشوق إذن إلى الحياة في ظل هذا الصراط المستقيم.

(1) اتجاه الصراط المستقيم: يَسِّرَ المولى سبحانه وتعالى هذا الأمر لعباده، فجعله بادئ ذي بدء صراطا مستقيما، يمكن لسالكه من خلال نقطتين فقط على هذا الصراط أن يعرف الاتجاه الصحيح فيصل إلى المراد بأيسر الطرق والوسائل.

ففي أول سورة من سور الكتاب .. دعت الفاتحة إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من خلال أول طلب ودعاء في الكتاب الكريم كله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وتتحقق الإجابة والتلبية مباشرة في أول سور البقرة التي تلي سورة الفاتحة

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١ - ٢ .

ثم تجمع السورة أيضا بين الهداية من خلال ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والوسطية في وسط ومركز السورة الكريمة فتشدهما إلى متنها في قوله

تعالى: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿البقرة: ١٤٢ - ١٤٣.. لتشير إلى جوهر الصراط المستقيم بأنه وسط بين تطرف المغضوب عليهم ممن حرفوا الديانة اليهودية، وتطرف الضالين ممن انحرفوا بالديانة النصرانية عن أصولها السليمة .. وهذا هو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: ٧، فالبدائيات الطيبة حتماً تؤدي إلى خواتيم أيضاً طيبة.

- لذلك أشار المولى إلى صفة وجوه الكتاب الكريم قائلاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ﴿١﴾ قِيمًا﴾ الكهف: ١ - ٢.. وذلك لكونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ الزمر: ٢٨ .

ولما كانت أجمع وأتم وأكمل نقطتين يتعين بهما الصراط المستقيم هما نقطتا البدء والنهاية .. لذا فأول الصراط نقطة ومصباح ﴿أَهْدِنَا﴾ .. وأخره إنعام ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

- الربط بين نقطتي البداية والنهاية كان عبر رحلة الصراط المستقيم التي كانت بدايتها دين الحنيفية كما بشر بها إبراهيم عليه السلام .. ونهايتها إلى دين الإسلام الذي جدد الحنيفية بعد أن درست "أي تهالكت" وانحرف بها بعض أهل الكتاب عن الطريق القيم والذي يحارب في صورته المختلفة الانحراف والتطرف، والاعوجاج سواءً عند اليهود أو النصارى، أو بعض المسلمين ممن حادوا عن الصراط المستقيم.

**دعاء الاستفتاح:** ودعاء الاستفتاح الذي نستهل به الصلاة بعد تكبيرة الإحرام "الله أكبر" .. يصل ويربط بسهولة بين نقطتي البداية والنهاية .. فدعاء الاستفتاح الذي ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن علي بن أبي طالب مركب من سياقين قرآنيين مختلفين، ولكنهما معا في سورة واحدة:

**السياق الأول:** إبراهيمي صرف، حيث يضمنا ويضعنا في تلك الليلة التي اهتدى فيها العقل الإنساني إلى طريقه نحو الإله الحق الذي لا شريك له ولقد كان موقعه وموضعه في الآية التاسعة والسبعين من السورة الكريمة ﴿إِنِّي

وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٧٩ .

وأما السياق الآخر لمركب الدعاء المزدوج: فلقد جاء عبر الآية المائة واثنين وستين من السورة نفسها والمخاطب فيها رسول الله ﷺ، وأتمته من

بعده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الأنعام: ١٦٢ .

**والسؤال الآن:** كيف التحمت وانصهرت التجربة الإبراهيمية بالتجربة المحمدية في وعاء ودعاء واحد على ما بين الآيتين من عشرات الآيات وآلاف الأعوام؟.

لم يكن ذلك إلا عبر قنطرة الصراط المستقيم الموصلة والممتدة بينهما في الآية مائة وواحد وستين من السورة نفسها ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١ .  
فإبراهيم أصل شجرة التوحيد ومهد الصراط المستقيم .. ومحمد ﷺ فرعها السامق في السماء ومنتهى الصراط المستقيم.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ إبراهيم: ٢٤ .

هذه الشجرة موصولة الإيتاء ﴿ تُوَقِّعُ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ إبراهيم: ٢٥ إلى أن تقوم الساعة.

- وإذ ما تتبعنا المسار بين التجربتين عبر زمان البشرية لتبين لنا أن الرحلة بينهما لم تكن عبر نقطتي البداية والنهاية فقط .. بل إن الرحمة الإلهية شاءت أن تكون هناك ثمة نقاط إضافية داعمة .. تحكم وتضبط بوصلة واتجاه المسار بينهما .. لقد تمثل اختيار الاتجاه الصحيح نحو الصراط المستقيم من بين جميع الاتجاهات الأخرى الزائفة من خلال هذه النقطة المضيفة اللامعة ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥ .

وهذه النقطة تلتقي مع نقطة البدء في الدعاء الاستفتاحي الإبراهيمي ..  
فالحنيفية ونفي الشرك تجمع بينهما .. ولكن لماذا كانت هذه النقطة بالتعيين  
نقطة البداية؟.

يجيب عن ذلك السؤال آية آل عمران ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ .

نقطة لامعة حقا لم تتدنس بأي لون من ألوان الشرك .. فلم يكن إبراهيم  
عليه السلام من المغضوب عليهم ولا من الضالين .. بل إن إبراهيم فوق ذلك  
كله كان أمة قانتا جمعت فيه كل خصال الهدى والفلاح ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠ .

ولذلك فقد حث المولى على التوجه والاتباع لملة إبراهيم الحنيفية

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ آل عمران: ٩٥ .

ولقد زكى سبحانه وتعالى هذا الاتباع والتوجه وبيّن لنا حسنه وسلامته.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥ .

وها هي قد اتضحت وتبينت معالم الطريق، بل لقد صار صراطا مستقيما  
واضحا، فلم يعد عددا من النقاط الإرشادية المتتابعة على الطريق .. لقد صار



صراطا مستقيما واضح الدلالة والبدائية ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١ .  
ومن ثم نزل الوحي بالأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفا .. ولقد كان الأمر في آية آل عمران من باب الحفز والحث، وها هو في النحل أمر الهي والتزام.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٣

ثم كان الأمر بالإقامة والاستقامة على تلك الوجهة الحنيفية ....

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ لأنه ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِمَخْلُوقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الروم: ٣٠ .

- لقد كان الحبيب المصطفى سيد الأنبياء ثمرة دعاء أبي الأنبياء نفسه حين

دعا: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ الشعراء: ٨٤ .

فكانت المنة والفضل في إجابة دعاء إبراهيم ..

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

آل عمران: ١٦٤ .

وإذا كان اتجاه الصراط المستقيم كما سبق أن قلنا أوله نقطة دعاء

﴿ أَهْدِنَا ﴾ .. وآخره إنعام " صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ " .. فلقد جمعت

آية النساء بين تلك الهداية بالصراط المستقيم .. والإنعام المشار إليه في قوله

تعالى: ﴿ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۗ النساء: ٦٨ - ٦٩ .

(2) رايات ومصابيح على درب الصراط المستقيم:

وأعني بها أنوار سُلَّم الهداية التي تنير لنا الطريق عبر رحلة الصراط المستقيم.

- المصباح الأول الأصيل: هداية الفطرة

ويتمثل في أصالة فطرة التوحيد في النفس الإنسانية ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ

الَّذِينَ الْقِيَمُ ۗ الروم: ٣٠ .

ويؤكد تلك الأصالة في عالم الذر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ

مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا

أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۗ الأعراف: ١٧٢ .

## - المصباح الثاني: هداية الحواس والجوارح:

فالخلق والتسوية والتقدير والهداية من الفطرة ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾

﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿الأعلى: ١ - ٣ .

فالتعرف إلى الله عن طريق هذه الفطرة أمر سهل ميسور، لا يحتاج إلى علم غزير، أو نظر فلسفي .. وإنما يكفي فيه إيقاظ الحواس الظاهرة والباطنة من خلال الفطرة الخالصة في صفحات هذا الوجود: في الأرض أو في السماء: في الليل أو في النهار: في الحياة أو في الممات: في النبتة الصغيرة أو الشجرة الباسقة .. نظرة واحدة ترى العقل شواهد ناطقة بقدرة الخالق العظيم. ﴿سَرَّيْهِمْ عَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي

السَّمَاءِ رِزْقٌ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الذاريات: ٢٠ - ٢٢ .

ولقد كانت سلامة الفطرة هذه سببا في اهتداء إبراهيم إلى مولاه سبحانه وتعالى حين نظر بحواسه الظاهرة إلى ملكوت السموات والأرض

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

الْمُوقِنِينَ﴾ الأنعام: ٧٥ .. ومن ثم اهتدى إلى مولاه .. بل إنه أعلنها صراحة

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا

مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٧٩.

### - المصباح الثالث: استجابة الفطرة بنور العقل:

وهو من شأنه حث الوجدان ليفيق العقل من سباته، فالكون يقوم على ناموس واحد، ترتبط جميع أجزائه، وهو من صنع إرادة واحدة، هي إرادة الله، ولو تعددت الآلهة لتعددت النواميس، فتصادم الكون، واضطرب وفسد.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِ

بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا

وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَرَاهُمْ يُعْرَفُونَ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا

يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿النمل: ٦٠ - ٦٥ .

- المصباح الرابع: مصباح نور الكتاب وحامل راية نوره:

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿ابراهيم: ١ .

ويأتي على رأس رايات الكتاب مصباحه ونوره الأسنى، فاتحة الكتاب نفسها .. بل هي صراط ودرب الكتاب الكريم كله، أليست هي فاتحة الكتاب وأم الكتاب ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمَّرِ

الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿الزخرف: ٣ - ٤ .. فهي أعلى الرايات على قمة الهرم القرآني .. تجمعت أنوار الكتاب الكريم كله في بؤرة ومركز نورها

" أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ " .. وكان حامل راية هذا النور على الصراط

المستقيم الحبيب ﷺ ﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿يس: ١ - ٤ .. وهو الذي أخذ بيد الأمة إلى راية وقبله الهداية .. إلى الصراط المستقيم.

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿البقرة: ١٤٢ .

## - المصباح الخامس: مصباح الدعاء:

ويأتي على قمة سنّام ورأس الدعاء، أول دعاء في الكتاب كله ﴿ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فكان هذا الدعاء من أعظم هدايات القول والدعاء

﴿ وَهُدًوَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًوَا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾ الحج: ٢٤ .

ومن ثمّ فقد تمثلت إجابة الدعاء على لسان الحبيب المصطفى ﷺ

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمران: ٥١ .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ الأنعام: ١٥٣ ..

والثمرة أنه: ﴿ وَمَنْ يَعْنِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

آل عمران: ١٠١

.. وهذا هو غاية الغايات ورؤية الرايات.

## مباحث الصراط المستقيم

### 1) الفرق بين الصراط .. والطريق .. والسبيل:

الطريق هو السبيل الذي يُطرق بالأرجل أي يُضرب .. ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ

طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ طه: ٧٧... وعنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في

فعل محمود أو مذموم .. قال تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ طه: ٦٣ .

فمن الطريق أو المسلك المحمود قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأحقاف: ٣٠ .

وعن الطريق المذموم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ

لِيَعْفَرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

النساء: ١٦٨ - ١٦٩ .

إذن فالطريق لا يقتضي سهولة .. وقد يكون محمودا أو مذموما

والصراط .. بالمقابل هو الطريق المستسهل والطريق السهل .. قال

الشاعر:

حشونا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط

حيث الذل هنا خلاف الصعوبة .. وليس من "الذل" الذي هو خلاف "العز"

إضافة إلى اختصاص الصراط إذا أطلق بما هو الحق .

## وأما الفرق بين الطريق والسبيل:

فالسبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق.. فمن الأول نقول: سبيل الله، وطريق الله .. ومن الثاني نقول: سبيلك أن تفعل كذا .. ولا نقول: طريقك أن تفعل كذا .. فالسبيل يراد به سبيل ما يقصده فيضاف إلى القاصد.

- وأما عن الفرق بين الصراط والسبيل فهو مدار وموضوع بحثنا خلال الصفحات التالية، نظرًا لما بينهما من أوجه التشابه وأوجه الاختلاف .. فضلاً عن ورودهما معاً في سياق قرآني واحد .. ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المائدة: ١٦ .

- جاء في كتاب "لمسات بيانية" للسامرائي واختيار كلمة "صِرَاط" دون

كلمة "طريق" أو "سبيل" له سببه، ذلك أن "صِرَاط" على وزن فِعَال وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال كالرباط والشداد .. فتشتمل على كل السالكين ولا يضيق بهم فهو واسع رحب، بخلاف كلمة "طريق" فإنها على وزن "فَعِيل" بمعنى "مفعول" مِنْ طَرَقَ بمعنى مطروق .. وكذلك كلمة "السبيل" فهي كأنها فعيل بمعنى مفعول من أسبلت الطريق إذا كثر سابلتها، كالحكيم بمعنى المحكم، والسابلة من الطريق المسلوكة .. يقال سابلة أي مسلوكة .

- كان هذا عن الفارق اللغوي .. فلننتقل إلى بيان الفرق في المعاني

والدلالات.



قبل كل شيء أدعوكم إلى وقفة جدل وحوار بين حرفي السين والصاد .. وقد سبقني إلى هذه الوقفة الجدلية الدكتور العُمري .. وذلك أن أصل كلمة

"الصَّرَطُ" بالصاد هو "السرائط" بالسين .. من الفعل "سرط" بمعنى بلع وابتلع .. والبلعوم يسمى سراطاً، والداء الذي يبتلع الناس والدواب كانت العرب تسميه سرطاناً .. الجذر الأصلي إذن للسرائط هو من الفعل "سرط" أبدلت سينه صادًا .. وإذن فإن سرط بمعنى ابتلع والسرائط هو ما يبلعنا .. إبدال السين صادًا ليس فقط لأجل تقارب مخرجي الحرفين .. إنه ليس لذلك فقط .. إنه التفاوت بين السعتين .. بين السعة الجزئية المحدودة التي يمثلها حرف "السين" .. والسعة الكلية العريضة التي يمثلها حرف "الصاد" . لو أردنا تدليلاً على ذلك فلننظر إلى دلالاتي التقييد والإطلاق في هذين المثليين ..

ففي مقام التقييد يقول تعالى عن طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ البقرة: ٢٤٧ .. فقيد الزيادة في العلم والجسم فقط .. ولذا جاءت لفظة "بَسْطَةً" بالسين .. هذا إضافة إلى الدلالة الفردية الخاصة بطالوت "وَزَادَهُ" .. إضافة إلى تأخر متعلق "بَسْطَةً" وهو "الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ" ليقيدها في هذا الاتجاه فقط ..

وفي المقابل يقول تعالى على سبيل الإطلاق غير المقيد ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ الأعراف: ٦٩ .. فجاء بلفظ "بَصْطَةً" بالصاد .. هذا إضافة

إلى الدلالة الجماعية حيث قال: "وَزَادَكُمْ". إضافة إلى تقدم متعلق "بَصَّطَةً" وهو "فِي الْخَلْقِ" عليها لإفادة الإطلاق.

- وانظر إلى هذين المثليين أيضا نجدهما يؤديان إلى نفس النتيجة والدلالة

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الرعد: ٢٦.. فقيّد بـ ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾

وأخرها عن يَبْسُطُ . وأما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ البقرة:

٢٤٥.. فقد أطلق بغير تقييد وقدم المتعلق ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة: ٢٤٥.

- انظر أيضا إلى قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا﴾ الحديد: ١٣.. فهو

مقام التقييد بدلالة بَيْنَهُمُ حيث معنى السور هنا الحصن ..

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إطلاق حيث يعم النفخ كل الخلائق.

الإبدال .. إذن ليس فقط لنقارب مخرجي الحرفين ولكنه فرق دلالات السعة الجزئية المحدودة والسعة الكلية العريضة .. وفوق كل ذلك ما تدل عليه "الصاد" من معاني العلو مع الجهارة والإطباق .. وما تدل عليه "السين" من معاني السكت والهمس والسكون ..

وانظر إلى دلالة قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ النحل: ٢٣

بدلالة السين على السر والهمس، وقوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ بدلالة الصاد على التماذي والتجاوز.

نعود إذن إلى جدل الحوار بين "السين" و"الصاد" .. أو بتعبير آخر إلى دلالات معاني "الصِرَاطَ" بالصاد .. يتبين لنا إذن الطابع الاجتماعي الأُممي للصراط وهو ما يميزه عن السبيل.

فالسبيل يمكن أن يكون سبيلا لفرد، ويمكن أن يكون سبيلا لمجموعة أشخاص، لكنه لن يقتصر كما في "الصِرَاطَ" أن يكون للمجتمع كله .. فلننتبه إلى أننا هنا نتكلم عن صراط وسبيل الدنيا بدلالة السعة الكلية أو الجزئية لكليهما .. وذلك أن صِرَاطَ الآخرة شأن آخر حيث سيكون التركيز فيه على دلالاته الحادة الدقيقة وذلك بدلالات الجهر والإطباق والاستعلاء .. حيث سيكون التركيز فيه على استعلاء البر والجرم الفردي، وكذلك الحسن والقبح الفردي.

وإذا أردت توحيد الكلام فإن مقام السعة الكلية هنا بالصاد مقام سعة رأسية، فهي سعة كيف وحال لا سعة كم وعدد .. التركيز إذن على العمق والعلو والارتفاع الكيفي لأعمال الفرد، وهذا هو جانب الكثرة والسعة الرأسية المنظورة هنا.

- نعود إذن إلى صراط الدنيا ذي الطابع الأُممي التجريبي العريض، حيث يمكنك دوما التصحيح والعدول إلى سبيل الحق في أي وقت .. وأول ما يلفت النظر أن السبيل ليس واحدا بالضرورة .. إنه سُبُل في أحايين كثيرة

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إبراهيم: ١٢....

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

العنكبوت: ٦٩ .

### الصراط في المقابل واحد لا يتعدد:

ما الذي تعنيه تعددية السبيل .. في مقابل أحادية الصراط؟ وما العلاقة التي تربط بينهما؟.

### (2) دلالة أحادية الصراط في مقابل تعددية السبيل:

ذَكَرَ الصراط مفردا معرَفا بتعريفين: تعريفا بالألف واللام، وتعريفا بالإضافة .. وذلك يفيد تفرده واختصاصه وأنه صراط واحد كما في قوله

تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾... وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

الأنعام: ١٥٣ .

فوحده لفظ الصراط و"سبيله" .. وجمع السبل المخالفة .. فالصراط المستقيم هو طريق الإسلام وهو دين الله .. ووصفه بالاستقامة ليدل على أنه أقصر الطرق وأقربها إلى المطلوب هو مزيد اختصاص وتفرده لهذا الصراط. التعدد المحمود للسبل هو التعدد الذي يؤدي إلى صراط واحد.

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ  
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة: ١٦ .

إنها السبل التي تسبق الصراط، والمضي في هذه السبل يمهد للوصول إلى الصراط المستقيم ويؤدي إليه .. إنها تعددية تقوم على ضوابط وحدود .. فهي سبل متعددة تؤدي إلى صراط واحد تماما هي مثل روافد متعددة ستصب كلها في نهر واحد .. وهذه السبل ليست سبلا على إطلاقها .. إنها سبل مشروطة مربوطة دائما مقيدة لكي تكون سبل الفلاح المؤدية إلى الصراط المستقيم، وهكذا فإن الخطاب القرآني يضيف السبل إلى ما يقيد بها برباط السلامة والأمان والصحة.. ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ . ورباط نسبتها إليه سبحانه.

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إبراهيم: ١٢ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

العنكبوت: ٦٩ .

وبالمقابل .. فإن الخطاب القرآني حينما يطلق "السبل" معرفة بالألف واللام هائمة غير مقيدة أو مربوطة برباط السلامة، غير منسوبة إليه سبحانه

وتعالى .. فإنها تكون سبل ضلال ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

إن لم يكن كل السبل تؤدي إلى الصراط المستقيم .. إنما هي سبل محددة مقيدة بذلك الرباط الأسمى والأسنى .. الرباط الإلهي التي يجعلها تصب في الصراط المستقيم.

انظر إلى خريطة السبل والأفعال المحمودة تجد كلا منها "سبيل الله" .. ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٠ .. ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٥... ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ٢١٨ .. ﴿ هَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الحج: ﴿ أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٧٣ .. ﴿ ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ النساء: ٩٤ .. ﴿ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ التوبة: .. ﴿ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٤٦ .

فهذه الأفعال كلها من قتال وإنفاق وجهاد وهجرة لا تكتسب مكانتها الخاصة إلا عندما تصب في سبيل الله .. أي عندما تكون سبيلاً موجهاً نحو الصراط.

والسبيل لا شكل هندسي له .. إنه مفتوح لا شيء يحده من الجهات الأربعة .. هو دائماً بعد واحد المهم فيه اتجاهه ومساره المحدد إلى سبيل الله .. السطح الذي يجمع كل اتجاهات السبل هو أرضية الدوافع والقيم التي تؤدي إلى الصراط.

**الصراط على النقيض تماماً ..** فمعانيه التي تدور حول الابتلاع - كما سبق أن أوضحنا - تؤدي بنا إلى صفته وسمته المميزة .. وهي الإحاطة من جميع الجهات .. هو ليس مجرد بعد واحد على أرضية وسطح القيم والدوافع كما في السبيل .. بل هو كل ما يحيط بنا .. يتجاوز في ذلك الأبعاد الثلاثة التي نعرفها بإضافة البعد الزمني إليها كبعد رابع .. ويشير إلى هذا الامتداد المكاني والزمانى لفظة "المستقيم" بدلالاتها على الامتداد والاستقامة فضلا عن دلالتها الصحيحة على قيم الصراط.

الصراط المستقيم إذن نمط حياة كامل يبتلع العقل والقلب والروح الوجدان إنه نمط حياة تصير فيه القيم والمبادئ مشروعاً متكاملًا، وسلوكاً معاشاً واقعاً.

### **(3) دلالة قيد الصراط بالمستقيم:**

وقع لفظ الصراط بأشكاله المختلفة في القرآن خمسا وأربعين مرة .. منها ثلاث وثلاثون مرة للصراط المستقيم.. وفي المواضع الأخرى كان الصراط السوى<sup>(1)</sup>.. وسواء الصراط<sup>(2)</sup>.. وصراط الحميد<sup>(3)</sup>.. وصراط العزيز الحميد<sup>(4)</sup>..

ويلاحظ أن الصراط الذي يمثل هذه الصفات هو ما يتفق مع معناه الذي يلزمه في المؤلف من الكلام، حتى عند إطلاق اسم الجنس دون تخصيص

---

1- طه 130.

2- ص 22.

3- الحج 24.

4- إبراهيم 1.

نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُوتُ ﴾ المؤمنون: ٧٤ .

السؤال الآن لماذا هو الصراط المستقيم؟ ألم يكن يكفي تعريف "الصراط" بأل بعد أن أصبح معهودا للمخاطب، عينته في ذهنه هذه الإشارة ﴿ هَذَا صِرَاطِي ﴾ .. بإضافته إلى المولى سبحانه وتعالى في قوله:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

- بمعنى لماذا التقييد دائما بالمستقيم؟ هل لأن المستقيم أقصر طريق يصل بين نقطتين؟ .. ولماذا وقد علمنا أن صراط الدنيا صراط معنوي؟  
الإجابة بإيجاز .. لأن الصراط المستقيم هو أقصر طريق إلى الفطرة الخالصة النقية القيمة كما خلقها سبحانه وتعالى دون تبديل ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الروم: ٣٠ .. إقامة الوجه لدين الله حنيفا إذن هي ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هي أقصر الطرق إلى فطرة التوحيد ..

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١ ..

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ مريم: 36....



﴿ وَمَنْ يَعْنِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ آل عمران: ١٠١ .

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى الاحتكام لهذه الفطرة المركوزة في القلب عند تعارض الآراء، "استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك" (1).

وصف الصراط بالاستقامة إذن هو تعريض بغيره من السبل، سبيل المغضوب عليهم، وسبيل الضالين، وسبيل المشركين والدهريين .. وكل ما

يدخل تحت ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

الأنعام: ١٥٣ ..

هو تعريض بكل سبيل غير هذا ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: وهذه السبل ليس

فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (2) الأنعام: ١٥٣ .

ولذلك فإن إبليس اللعين وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل حين سأل

المولى ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ص: ٧٩ .. فأنظره وأمهله المولى

1 - مسند الدرامي باب القول عند الجماع ج 2 / ص 1649 .

2 - سبق تخريجه .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ص: ٨٠.. أعلن أنه سيتربص ويترصد ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وليس أي صراط غيره ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الأعراف: ١٦ يصد عنه كل من يهم باجتيازه، لأنه طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضا الله عز وجل .. وأنه للحيلولة بين عباد الله المؤمنين والصراط المستقيم سيأتي البشرية من كل جهة، ﴿ ثُمَّ لَاتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٧.

#### 4) الصراط المستقيم والفرقان والوصايا العشر:

- مركب ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.. لم يُذكر بلفظه هذا في القرآن سوى مرتين في فاتحة الكتاب: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.. والثانية في سورة الصافات ﴿ وَءَاتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الصافات: ١١٧ - ١١٨ بنفس فعل الهداية المُعدَّى بنفسه.

- ولقد جُمع بين القرآن والفرقان حينما أنزل على النبي في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة: ١٨٥

- وجمع أيضا بين الكتاب والفرقان الذي أنزل على موسى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ٥٣.

- ولقد جاء نزول الفرقان مفردا على النبي ﷺ في قوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١ .

- واختص الرسول ﷺ بيوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى

عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الأنفال: ٤١ .

- وجاء ذكر الفرقان أيضا مفردا مع موسى وهارون في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْتَفِعِينَ ﴾

الأنبياء: ٤٨ .

- وجمع بين الكتاب الذي انزل على محمد ﷺ والتوراة والإنجيل التي

أنزلت على موسى وعيسى والفرقان في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ

وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ آل عمران: ٣ - ٤ .

ما دلالة ذلك كله؟

إن الجمع بين هذه المقدمات سيؤدي بنا إلى الوصول إلى حقيقة أن الفرقان هو الصراط المستقيم .. وأن تفاصيل الفرقان والصراط المستقيم هي الوصايا العشر التي أنزلت على موسى .. وهذا ما سوف نوضحه في الفقرة التالية .. ويليها التأكيد على كون الصراط المستقيم والفرقان والوصايا العشر

هي النعمة المشار إليها في الفاتحة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ الفاتحة: ٧ .

### (أ) الوصايا العشر.. هي الصراط المستقيم والفرقان:

جاء لفظ ﴿الْفُرْقَان﴾ كما لاحظنا من الشواهد في ستة مواضع في الكتاب الكريم، وفي هذه المواضع الستة جاء مُعَرِّفاً .. ولقد جاء لفظ "الفرقان" لموسى عليه السلام وجاء معه الكتاب .. أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة وجاء الكتاب على حدة ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .. تفرقا عن بعضهما .. ويؤكد ذلك الفصل بين التوراة والإنجيل في آيةٍ مستقلة عن الفرقان إضافةً إلى عطف إنزال الفرقان بالواو في الآية التالية: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ آل عمران: ٣ - ٤

.. ثم أنزل الفرقان أيضا على الرسول ﷺ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

البقرة: ١٨٥ .

وبما أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن .. نستنتج أن الفرقان غير القرآن .. بمثل الطريقة التي جاء بها العطف بين الكتاب والفرقان الذي أنزل على موسى .

لو تأملنا الآيات: "151، 152، 153" من سورة الأنعام .. وهي:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ  
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّهُ كَانَ قَتْلُهُمْ جُرْمًا عَظِيمًا ۖ  
وَالْيَاثِمَ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا  
الْأَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ۖ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا  
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ  
وَالْعَهْدُ كَانَ ذِكْرًا ۖ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدِ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ  
عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ الأنعام: ١٥١ - ١٥٣  
تجدها عشر وصايا.

لو تأملنا هذه الآيات لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أن ﴿الْفُرْقَانَ﴾ المعروف هو الوصايا العشر .. كما أن هذه الوصايا نص عليها بأنها صراط الله المستقيم في ختام الوصايا ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

وارصد في هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الأنعام: ١٥٣  
﴿وَفَنَّفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .. لتتبين الصلة بين الصراط المستقيم  
والفرقان .. ومن ثم الوصايا العشر .

ولنلاحظ الآية التي تلت آيات الأنعام الثلاث وهي الآية 154 الأنعام

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ

شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَالِمِهِمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٥٤ .

وهنا نلاحظ بشكل جلي كيف أن هذه الوصايا جاءت مفصولة عن الكتاب

ولنقارن هذه الوصايا العشر التي أتى بعدها ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ..

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ .. بقوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هُدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

آل عمران: ٣ - ٤ .

وفيها جاء الفرقان مفصلاً عن التوراة والإنجيل ويعني أن الوصايا

العشر أو الفرقان أنزلت قبل محمد ﷺ ولنقارن بقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ .

أي أنها أنزلت على محمد أيضاً ولنقارن ربط الكتاب أو القرآن بالفرقان

في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥ .

وهكذا كان الكتاب أو القرآن واسطةً وعطفاً على الفرقان مع محمد ﷺ  
بمثل ما كان واسطةً وعطفاً مع موسى .

ماذا نستنتج من ذلك؟ نستنتج أن الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت  
إلى موسى .. ثم جاءت إلى محمد ﷺ .. وهي القاسم المشترك بين الأديان .  
لقد تبين لنا أن الوصايا العشر هي الفرقان .. وألحنا إلى أن الوصايا  
العشر هي الصراط المستقيم حين جاء في ختام الوصايا في آية مستقلة  
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ الأنعام: ١٥٣ .

(ب) وللتأكيد على كون الصراط المستقيم، والفرقان، والوصايا العشر ..  
هي بعينها النعمة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .  
نقول: لقد ورد في سورة الفاتحة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وحدد هذا  
الصراط في قوله ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .. فمن هؤلاء الذين أنعم الله  
عليهم .. وجاء معهم الصراط المستقيم لأول مرة؟

إن الناس الذين أنعم الله عليهم بـ ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأول مرة هم  
بنو إسرائيل الذين عاصروا موسى وقد فضلهم على العالمين ﴿ يَبْنِي  
إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة: ٤٧  
.. وهذه النعمة وهذا التفضيل هما ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي أنزل لأول مرة  
في تاريخ الرسالات إلى موسى عليه السلام ..

﴿ وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمْ

الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ الصافات: ١١٥ - ١١٨ .

مرة أخرى الكتاب المستبين والصراط المستقيم .. بمثل ما كان مع

موسى أيضا الكتاب والفرقان ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ٥٣ .. حيث سميت الوصايا والفرقان بالصراط المستقيم ..

لأنها لا تتغير أبدا .. وتفرق بين الحق الباطل .. ومن ينظر ويتأمل ويتدبر في مضمون هذه الوصايا التي حملتها سورة الأنعام يكتشف أنها قوام الدين كله، وأنها قوام حياة الضمير بالتوحيد، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري بينها من معاملات، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله بمثل ما بدأه بتوحيد الله.

**لنلاحظ في هذه المقابلات:**

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ..

تقابلها .. ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٤٧ .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ الصافات: ١١٤ ..



يقابلها: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿

وكذلك ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ البقرة: ٥٣

وكذلك ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴿ الأنبياء: ٤٨ .

وهكذا نرى أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم .. وكل من اتبع هذا الصراط المستقيم إلى يوم الدين هو من الذين أنعم الله عليهم وهو من المهتدين.. وكل من تركه فقد ضل، وكل من عاداه فقد باء بغضب من

الله .. لذلك اتبعها بقوله: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ .

ويعقب صاحب الظلال فيقول: " وننظر في ختام هذه الوصايا فإذا الله سبحانه وتعالى يقرر أن هذا صراطه المستقيم وكل ما عاداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل الوحيد.

(ج) سؤال ما السر في اختصاص موسى وهارون رسولي رب العالمين بالصراط المستقيم؟.

السر في ذلك والله أعلم هو اتصاله بمسألة التحريف والانحراف الذي نال بني إسرائيل أكثر مما نال أمة أخرى من أمم الكتب السماوية ..!! ويبدو هذا جليا في استبيان القرآن لهذا الجانب واستعراض كل مظاهر التحريف التي وصمت بني إسرائيل نفساً .. وتفكيراً .. وسلوكاً .. حتى صار وصف المغضوب عليهم علما عليهم دون غيرهم ﴿ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مَشُوبَةٌ

عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ  
أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿ المائدة: ٦٠ .

لقد حازوا بامتياز قمة الانحراف النفسي بالعداوة ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ  
عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ المائدة: ٨٢ .

كما حازوا بامتياز على قمة الانحراف القيمي ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا  
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ البقرة: ٩٣ .  
بل لقد حازوا على قمة التحريف سلوكاً بقيامهم بالتحريفين للكتاب "عن  
مواضعه " .. "ومن بعد مواضعه".

﴿ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾  
المائدة: ١٣ .

﴿ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهَا ﴾ المائدة: ٤١ .

ويدل على خصوص الآية أعلاه ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾  
الصفات: ١١٨ في المعنى الذي ذكرناه في شأن انحراف بني إسرائيل وتحريفهم  
للكتاب وعلى رأسها التوراة التي آتاها الله موسى وهارون إتباع قوله:

﴿ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ  
الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ الصفات: ١١٤ - ١١٦ . بقوله

تعالى: ﴿وَأَيْنَهُمَا الْكُتُبَ الْمُسْتَبِينَ﴾ الصافات: ١١٧ أي البالغ في البيان والتفصيل كما يشعر بذلك زيادة البنية حيث لم يقل: المبين، وهو التوراة الحقّة غير المحرفة .. ولذلك عطف عليها بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام.

- ولذلك ينص الكتاب الكريم صراحة أنه بعد أن تبين الهدى إلى الصراط المستقيم عن طريق الرسول ﷺ الذي جاء يحمل من عند الله منهجاً كاملاً للحياة البشرية يشتمل على العقيدة والشعائر التعبدية، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلها .. ينص صراحة أنه من يشاقق الرسول ﷺ أي يأخذ شقا وجانبا غير الصف والجانب الذي يأخذه الرسول ﷺ ولم يرض بمنهج الله الذي تبين له .. فعندئذ يكتب الله عليه الضلال، ويوله الوجهة التي تولاهها ويلحقه بالكفار والمشركين، ويحق عليه العذاب المذكور في الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥ .

## (5) وما زال الصراط المستقيم مهتداً:

- الصراط الحق .. الصراط الذي نطلب الاهتداء إليه لم يوصف في الخطاب القرآني في الغالب إلا بصفة واحدة، هي الصفة الأكثر استعمالاً .. فلقد صار الجمع بين ﴿ الصِّرَاطِ ﴾ و﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ من باب المصاحبة اللفظية، فلا نقول ﴿ الصِّرَاطِ ﴾ إلا وأردفنا بعدها ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .. ومعنى الاستقامة إجمالاً هي جماع الأخلاق الإسلامية كما يؤخذ من النص القرآني .. وحسب الاستقامة شرفاً وعلواً ومنزلةً أنها كانت الوصف الجامع للصراط في أم الكتاب فاتحة الكتاب ودستوره الكامل ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمِ ﴾ الحجر: ٨٧.. فكانت هذه الآية الكريمة ﴿ أهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الحرم الأمن الذي ﴿ يَجِيءُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ القصص: ٥٧. لقد كان إبراهيم عليه السلام أمة قاتنا لله حنيفاً شاكراً لأنعمه .. فماذا كانت الثمرة والمكافأة؟ .. ﴿ أَحَبَبُّهُ وَهَدَنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ النحل: ١٢١ .

- إن لفظ المستقيم يعني أكثر بكثير من معنى الامتداد الهندسي المجرد الذي لا يحيد عن تلك الجهة إلى جهة أخرى .. إن مادة الفعل "قوم" التي اشتق منها لفظ ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ لها من ثراء المعاني ما يصعب معه حصر معناها في ذلك المعنى الهندسي الضيق .. وحسب هذه المادة شرفاً اقترانها الدائم في علاقة متلاحمة كالعروة الوثقى مع الصلاة التي هي عماد الدين .. فإن ارتباط الصلاة بالفعل "قوم" عبر المزيد الرباعي "أقام" يضيف إلى

معناها السائد بإدامتها والاستمرار عليها .. معاني البناء والتشييد .. فالصلاة ليست مجرد نية مقرونة بحركة قولية .. بل تشييد لأسس من الأساسات حفر في العمق لأجل تكوين القواعد التي سوف يرتكز عليها صرح حياتك كلها ﴿ فوجدًا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ الكهف: ٧٧ .

- معنى آخر تفيده الإقامة .. وهو معنى "النقل والتحويل" .. يقول تعالى: ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحث أرجلهم ﴾ المائدة: ٦٦ .

فعلى حد تعبير العمري .. فإن الإقامة هنا تعني نقل التوراة والإنجيل .. ومعانيها ووصاياها تحديدا من عالم القيم المجردة، عالم الألواح الحجرية واللفائف الورقية .. إلى ملكوت الواقع ملكوت التجربة الإنسانية وبوتقة تفاعلها وتوازنها .. هي بإيجاز أن تتحول القيم إلى واقع معاش.

- ظل آخر من ظلال معاني الإقامة .. هو تحقيق العدل ومراقبته بحسب

الميزان الذي ورد في الآية الكريمة ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ الرحمن: ٩ .

.. إنه ليس آلة الوزن والفعل فحسب .. إنه مفهوم عام وشامل، مرتبط بالكون القائم على التوازن ﴿ والسماء رفعتها ووضع الميزان ﴾ .. فالإقامة هنا تعني تحقيق عدالة أرضية متوازنة ومتسقة بمثل اتساق البناء الكوني.

- معاني الإقامة هذه إضافة إلى معنى النهضة والنهوض .. يجعل من إقامة الصلاة دورة تدريبية تستغرق العمر كله منذ أن يبلغ الحلم.. دورة تدريبية نلتزم بحضورها خمس مرات كل يوم على أقل تقدير .. من خلالها سوف تعيد فيها شحن طاقتك وبطارياتك التي سوف تنفذ أو تستهلك في أوقات ما بين الصلاة ..

ضح المعاني في كل ركن من أركان الصلاة، بل في كل حركة منها هو بمنزلة ضح الطاقة فيها وفيك.

- ومن معاني الفعل قوم أيضا الأمن كما في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ

الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ المائدة: ٩٧.. ويؤكد هذا المعنى ما جاء في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْتَحِدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ﴾ البقرة: ١٢٥ .

- ومن معاني الفعل أيضا التي تدور حول معاني القيام بالعدل والقسط

والاستقامة كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الروم: ٣٠ وقوله

تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ۝١ قِيَمًا ﴾ الكهف: ١ - ٢.. وقوله تعالى:

﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥.. فالقيمة هنا اسم للأمة القائمة بالقسط

المشار إليها بقوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ آل عمران: ١١٠..

وقوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ النساء: ١٣٥.. أي قولين قوامين بالعدل.

- كانت هذه دلالات مادة الفعل "قوم" بغير زيادة حرفي السين والتاء .. فماذا يضيف هذان الحرفان إلى نهر المعاني؟  
بحسب الاستقامة أن تكون ضد الاعوجاج، ولا تلتقي مع أي من الرذائل، كالغناد والمكابرة والمحال والمكر السيئ والبطر ونقض المواعيق، والنفاق، والكذب والضلال والإضلال .. فليس في شيء من ذلك كله ما يمكن أن يلتقي مع الاستقامة .. الاستقامة تعني استقامة القصد "إنما الأعمال بالنيات" (1) .. فمن حسنت نيته فقد استقام قصده.

يقول العمري في "كيمياء الصلاة" .. "الأمر الملفت للنظر في المستقيم أن زيادة المبني التي دخلت على الفعل، زادت من ربط الفعل بالمعنى، فإن حرفي السين والتاء عندما يدخلان على الفعل ويحولانه إلى مستفعل مثل "مستديم، مستكين" لا يؤكدانه فحسب بل هما يرتبطان به في أثناء عملية تحوله تلك، إنه المعنى المرتبط بعملية التحول "مثل" استنوقت الإبل" .

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إذن بهذا المعنى هو ذلك الصراط الذي تجري من خلاله وفيه عملية التحول والصيرورة .. هي مضمارة السباق الدائر الدائم ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ التوبة: ٧.. نحو التقويم والتصحيح دائماً".

1- صحيح البخاري - فتح الباري - كتاب بدء الوحي ج 1 ص 2.

- إن مُرَكَّب ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يجعل الصراط أشبه بسلاالم كهربائية متحركة لا تنتهي أبدا.. كلما ارتقيت ستعرف أنك يمكن أن ترتقي أكثر، لأنه كما سبق أن قلنا إنه "صراط علوي معراجي" .. وعملية الارتقاء هذه يمكن أن تستمر فلا تنتهي .. ولا قمة .. أو أن القمة بعيدة ذلك البعد الذي يجعلنا في حاجة دائمة إلى ديمومة الصعود والارتقاء لنكون ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ .. ولن يكون ذلك إلا عبر الصراط المستقيم الذي هيا لهذه المعية المباركة في الآية التي قبلها ﴿ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ النساء: ٦٨ .

### القسطاس المستقيم:

سبق أن قلنا.. إن لفظ المستقيم لم يطلق في القرآن الكريم إلا على الصراط "33مرة .. كما مر سابقا" .. وعلى شيء آخر هو "القسطاس المستقيم" .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ الإسراء: ٣٥ ..

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

الشعراء: ١٨١ - ١٨٢ .

القسطاس المستقيم هو الميزان العدل وهو أقوم الموازين، لأنه لا يكتفي ببيان الوزن إجمالاً، ولكنه يفصله ويبينه على نحو دقيق: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي



شَأْنٍ وَمَا نَتَلَوْنَا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ  
تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ  
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ يونس: ٦١ .

النسبة بين الميزان العدل .. والقسطاس المستقيم.. كالنسبة بين الميزان  
العادي، والميزان الرقمي بالجرام وأجزاء الجرام .

لذلك فإن "القسطاس" وأصله من "القسط" الذي هو منتهى العدل ..  
وحرف السين الذي يتوسط مادة قسط هو قب ومحول ميزان، ذلك العدل ..  
ولذلك فإن تكرار السين في لفظة "القسطاس" مع التهيئة والتمهيد بألف المد  
يشير بالأمان والاطمئنان لهذا الميزان .. يتبعه السين الثانية لتشير إلى الغاية  
المتناهية في العدل .. كما أن إيراد السين في لفظة المستقيم قيد "القسطاس"  
بما يشير إليه مع التاء من معاني التحول والصيرورة والديمومة ما يجعل  
لحرف السين هذا إيقاعاً وصدىً خاصاً بهيمنة واستعلاء هذا العدل.

- إن وجود القسطاس المستقيم هو الخطوة الأولى في التوازن على حد  
تعبير العمري:

"الأمر ليس أن تعرف أن شيئاً محددًا هو أثقل أو أخف من شيء آخر  
وتقف عند هذه المعرفة .. الأمر أن تصنع التوازن بعد أن عرفت .. أن  
تضيف هنا لتتال الاستحقاق وتحذف هنا لتتجو من السؤال .. وهذا هو الحد  
الفاصل الذي يوازن بين الأمور ويضعها في معيار الموازنة .. وهذا بعينه  
هو جوهر ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي هو جوهر الإسلام ..

إنه ذلك المعيار الذي يوازن بين مختلف الثنائيات الموجودة في حياتنا والتي يشكل الصراع بينها قطب الحياة الإنسانية .. التوازن بين الحق والواجب، بين الفرد والمجتمع، بين نفخة الروح وقبضة الطين، بين الغيب والمادة، بين الماضي والمستقبل، بين البناء والهدم، بين الفطرة والاكْتساب .. بين الدنيا والآخرة" ..

وهذا هو جوهر الإسلام لا إفراط ولا تفريط .. الإفراط يحيد بل يجنح بك عن الجادة .. والتفريط يهدر لك حقاً أصيلاً كفله الله لك في الفطرة أزلاً

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

الاستقامة والاستقامة فقط .. بظلال معانيها الغزيرة التي وردت في السياق هي التي تضمن لك التوازن عبر القسطاس المستقيم .. هي التي تضمن لك

البقاء على ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .. بل تضمن لك مكاناً ومكانة ورفعة مميزة

مع ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

وَحَسَنَ أَوْلَادِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ .

- ألم أقل لك من ذي قبل أن ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لا تستقطب

إليها فقط كل معاني الهداية والأمر بالمعروف والإيفاء بالعهد، بل فوق ذلك

كله ﴿ يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ القصص: ٥٧

## صراط الآخرة:

سبق أن ذكرنا أن الصراط المستقيم ليس صراطاً واحداً بل صراطين، صراط الدنيا، وصراط الآخرة.. ويشير إلى صراط الآخرة قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكِبُونَ﴾ المؤمنون: ٧٤ .

وذكرنا أن صراط الدنيا عريض أمني تجريبي معنوي ..وصراط الآخرة حاد حسي غيبي.

ورغم اختلاف ماهية الصراطين فإنهما ليسا منفصلين .. فصراط الدنيا ممتد واصل إلى صراط الآخرة .. بل إن حال الإنسان عند العبور على صراط الآخرة هو تعبير واضح عن أحواله على صراط الدنيا .. فمن هُدى في دار الدنيا إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه .. هُدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته وثوابه .. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه لعباده في هذه الدار الدنيا يكون ثبوت قدمه على الصراط المنسوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون مروره على ذلك الصراط .. فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف .. ومنهم من يمر كالريح ..ومنهم من يمر كشد الركاب .. ومنهم من يسعى سعياً .. ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبو حبوا .. ومنهم المخدوش المسلم .. ومنهم المكردس في النار .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا الصراط، حذو

القذة بالقذة جزاءً وفاقاً.. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النمل: ٩٠ .

- إن سورة الصافات تقدم أنموذجا عمليا يبين مدى التفاوت والمقارنة والمباينة الهائلة بين حال من حاد عن الصراط المستقيم وكذب بيوم الدين .. وحال من التزم الصراط المستقيم وصدق المرسلين وصدق بيوم الدين .. فلنتابع ولنرصد ولنرقب المقارنة.

- فهؤلاء الكفار المكذبون بيوم الدين يستبعدون على القدرة الإلهية أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا عظاما هم وآبائهم الأولين ﴿ أءَا مِّنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الصافات: ١٦ - ١٧ .

ومن ثم يوقظهم المولى بشدة وعنف على مشهدهم في الآخرة مبعوثين، بل ويصور لهم ذلك وهم فيه يضطربون ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ .

وفي ومضة خاطفة بمقدار ما تتبعث صيحة واحدة ينتقل المشهد من مستوى التصوير إلى المعاينة على الواقع والحقيقة الشديدة المهولة المرعبة ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ الصافات: ١٩ .. فجأة بلا تمهيد أو تحضير وإذا هم يصيحون مبهوتين ويقرون ﴿ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .

وإذا بصوت يحمل إليهم النقرع والمفاجأة من حيث لا يتوقعون ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ الصافات: ٢١ .

ثم يوجه سبحانه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ  
وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ الصافات: ٢٢ ..  
الأمر على ما فيه من لهجة حازمة.. فيه تهكم واضح .. في قوله:

﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ الصافات: ٢٣ .. فما أعجبها من هداية خير منها  
الضلال .. وإنما لهى الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم  
.. وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم فليهتدوا اليوم إلى صراط  
الجحيم!.

ويال المفارقة..! فبعد آيات قصار في العدد والطول يصور المولى  
سبحانه وتعالى الوجه المقابل للعذاب الأليم للمكذبين بالنعيم المقيم للمصدقين  
وهم يتقلبون في أعطاف وأطاف هذا النعيم ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى

سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ الصافات: ٤٠ - ٤٩ .

وتكمن قمة المفارقة حينما يستعيد أحد المنعمين طرفا من ماضيه يقصه  
على إخوانه فيذكر أنه كان له قرين يتلاحى معه ويتخاصم ويكذب بيوم البعث  
والدين ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي

قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا

لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ الصافات: ٥٠ - ٥٣ .

وبينما هو ماضٍ في قصته في سمره مع إخوانه، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ليعرف مصيره وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم الذي هداه إليه ﴿صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فيطَّلَعُ ويدعو إخوانه إلى أن يَطَّلِعُوا معه ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

الصافات: ٥٤ - ٥٥ .

لقد سار على ﴿صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ..وها هو الآن ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ووسط الجحيم يناديه صاحبه وهو في جنه النعيم ﴿تَأَلَّهَ إِنَّ كِدْتَ لَتُرْدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ الصافات: ٥٦ - ٥٧ .

وبعد بآيات قصار في العدد والطول أيضا يطالعنا مشهد جديد على درب وصراط الجحيم فبينما كان الأمر أوله ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ثم ﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ها هو قد دُفِعَ مقهورا إلى ﴿أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ عند مقره وماله عند شجرة الزقوم، طعام أهل النار ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾ الصافات: ٦٤ .

هذه هي رحلة الذين لا يؤمنون بالآخرة .. فهم أولا عن الصراط الذي يؤدي إلى نعيم الآخرة ناكبون ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ .. وهم ثانيا بالأمر المباشر من المولي ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ... ثم هم ثالثا في ﴿سَوَاءَ الْجَحِيمِ﴾ .. وفي نهاية المطاف بجوار ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ويا له من سوء مقر ومستقر.

- مشهد آخر يوضح حال أهل الإيمان ولقد نالوا ما نالوا عبر الاستقامة المتمثلة في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .. ولقد دعا الإسلام إلى الاستقامة بأسلوب شائق يستهوي الأنفس ويؤثر في أعماقها بما وعد المستقيمين من الأجر العظيم وحسن المثوبة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ فصلت: ٣٠ - ٣٢.

ويطمئنهم المولى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف: ١٣ .. أي لا خوف عليهم من عذاب يوم القيام ولا هم يحزنون بما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

- جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: أوصني يا رسول الله .. فأجابته الرسول ﷺ بهذه الكلمة الموجزة الوافية "قل آمنت بالله ثم استقم" (1) .. فالاستقامة هي أقوى سبب للرقى الأدبي والفلاح الأخروي .. وما سيطرت هذه الرغبة في قوم إلا صلح حالهم واستقر السلام فيما بينهم ونالوا ما أعده الله لهم .. وتلك ثمرة من ثمرات الصراط المستقيم.

### عبور الصراط المستقيم ومن يجبس عليه ويزل منه:

الصراط هو جسر ممدود على جهنم، وهو أحد من السيف وأدق من الشعر، وسرعة الناس فيه على قدر أعمالهم، فالمؤمن كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل

ويوجد على الصراط خطاطيف مأمورة، فمن الناس من ينجو، ومنهم من يخذل ومنهم من يخطف ويلقى في قاع الجحيم .. والناس كلهم يمرون على الصراط بما فيهم الرسل .. وإن أول من يجوز الصراط "محمد" ﷺ ثم أمته ومن بعدها سائر الأمم. روى من حديث حذيفة، وذكر مسلم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري وفيه " ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم " قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال .. "دحض مزلة" (2) فيه خطاطيف (3) وكلايب (4) وحسكة (5) تكون فيجذب فيها شوكة يقال لها

1- مسند الإمام أحمد - ج 4 - ص 384.

1- المزلة والمدحضة بمعنى واحد .. وهو الموضع الذي تنزل فيه الأقدام ولا تستقر .

2- خطاطيف .. جمع خطاف وهو حديدة معوجة .

3- كلايب .. جمع كلوب أو كولايب وهو حديدة مصفوفة الرأس .

4- حسكة .. هي شوكة صلبة من حديد .



السعدان .. فيمر المؤمنون كطرف العين، كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل ..  
والركاب.. فجاج مسلم ومخدوش مرسل، ومكردس في النار" (1).  
وقال ﷺ في حديث ذكره أبو الفرج الجوزي قال: ﷺ الزالون على  
الصراط، وأكثر من يزل عنه النساء.

### **القنطرة التي بين الصراط والجنة .. أو صراط الآخرة الثاني**

إذا خلص من خلص من الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص منه إلا  
المؤمنون الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم حسبوا على صراط  
آخر خاص لهم، ولا يرجع من هؤلاء إلى النار أحد إن شاء الله لأنهم عبروا  
الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه وأوقعه  
ذنبه، وأرأى على الحسنات بالقصاص جرمه ..

عن أبي سعيد الخدر قال: قال رسول الله ﷺ.. يخلص المؤمنون من  
النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم  
كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي  
نفسى محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في  
الدنيا" (2) .

قال ابن حجر في الفتح ولأصل الحديث شاهد من مرسل الحسن أخرجه  
ابن أبي حاتم بسند صحيح قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: "يُحبس أهل

---

1 - المستدرک على الصحيحين للحاكم - كتاب الأهوال ج4- ص 626 ح 7836.

2 - صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ج8 ص 139.

بعدها يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل".  
وقد ذكر الدار قطني حديثاً ذكر فيه: أن الجنة بعد الصراط، أي الصراط الثاني أو القنطرة.

### الصراط المستقيم يُجبي إليه ثمرات كل شيء:

ترتبط مراتب الهداية والارتقاء ارتباطاً وثيقاً بنوعي الهداية المعروفين بهداية الدلالة والبيان وهداية المعونة والتوفيق .. وليس هناك ثمة فواصل أو حواجز بين الهدائيتين، فسلم الارتقاء على الصراط المستقيم لا ينتهي ولا قمة .. أو أن القمة بعيدة ذلك البعد الذي يجعلنا في حاجة دائمة إلى ديمومة الصعود والارتقاء لنحظى بأن نكون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء: ٦٩ .

لذلك فإن الدعاء في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .. هو في الحقيقة دعاء للهدائيتين معا لا أحدهما فقط . فكل نقطة أو درجة على سلم الصراط المستقيم هي هداية معونة بالنسبة إلى النقطة أو الدرجة التي قبلها .. وهي في ذات الوقت هداية دلالة إلى الدرجة التي بعدها.

- فصرط الله في نفسه صراط قويم .. وهو للمستهدى صراط مستقيم .. والسين فيه والتاء سبب البسط والتحقيق .. هي أشبه بكرة من بساط .. كلما تقدم صاحبها بطلب الهدى بسطت أمامه من بكرتها "بسطة هدى" بقدر التزامه ودوامه .. وإذا تخلف أو توقف طلبه عن الهدى لضعف أو تعثر أو

انحراف .. توقف بسط بساط الهدى .. فإذا ما استأنف توبته وأوبته وطلبه للهدى استأنف الصراط المستقيم بسطه وتحققه.

- إن الدعاء ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو النهر الذي تصب فيه كل روافد الدعاء في الكتاب الكريم .. هو بالتعبير القرآني الدعاء الذي ﴿ يُجِيبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ القصص: ٥٧ من الدعاء في الكتاب الكريم.  
- يُجِيبُ إِلَيْهِ دَعَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ..

- يجبي إليه دعاء آدم أبي البشر ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٢٣ ..  
فكانت الثمرة أن تاب الله على أبينا آدم ﴿ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٣٧ .

- يجبي إليه دعاء نوح" ... ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود: ٤٧ ..  
فكان من بركات هذا الدعاء أن الله سبحانه تعالى استجاب لضراعه فقال مخاطبا إياه ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْعُهُمْ ثُمَّ يُمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود: ٤٨ .

- يجبى إليه دعاء أبي الأنبياء إبراهيم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥..  
 فكانت ثمرة الدعاء أن جعل الله هذا البلد حرماً آمناً ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ القصص: ٥٧ .

- إن الحبيب المصطفى ذاته كان ثمرة دعاء أبي الأنبياء إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٩ .

فكانت الثمرة ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ آل عمران: ١٦٤ .

- يجبى إليه دعاء موسى ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ ﴿٢٥﴾ وَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۖ ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ طه: ٢٥ - ٢٩ .

فكانت الثمرة في نهاية الدعاء ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ طه: ٣٦ .

- يجبى إليه دعاء زكريا ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران: ٣٨ .

فكانت الثمرة ﴿ فَنادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .  
آل عمران: ٣٩ .

- ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لا يجبى إليها دعاء الأنبياء فقط .. بل ويجبى

إليها دعاء كل طوائف المؤمنين .. من ذلك الدعاء الجامع ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ ﴾ البقرة: ٢٠١ .. فكان من بركات هذا الدعاء أن قال عنهم المولى

﴿ أَوْلَيْتِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ البقرة: ٢٠٢ .

- يجبى إليه دعاء الفئة القليلة المؤمنة التي وقفت مع طالوت لقتال

جالوت وجنوده ﴿ رَبَّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٥٠ .. وكانت ثمرة الدعاء المبارك

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ

الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ البقرة: ٢٥١ .

- يجبى إليه ثمره الدعاء بالغفران ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة: ٢٨٥..

فبشرهم المولى بهذه البشرى ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا

مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ .. وزاد بأن ألهم عباده هذا الدعاء:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا

كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦ .

- يجبى إليه دعاء الراسخين في العلم الذين آمنوا بكل الكتاب محكمه

ومتشابهه، ولذا فقد كان دعاؤهم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ

لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران: 8.

- يجبى إليه دعاء أولي الأبواب ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا

بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ

أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلْإِيْمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا  
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَعَانِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿﴾ وكانت الثمرة ﴿﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ  
 أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴿﴾ آل عمران: ١٩١ - ١٩٥ .

- يجبى إليه دعاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى

﴿ رَبَّنَا ءَانِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ الكهف: ١٠١ .  
 فكانت الثمرة والرحمة الخاصة أن أمرهم المولى ﴿﴾ فَأَوْوَأْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ  
 لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿﴾ الكهف: ١٦ .

- يجبى إليه الدعاء المبارك الذي أمر الله عباده أن يكثروا من تكريره

عند حلول المصائب والبلاء ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ  
 ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون: ٩٧ - ٩٨ .

- يجبى إليه دعاء عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ  
 غَرَامًا ﴾ الفرقان: ١٠٠ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا  
 قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ولذلك استحقوا أن يقول المولى

عنهم: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُ

وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿الفرقان: ٧٤ - ٧٦.

- يجبى إليه دعاء المؤمنين الفائزين برضا الله يوم القيامة عندما يرون المنافقين وقد انطفأ نورهم وصاروا في ظلمة، ويرون أنفسهم يحيط بهم النور من جميع جوانبهم فيقولون وهم يرفعون أكف الضراعة إلى مولاهم ﴿رَبَّنَا

أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿التحریم: ٨ .

- يجبى إليه دعاء حملة العرش من الملائكة وهم يسبحون ويستغفرون

للذين آمنوا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ

بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ

السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿غافر: ٧ - ٩



## سورة الفتح:

سورة الفتح واسمها من أصل مادة اشتقاق الفاتحة (فتح) تقدم لنا نموذجاً عملياً لما يجب إليه من ثمرات ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ حيث جمعت فيها بين الرسول ﷺ وأُمَّته في آنٍ واحد وسياق واحد .. فثمرتها مع الحبيب جزاء المسارعة إلى تنفيذ أوامر المولى سبحانه وتعالى مع الاطمئنان التام لإلهام المولى وتوجيهه والاستسلام الراضي لإيحائه وإشاراته والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية والثقة العميقة بالرعاية الحانية، جزاء التسليم بالدعاء الجامع ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .. فكانت الثمرة فتحة مبينا ومغفرة شاملة ونعمة تامة، وهداية ثابتة أرقى على درج الصراط المستقيم ونصراً عزيزاً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

الفتح: ١ - ٣ .

وكان من فيض رحمته على المؤمنين الذين بايعوا الرسول ﷺ أن رضي عنهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ الفتح: ١٨ - ١٩ .

ثم ها هو يتجه بالحديث عن هذا الفتح بخطاب المؤمنين الذين تلقوه

صابرين ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ

أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

الفتح: ٢٠... فكما منَّ على الحبيب بقوله: ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ منَّ

على هؤلاء المؤمنين بقوله: ﴿ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ الفتح: ٢٠

جزاء طاعتهم وامثالهم وصدق سريرتهم .. فجمع لهم بين المغانم ينالونها،

والهداية يرزقونها ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ النساء: ١٧٥ فتم .. لهم

الخير من كل جانب في الأمر الذي كرهوه واستعظموه .. وهكذا يعلمهم أن

اختيار الله لهم هو الاختيار ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال.

وبفضل تلك الهداية إلى الصراط المستقيم جمع المولى سبحانه وتعالى بين

قمتي التطابق الرسالي الممثل في الرسول ﷺ والتطابق الأممي الممثل في

الامة الطائفة لرسولها.. وبينهما الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لمحمد

وصحابته:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ

ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَفَازَهُ

فَأَسْتَغْلَظُ فَأَسْتَوِي عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ الفتح: ٢٩ .

وكان هذا الختام للسورة الكريمة بخاتم التكريم والرضا الذي يتجلى من خلال اللقطات الوضيئة المتتالية في هذه الآية الكريمة والتي من لطائفها أنها جمعت كل حروف المباني الثمانية والعشرين وهي تتحدث عن رسول الله ﷺ وصحابته .. فاجتمع لها من كمال المباني بمثل ما اجتمع لها من كمال المعاني.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

**" هذا العبدى "**



﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

" هذا العبدى "

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾:

هو صراط السعداء المهتدين الواصلين .. الختام الجميل المأمول المرتجى .. المأمون المنتهى لرحلة الحياة عبر الصراط المستقيم .. هو بالتصوير القرآني مرفأ الأمان الحقيقي لسفينة الحياة التي كان شراعها وشعارها ونهجها في جريانها ورسوها التسليم للمشيئة الإلهية.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَعَرْنَهَا وَمُرْسِنَهَا ﴾ هود: ٤١... ومن ثم كان المستقر الآمن المأنوس مع الصحبة والرفقة الكريمة في الجوار الأثير الكريم جوار الله الكريم

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾

النساء: ٦٩ .

حكاية الاسم الموصول ومضمون الصلة: وأعنى بالاسم الموصول "الذين" ..

وبمضمون الصلة، "صلة الموصول": ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾

أولاً: الاسم الموصول "الَّذِينَ": الاسم الموصول لون من ألوان المعارف التي يستخدمها القرآن في مواضعها استخداماً دقيقاً جديراً بها، فيأتي القرآن الكريم بالاسم الموصول عندما تكون صلته هي التي عليها مدار الحكم. وإذا تأملنا التعبير القرآني عند المحاجة التي وقعت بين إبراهيم عليه السلام، والنمرود، إذ ادعى الأخير الألوهية .. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ حَاجًّا إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ البقرة: ٢٥٨ .

- إن الخصائص الأسلوبية التي تحملها جملة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تختلف تماماً عن خصائص جملة النمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ .

فالخبر قد يحمل من خلال أسلوبه الدافع إلى اعتقاده.. كما أن الأسلوب قد يحمل الدافع للشك في الخبر وإنكاره .. فالمدقق في هذين التعبيرين يرى أن إبراهيم عليه السلام قد أثبت لربه الألوهية من خلال تعبيره .. بينما نفاها النمرود عن نفسه على الرغم من أنه كان يهدف إلى إثباتها .. فتعبير إبراهيم يحمل من القوى الإنجازية ومؤكدات الخبر ما لا يحمله التعبير الآخر .. فتعبير إبراهيم عليه السلام جاء في صورة جملة اسمية ركنيها المبتدأ أو المسند إليه "رَبِّيَ" والخبر أو المسند "الَّذِي" .. وكلا الطرفين أو الركنين معرفة، ومعلوم أن تعريف طرفي الجملة الاسمية وسيلة

من وسائل القصر والتوكيد .. فأبراهيم عليه السلام من خلال هذا التعبير قصر الإحياء والإماتة عليه سبحانه وتعالى، وهذه صفة الإله لا يشاركه فيها احد، والذي أفاد هذا المعنى هو كون هذا الخبر الاسم الموصول "الَّذِي" .. وقد قال عنه العلماء: إنه يستخدم في الدلالة على المعهود المعروف صلته، فأفاد هذا الخبر دوام الاتصاف، وثبات العلاقة بين طرفي الإسناد .. فالإحياء والإماتة ليسا طارئين بل هما ثابتان مستمران متجددان كما يظهر من صلة الموصول "يُحْيِي وَيُمِيتُ" .. فكان التعبير عن هذه الصورة حاملا من خلال عناصره الدافع إلى اعتقاده .. بينما نجد تعبير النمرود "أَنَا أَحْيَى وَأُمِيتُ" تعبيراً يدل على ضعف موقعه وموقفه، ويدعو إلى الشك بالعلاقة بين طرفي الإسناد وبالتالي نفى الألوهية.

فالنمرود، وإن استخدم الجملة الاسمية "أَنَا أَحْيَى وَأُمِيتُ" إلا أن الخبر جاء فعلاً مضارعاً "أَحْيَى وَأُمِيتُ" .. يحتمل الصدق والكذب، ويحتمل الحدوث وعدم الحدوث .. فلم يعط التعبير بهذا الخبر القوى الإنجازية التي استخدمها إبراهيم عليه السلام .. بل كان تعبير النمرود حاملا مبررات رفضه والشك فيه .. على العكس من تعبير إبراهيم ..

إن القوى الإنجازية التعريفية المتمثلة في قوله: "صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" .. بعد تعريف "الصراط" بأل .. ووصفه "بالمستقيم" بما يفيد أنه أصبح معهودا للمخاطب لتوحي بذلك النعيم المقرر في المقام الكريم مع



الصحبة والرفقة الكريمة في جوار الله الكريم .. كما أن الصلة المتمثلة في التعبير القرآني ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ تثير في النفس الشوق والتطلع إلى معرفة عناصر الصحبة والرفقة الطيبة التي توضحها آية النساء في قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ .

### تفاوت القوى التعريفية للاسم الموصول:

ولأن الأسماء الموصولة تتفاوت قوتها ورتبتها التعريفية حيث أن "الذي" وفروعها "التي والذاتان واللتان والذين واللاتي" .. هنا من الموصولات الخاصة التي تفيد تمكن وتحقق الصلة والصفة التعريفية .. بينما تعد "من" و "ما" و "أي" من الموصولات العامة التي تحمل في معناها العموم والإبهام .. وعلى ذلك فإن رتبتها التعريفية تأتي في المرتبة التالية  
المثال القوى الذي يوضح هذا الفارق في الرتبة التعريفية هو ما استهلته به سورة البقرة آياتها حيث كان تقسيم الناس إلى ثلاث فئات:

### أولها: فئة المؤمنین:

وكان السبيل لبيان الصفات الكبرى الوضيئة لهذه الفئة من خلال استعمال النظم الحكيم للاسم الموصول "الَّذِينَ" .. وكان مضمون الصلة في الآية

الأولى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة: ٣٠٠ . وفي

الآية التالية ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ٤ .

وهكذا لم يحتج النص القرآني مع هذه الفئة الواضحة الإيمان أكثر من آيتين لبيان صفات هؤلاء المؤمنين المتقين على الوجه الذي توضحه صلة الموصول .. ومن ثم كان التقرير لأولئك الموصوفين بتلك الصفات والسمات

الظاهرة الوضيئة باسم الإشارة "أُولَئِكَ" الدالة على العلو في الرتبة والمنزلة

على مرتين ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ٥ . بمثل ما

كانت الصلة على مرتين في الآيتين السابقتين.

### ثانيها: فئة الكافرين:

ولما كان التقابل واضحا بين صورة المنقنين وصورة الكافرين ..

استعمل النظم الحكيم أيضا الاسم الموصول "الَّذِينَ" لبيان وصف الكفار الصرحاء الذين وقفوا موقف الكفر الواضح في قولهم وسلوكهم وفي تدابيرهم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٦ - ٧ . وفي آيتين أيضا فقط انتهى من وصف هؤلاء الكفار

الصرحاء العريقين في الكفر .

### ثالثها: فئة المنافقين:

ولأن صورة المنافقين ليست في شفافية الصورة الأول وسماحتها ووضاءتها .. وليست في عتامة وقتامة الصورة الثانية وصفافتها وظلمتها .. ولكنها تتلوى في الحس، وتروغ من البصر وتخفى. ولذلك فقد عدل النظم الحكيم عن استعمال الاسم الموصول "الَّذِينَ" إلى استعمال الموصول "مَنْ" بدلالته على العموم والإبهام والشيوع غير الملحوظ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٨ .

ويدل على هذا الإبهام التبويض في لفظة "ومن" المشفوعة بواو العطف والتي لم يكن لها وجود حال الانتقال من الكلام عن المؤمنين إلى الكلام عن الكافرين .. وهذا إلى جانب أن النظم الحكيم سلك مع هؤلاء المنافقين مسلكاً كريماً طيباً يميل إلى إخفائهم وعدم الكشف عنهم وعدم فضحهم رجاء هداية وتوبة البعض منهم فيما بعد .. وفي هذه المرة احتاج النظم الحكيم لبيان صفات هؤلاء المنافقين إلى ثلاث عشرة آية نظراً لما تنطوي عليه صفاتهم من الالتواء والروغان والتخفي .. وحينما أراد النظم الحكيم أن يضع عليهم علامة حمراء اتقاء شرورهم وخبثهم وكى يتجنبهم السائر على درب الصراط المستقيم .. رفع رتبة التعريف بهم لبيانهم والتحقق من أمرهم .. فعدل إلى استعمال الاسم الموصول "الَّذِي" حين أراد أن يضرب مثلاً لحالهم فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ...﴾

وبهذا يتبين لنا بجلاء ووضوح قمة القوة الإنجازية التعريفية لبيان صراط  
السعداء المهتدين الواصلين في قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ..  
حيث زاده تحديداً وتوكيدا بقوله: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ..  
وذلك لما لهذا ﴿ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ على ذلك النحو من الوضوح والاستقامة  
ما يساعد على الوصول إلى المراد ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ  
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ  
أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ .. وهو ما يقودنا إلى الجناح الثاني من  
الصلة.

### ثانياً: مضمون الصلة:

وهو ما يعني عند أهل اللغة صلة الموصول .. والسؤال الآن من هم  
الذين سأل أهل الصراط المستقيم ربهم أن يلحقهم بهم فيكونوا في رفقتهم  
وصحبتهم؟  
هذا ما أفصحت عنه الآية السابقة إنهم النبيون والصديقون والشهداء  
والصالحون .. حيث المقام الكريم والصحبة الكريمة في الجوار الكريم.  
النبيون: هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله .. جاء رجل من الأنصار إلى  
رسول الله ﷺ، وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: "يا فلان مالي أراك  
محزوناً؟" فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه. فقال: ما هو؟ قال: نحن نغدو  
عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل

إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾<sup>(1)</sup> .. رواه ابن جرير.

وفي صحيح البخاري من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم .. فقال "المرء مع من أحب " .. قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث<sup>(2)</sup> .. لقد كان الأمر الذي يشغل قلوبهم وأرواحهم أمر الصحبة والرفقة في الآخرة وقد ذاقوا طعم الصحبة والرفقة في الدنيا .. وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم .. وفي قوله ﷺ "المرء مع من أحب" أمل وطمأنينة ونور، ولذلك كانت الآية الكريمة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .. وكذلك الآية الكريمة ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

والصديقون: هم الذين صدقت قلوبهم أقوالهم وأعمالهم، فكانت قلوبهم أجمل عند الله من أقوالهم وأعمالهم أمام الناس .. وهم كثيرون الصدق .. قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الأحزاب: ٢٣ .. وقال النبي ﷺ " إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .. منفق عليه<sup>(3)</sup> .

1 - رواه ابن جرير.

2 - صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - ج 8 ص 49 ح 6170.

3 - صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ح 6803.

والصديقون: هم الذين انطوت النبوة بين جنبهم إلا أنه لا يوحى إليهم ..  
ويكفي في فضل الصدق أن الصديق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء  
في معرض المدح والثناء.

فقال: ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ مريم: ٤١.. وقال:

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ مريم: ٥٤

وقال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ مريم: ٥٦.

وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح .. الصدق والحياء وحسن  
الخلق والشكر .. وقال بشر بن الحارث "من عامل الله بالصدق استوحش من  
الناس".

والشهداء: وأولئك هم الذين فازوا وحازوا الصفقة الرابعة مع الله .. كان الله  
سبحانه وتعالى فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع .. فهي بيعة مع الله  
لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه، ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه  
ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله .. فلقد  
باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله .. ولقد قدم الناظم الحكيم النفس  
على المال في موطن وحيد في الكتاب الحكيم لأن الثمن معلوم محدد .. هو  
الجنة .. وهو ثمن غال لا تعدله السلعة ولكنه فضل الله ومنته ..

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ

الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا

فِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ  
فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧١﴾

التوبة: ١١١ .

وانظر إلى هذه الصورة الوضيئة التي يصورها الكتاب الحكيم عن الشهداء

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

﴿ ١٦٩ ﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ

مَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۖ يَسْتَبْشِرُونَ

بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

آل عمران: ١٦٩ - ١٧١ .

يا لها من صورة وضيئة شفيفة رفيعة عالية.. هل تحس أن الشهداء ماتوا  
وأنت تنظر إلى هذه الصورة الوضيئة؟! .. بل هل تصدق أنهم ماتوا؟! ..  
كلا!.. إنهم لم يموتوا أبدا، ولا يموتون أبدا! .. أحياء عند ربهم .. وأحياء في  
الأرض كذلك!.

كل الناس يموتون، فتذهب ذكراهم بعد فترة تطول أو تقصر، بمجرد  
ذهاب الجيل الذي كان يعاصرهم من الناس .. فهل ذهب ذكر الشهداء من  
الأرض؟!.

هل ذهب ذكر حمزة؟ وعمر؟ وعثمان؟ وعلي؟ والحسين؟.. وألوف  
وألوف غيرهم من الشهداء؟.

هل ذهب ذكر المواقع التي استشهدوا فيها، والبطولات التي سجلوها؟ أم أنها باقية للأجيال .. لكل الأجيال .. يتأملونها كأنما هي حاضرة اللحظة؟ كلا! .. لا يموت الشهداء أبدا!.

ويذهب الطغاة فيموتون ! ويتحولون على الأكثر إلى أسطر باهتة في كتب التاريخ ..

﴿ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ مريم: ٩٨ .

ولكن الشهداء الذين قتلهم هؤلاء الطغاة لا يذهبون .. لأنهم لا يموتون ويظلون ذكرى حية في قلوب الأجيال المتتالية .. تظل ذكراهم وبطولاتهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ تُوْتِحُ أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ إبراهيم: ٢٥ لأنهم ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ، ولأنهم قدموا في سبيل الله عملا باقيا لا يموت!.

**والصالحون:** هم الذين أصلح الله قلوبهم وأحوالهم وأعمالهم .. وقيل: هم الذين لا يعتربهم في ظاهر ولا باطن بحول الله فساد أصلا .. ويشير أحد العارفين إلى ذلك حيث قال: " ما صلحت ما دامت فيك بقية لسواه .. ويؤكد ذلك قول أحد العارفين أيضا "الصالحون تولاهم الله تعالى بالصلاح وهم الذين لا يدخل في علمهم بالله تعالى ولا إيمانهم به وبما جاء من عنده سبحانه خلل، فإذا دخله بطل كونه صالحا" .

وقيل: المراد بالصالحين الصارفين أعمارهم في طاعة الله تعالى، وأموالهم في مرضاته سبحانه، وقيل: الصالح هو من صلحت حاله واستقامت طريقته .



ويدخل في زمرة الصالحين المؤمنون الذين تقرر وتحقق لهم الفلاح بالوصف الكريم في العشر آيات الأولى من سورة "المؤمنون".  
يدخل فيهم المتقون الذين كثر ذكرهم ووصفهم في آيات الذكر الحكيم.  
يدخل فيهم المحسنون الذين قال الله فيهم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ النساء: ١٢٥، والذين قال فيهم أيضا ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ لقمان: ٢٢ .

### صراط الذي أنعمت عليهم .. وأصناف المكلفين:

جمع الله أصناف المكلفين في هذه الآية الكريمة، وانتظمهم كلهم .. جاء في كتاب ابن القيم في بيان ذكر المنعم عليهم وتميزهم عن طائفتي الغضب والضلال: "انقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأنَّ العبد إمَّا أن يكون عالمًا بالحق، وإمَّا جاهلاً به، والعالم بالحق إمَّا أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكَّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المُفْلِح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ الشمس: ٩ .. والعالم به المتبع هو هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا

كان اليهود أحق به، وهو منلفظ في حقهم، كقوله تعالى في حقهم ﴿بِسْمَا  
أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ  
فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ البقرة: ٩٠ وقال  
تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ  
وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ  
السَّبِيلِ﴾ المائدة: ٦٠ والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وُصفت  
النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ  
غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا  
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ المائدة: ٧٧ فالآية الأولى في سياق  
الخطاب مع اليهود، والثانية في سياقه مع النصارى، وفي الترمذي وصحيح  
ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ "اليهود مغضوب  
عليهم، والنصارى ضالون".  
ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه والمغضوب عليهم  
وهم من عرفه واتبع هواه والضالين وهم من جهله ما يستلزم ثبوت الرسالة  
والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما  
أوجبها ثبوت الرسالة.

**احتراس .. وتميز:** الحق عز وجل لم يعرف الصراط المستقيم بكونه صراط الذين أنعمت عليهم فقط .. بل عرفه - كما يقول العمري - أيضاً بالتضاد ﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

كان يمكن أن يكون التعريف مقتصرًا على الصفات الإيجابية للذين أنعم الله عليهم: الإيمان، التقوى، الخشوع، الإحسان .. لكن الحق يعلمنا هنا أن الإنعام الحقيقي لا بد أن يُعرّف بالتضاد.. أن تكون هناك قوة تميزه وتمنحه القوام والحصانة والثبوت .. فبالضد تتميز الأشياء.

**الصراط المستقيم:** إذن يُعرّف بثلاثة أشياء لا بشيء واحد .. مثبت واحد .. ومنفيان ..

مثبت يعطيه قوة التميز هو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .. ومنفيان يعطيانه في ذات الوقت قوة الطرد هما:

﴿غَيْرِ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ .. ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ .

### **الاحتراس بالوصلة البديعة:**

في ختام قصة آدم في سورة البقرة .. أخذ الله سبحانه وتعالى العهد الدائم على آدم وذريته، بالاستخلاف في الأرض وشروط الفلاح فيها أو الخسران.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ البقرة: ٣٨ - ٣٩ .

العهد يفصل بين عهد الله وغواية الشيطان .. بين الإيمان والكفر .. بين الحق والباطل .. بين الهدى والضلال .. والإنسان هو ميدان الابتلاء والاختبار، وهو نفسه الكاسب والخاسر .. هو صاحب الغنيمة أو السليب في هذا الميدان ..

ومن ثم يأتي الحديث بعدها مباشرة عن بني إسرائيل:

﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ

وَإِيَّتِي فَأَرْهَبُونَ ﴾ البقرة: ٤٠ .

فما وجه ارتباط وصلة الحديث عن بني إسرائيل مباشرة بعد قصة آدم؟ تأتي قصة آدم بين حديثين عن الكفار الصرحاء، والكفار المنافقين من بني إسرائيل .. وذلك أن سورة البقرة قد بدأت بوصف سمات المؤمنين .. ثم راحت تعرف المؤمنين بعدوئهم المحيطين بهم في ذلك الوقت: المشركين وهم الكفار الصرحاء، وبني إسرائيل وهم الكفار المنافقون .. ثم لكي يبين المولى لماذا وجد هذا الوضع .. وضع وجود مؤمنين وكفار .. أورد قصة الإنسان الأول "آدم" الذي هؤلاء نسله .. المؤمنون منهم والكفار كذلك .. وأورد فيها الموعظة الخاصة بفتنة الشيطان لآدم وإخراجه من الجنة .. ثم جاء ختام القصة ليقول: إن الله عهد إلى آدم أنه سيرسل للناس "هدى" فمن تبعه فأولئك هم الناجون .. ومن كفر به فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

هذا إذن هو منشأ وجود الكفار والمؤمنين في الأرض .. هبوط آدم من الجنة .. وإرسال الهدى من عند الله، فيتبعه بعض بني آدم ويكفر به آخرون..

وإذن فقد جاءت القصة لتفسر وجود المؤمنين وهم الذين اتبعوا الهدى الرباني .. والكفار بشقيهم .. وهم الذين لم يتبعوه .  
 ومن ثمَّ تجيء القصة مدخلا للحديث المطول المفصل عن بني إسرائيل .. وذلك لأن عهد الله لبني إسرائيل هو نفسه العهد المبذول لأبيهم آدم: إن أطاعوا واستقاموا فلهم التمكين والاستخلاف في الأرض .. والجنة في النهاية ... وإن عصوا فلهم الضياع هنا وهناك.  
 فمن هذه النقطة نقطة العهد يبدأ الحديث المفصل المطول عن بني إسرائيل يبين في كل خطوة كيف أنهم خانوا العهد، وكيف أنهم لم يستقيموا، مرة واحدة في تاريخهم كله، على عهد واحد بذلوه.

﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ

بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا

تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾

البقرة: ٤٠ - ٤١ .

ثم يمضي السياق ليوضح تاريخ بني إسرائيل الأسود كله ! كفرهم .. وكذبهم .. والتواؤهم .. وقتلهم الأنبياء بغير حق .. وتبجحهم مع الله سبحانه وتعالى .. واستهتارهم بكل العهود والمواثيق .. وتحايلهم ومكرهم وخداعهم .. وينتهي الحديث الموجه إليهم طيلة هذه الآيات كلها بهذا الإنذار الأخير .

﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا

تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿البقرة: ١٢٢ - ١٢٣﴾.

ولقد كان هذا الحديث ذاته طوال تلك الآيات عن بني إسرائيل بمثل

الحديث عن ﴿الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين ورد ذكرهم في فاتحة

الكتاب .. ثم ينتقل الحديث بعد ذلك ليتوجه إلى المؤمنين ينظم شؤون حياتهم في مجتمع المدينة الجديد .. فكيف انتقل من الحديث إلى بني إسرائيل .. إلى الحديث إلى المؤمنين؟.

لقد جاء السياق بوصلة بديعة تصل بين الحديثين .. وتفرق في ذات

التوقيت بين الأمتين ..

إن الأمتين تنتهيان في النسب إلى إبراهيم عليه السلام .. فهو الجد

المشترك لليهود عن طريق إسحاق .. وللعرب عن طريق إسماعيل .. وهما

ابنا إبراهيم عليهم السلام .. ولقد أعطى الله إبراهيم العهد فجعله للناس إماما

.. وسأل إبراهيم ربه هل يسري هذا العهد إلى ذريته؟ ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ

إِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ، بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ١٢٤﴾.

وإن فقد نبه الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام أن العهد له ثم

لذريته إن استقاموا على العهد، فإن ظلموا فلا عهد لهم عند الله.

ومضى العهد في ذرية إبراهيم عن طريق إسحاق ويعقوب الذي هو إسرائيل .. ثم في بني إسرائيل "أي بني يعقوب" حتى خرجوا عن العهد تماما فانقل العهد منهم إلى الأمة الجديدة وهي من ذرية إبراهيم كذلك عن طريق إسماعيل .. ولكنها أمة مهتدية، ولذلك أورثها الله العهد والكتاب وها هو سبحانه وتعالى يبدأ لهم التمكين في الأرض في البقعة المباركة في مركز الأرض بالبناء الذي أسسته الملائكة ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥ .

وهذه هي أمة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .. وكان ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ذا طبيعة خاصة وشروط خاصة فيه ما فيه من الاحتراس بقدر ما هو فيه من التميز ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . هذا هو اصطفاء واختيار الهداية التي تطلعوا إليها وهفت إليها قلوبهم وأفئدتهم .. هو صراط الذين قسم الله لهم نعمته .. لا صراط الذين غضب عليهم لمعرفة الحق ثم حيدتهم عنه .. أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا إليه أصلاً ..

إنه صراط السعداء الواصلين الذي كان عبر هذه الوصلة البديعة.

**التميز .. ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ العنكبوت: ٤٥ ..**

**﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ البقرة: ١٥٢ .**

شتان الفارق بين أمرين .. شتان الفارق بين حالين .. فهذا النداء العلوي الجليل "يَبْنِي إِسْرَائِيلَ" على مدار ثلاث مرات في سورة البقرة يدعو المولى سبحانه وتعالى بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم داعيا إياهم إلى الإيفاء بعهدهم معه ليوفى بعهدهم معهم.

**﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠ .**

.. فماذا كان منهم؟ .. كان من المفروض أن يؤمنوا بما أنزل الله مصدقا لما معهم ولكنهم كفروا به، بل كانوا أول كافر به .. بل قاموا بتليبس الحق بالباطل، وكتمان الحق ليموهوا على الناس وعلى المسلمين خاصة ويشيعوا الفتنة والبلبله في الصف الإسلامي ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٤١ ﴾

البقرة: ٤١ - ٤٢

ومن ثم يعود النداء مرة أخرى بنفس الأمر والدعاء .. وبنبرة أشد فيها تأنيب بتذكيرهم بأنه فضلهم على العالمين وتخويفهم من اليوم الموعود.....



﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا

عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ البقرة: ٤٧ - ٤٨ .

وكان ذلك في الحقيقة إرهابا بنقضهم العهد والميثاق ونقض اليد منهم ثم مضى السياق بعد ذلك يعدد آلاء الله عليهم، ويبين كيف استقبلوا هذه الآيات وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق، ومن ثمَّ وبعد هذه الجولة الطويلة في تاريخهم المشئوم وقبل الالتفات عنهم ونقض اليد منهم والتهيؤ لخطاب النبي ﷺ وخطاب أمته التي سوف تحمل راية وأمانة الاستخلاف ..

يجئ الالتفات إلى بني إسرائيل مره أخيرة إليهم بالدعوة والإنذار الأخير وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة .. أمانة العقيدة التي نيظت بهم من قديم، وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها من خلال التذكير بالنعمة عليهم بهذا النداء الأخير ﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ البقرة: ١٢٢ - ١٢٣ .

ولكنهم ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴿ التوبة: ٦٧

ولننظر ولنتأمل التوابع .. فإهمال بني إسرائيل .. وإغفالهم وتقصيرهم في العهد مع الله .. وإخفاقهم في حمل الأمانة دعا المولى سبحانه وتعالى أن يذكرهم بما هو من جنس طبيعتهم المقيمة بالنعمة المادية .. (1).

بينما أمة محمد القائدة الراشدة .. الخبيرة البصيرة العالمة، والتي كان القرآن مع توجيهات الرسول ﷺ المستمدة من الكتاب الكريم .. هما مادة التوجيه والتعليم، وكان مسجد الحبيب ﷺ الذي يتلى فيه القرآن ويذكر فيه تلك التوجيهات هو الجامعة الكبرى التي تخرج فيها ذلك الجيل والرعي الذي قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة. لأجل ذلك وعلى نقيض بني إسرائيل .. ناداها دائما بنداء التكليف والتشريف معا.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .. وزاد عليه بأن كان التذكير بالمنعم صاحب النعمة والفضل، فكانوا دائما مع الله المنعم الوهاب الرزاق، وهذا تميز في التشريف بأن تكون مع صاحب المدد مع المنعم لا مع النعمة العارضة ولذلك كان الأمر الرباني لهذه الأمة الراشدة ﴿ فَأَذْكُرُونِي ﴾ البقرة: ١٥٢ ... أي تذللوا لجلالي .. فما ثمرة ذلك ... ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ أي أكشف الحجب عنكم وأفيض عليكم رحمتي وإحساني، وأحبكم، وأرفع ذكركم في الملأ الأعلى.

1 - انظر ما سبق من آيات البقرة 40، 47 ، 122.

ويزيد المولى على ذلك فيأمر بالتجرد في شكره بمثل التجرد لذكره

﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة: ١٥٢.

وهذا وجه التميز والفضل .. ولقد مَيَّز وعزَّز المولى سبحانه وتعالى

منزلة هذا الفضل والذكر فقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥ .

فشتان الفارق بين ذكر النعمة .. وذكر المنعم.

بين الاستدراج إلى حب النعمة .. والانجذاب إلى حب المنعم.

سبحانه فبينما كان يحمل النداء الأخير لبني إسرائيل علامات الإنذار

والإهمال والإغفال والتجريد من شرف الأمانة .. فيها هو سبحانه وتعالى

يجعل ذكره لأمة محمد الراشدة في المأ العظيم .. مكافئاً لذكرهم له في

عالمهم الصغير.

يقول صاحب الظلال: " إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه

الأرض الصغيرة .. وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكركم

يذكركم في هذا الكون الكبير .. وهو الله العلي الكبير .. أي تفضل! وأي

كرم! وأي فيض في السماحة والجود! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ .

إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب

لعطاياه . الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو

سبحانه فياض العطاء.

وفي الصحيح: يقول الله تعالى: « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي،

ومن ذكرني في مآ ذكرته في مآ خير منه" (1).

1 - سبق تخريجه.

## وجه آخر للتمييز: فرق بين حُبين

ماذا يحب أهل الكتاب؟ وماذا يحب المؤمنون؟

لقد ادَّعى أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ﴾ المائدة: ١٨.. فماذا كان رد المولى

عليه ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ المائدة: ١٨.

- وفي سياق آخر يذكر المولى بمناسبة الحديث عن اليهود الحديث عن

الإِنْفَاقِ .. وذلك أن اليهود مشهورون بالشح: يبخلون ويأمرون الناس بالبخل

ثم يزعمون أنهم المقربون عند الله ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ

بِالبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ النساء: ٣٧ .

- وفي سياق إيقاظ المسلمين من غفلتهم حيث يحسبون أن أحدا من أهل

الكتاب أو المشركين يمكن أن يحبهم أو يعاونهم أو يساندهم .. يأتي لهم

المولى بهذا الحديث القرآني ليفيقوا من هذه الغفلة وهذا الوهم ﴿ هَتَأْتُمْ أُوْلَاءَ

مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا

خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ آل عمران: ١١٩.. ثم يأمر الرسول

ﷺ أن يوجه الخطاب إلى تلك الفئة الحاكمة الشاردة ﴿ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ

اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١١٩ .

- من خصالهم الذميمة أيضا أنهم يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، ولأجل ذلك يكشفهم المولى ويفضحهم ويتوعدهم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ١٨٨ .

- كان هذا نمط الحب عند أهل الكتاب .. فلننظر إلى سمت ونمط الحب عند المؤمنين

الحب عند المؤمنين موجه إلى الله مباشرة، ليس ادعاءً ببنوة أو محبة خاصة .. ليس حبا للمال وبخلا وشحا به .. إنه حب آخر .. حب لله بالطريق المباشر .. يحمل معه أماراته .. وهو الاتباع ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران: ٣١ .

الحب في حق أهل الإيمان ليس ادعاء يقال كما ادعى أهل الكتاب، وإنما ينبغي ويجب أن يصحبه عمل صالح دال عليه .. هذه هي علامة الحب الحقيقي وحين ذلك سيحببهم الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ مريم: ٩٦ .

يقول ﷺ حاكيا عن الله في حديث صحيح رواه مالك في الموطأ " وجبت محبتي للمتحابين<sup>(١)</sup> " .. ومراتب محبة الله على أربع .. الحب لله، والحب في الله، والحب بالله، والحب من الله.

1 - الموطأ - باب ما جاء في المتحابين في الله - ج 2 ص 953 ح 1711

الحب من الله ابتداءً، والحب لله انتهاء.. والحب في الله وبالله واسطة  
 بينهما .. فمن أحب الله أحب لقاءه ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ  
 أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الجمعة: ٦ .  
 المحب لله لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته،  
 فمن أحب الله لا يكره الموت إن عرض عليه لأنه يشفق إلى أنس مولاه  
 ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩ .

وبعد فلقد كانت هذه هي طبيعة الاحتراس والتميز لأهل الإيمان عند  
 التماسهم هداية الصراط المستقيم فهي الهداية المحوطة بعناية الله ورعايته من  
 أول الصراط إلى منتهاه ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ النور: ٣  
 ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

### من أسرار النظم والبيان:

تقع ﴿ صِرَاطٌ ﴾ بدلاً مطابقاً لغة ورسماً من الصراط الأول ..  
 وأما ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فقد أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن  
 نحو: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ  
 النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾  
 النساء: ٦٩ .

ونحو ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ الأنعام: ٩ ..

وما وقع على سبيل الاستثناء في سورة العصر ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر: ٣.

وفائدة البدل حين قال:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

ولم يقل: "اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم" كما يقول الزمخشري في كشافه: التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة علي أبلغ وجه وأكده .. فثني ذكره مجملا أولا ومفصلا ثانيا .

ويؤكد ذلك ما سبق أن ذكرناه في فقرة الاسم الموصول "الَّذِينَ"

ومضمون الصلة "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ... من سر إيثار "الَّذِينَ" علي "مَنْ" فلم يقل: "مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" .. وذلك لتمكن وتحقيق مضمون الصلة الذي سبق أن أشرنا إليه وأوضحناه علي سبيل التفصيل .. حيث "مَنْ" رغم أنها معرفة ففيها قدر من الإبهام لشبهها ببعض الحروف التي تكون علي حرفين .. وأما "الَّذِينَ" فهي متمكنة في الاسم والتعريف .. ويؤكد ذلك حذف "الْمُنْعَمَ بِهِ"

لإرادة التنعيم من باب تقليل اللفظ وتكثير المعنى .. فيشمل كل إنعام

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق: ٣٥

- ما سر التعبير بالفعل الماضي عن " المنعم عليهم " .. بينما كان

التعبير ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ بالجملة الاسمية؟

السؤال يتضمن أولا الاستفهام عن سر كون الفعل ماضيا .. فلم يقل "

صراط الذين تنعم عليهم " .

والإجابة على ذلك أنه جعل فعل الإنعام ماضيا، ليبين زمانه، وليبين أن المقصود صراط الذين ثبت إنعام الله عليهم وتحققه .. كما جاء في روح المعاني 97/1 والبحر المحيط 30/1 وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون .. فلو قال " صراط الذين تنعم عليهم " لأغفل كل من مضى من رسل الله والصالحين .. لأن الفعل المضارع أكثر ما يدل على الحال .. فلم يدل على أنه أنعم على أحد فيما مضى ولاحتتمل أن يكون صراط الأولين غير صراط الآخرين .. ولم يفد التواصل بين زمر المؤمنين من لدن آدم عليه السلام إلي قيام الساعة .. ثم إن الإتيان بالفعل الماضي يدل على أنه كلما مر الزمن كثر عدد الذين أنعم الله عليهم .. لأن الحاضر يلتحق بالماضي .. وهكذا تتسع دائرة المنعم عليهم بمرور الزمن.

ويتضمن السؤال ثانيا: سر التعبير — ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ ﴾ بالاسم ليشمل كل الأزمنة كما جاء في البحر المحيط 30/1.

- ويترتب على ذلك سؤال آخر: لماذا لم يقل " صراط المنعم عليهم "

ليشمل سائر الأزمنة أيضا؟ ... أو لماذا قال: " غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ " ..

ولم يقل " غير الذين غضبت عليهم " ؟ .



نقول وبالله التوفيق .. إنه لو قال: " **الْمُنْعَمَ عَلَيْهِم** " لم يبين النعيم الذي أنعم عليهم .. والنعمة إنما تقدر بقدر المُنْعَم .. فما بالك والمنعم هو الله الخالق الرزاق الذي لا منتهى لعطائه ورزقه .. ففي قوله: ﴿ **أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ من التكريم وعظم النعمة ما ليس في قوله " **المنعم عليهم** " .. هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى يقول ابن القيم في مدارج السالكين: " لإضافة النعمة إلى الله وحذف فاعل الغضب وجوه:

**الوجه الأول:** أَنَّ النِّعْمَةَ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ، وَالغَضَبُ مِنْ بَابِ الْإِنْتِقَامِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةَ تَغْلِبُ الْغَضَبَ، فَأَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ أَكْمَلَ الْأَمْرَيْنِ، وَأَسْبَقَهُمَا وَأَقْوَاهُمَا، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي إِسْنَادِ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ إِلَيْهِ، وَحَدَفَ الْفَاعِلِ فِي مُقَابَلَتِهِمَا، كَقَوْلِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ ﴿ **وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ الجن: ١٠

وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ فِي شَأْنِ الْجِدَارِ وَالْيَتِيمَيْنِ ﴿ **فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا** ﴾ الكهف: ٨٢ ناسباً  
الخير لربه وَقَالَ: فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ ﴿ **فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ الكهف: ٧٩ ناسباً  
الضر لنفسه ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ **وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ الكهف: ٨٢ فنسبة النعمة والفضل إلى الله أمثل وأكمل.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُفْرَدُ بِالنِّعَمِ ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ

فَمِنَ اللَّهِ ﴾ النحل: ٥٣ فَأُضِيفَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مُفْرَدٌ بِهِ، وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى غَيْرِهِ فَلِكُونِهِ طَرِيقًا وَمَجْرَى لِّلنِّعْمَةِ، وَأَمَّا الْعُضْبُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَلَا يَخْتَصُّ بِهِ تَعَالَى، بَلْ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَآؤُهُ وَرُسُلُهُ وَأَوْلِيَآؤُهُ يَغْضَبُونَ لِعُضْبِهِ، فَكَانَ فِي ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ مغضوب عليهم من كل الجهات ولذلك أثر التعبير عنها بالاسمية.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّ فِي حَذْفِ فَاعِلِ الْعُضْبِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِإِهَانَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَتَحْقِيرِهِ وَتَصْغِيرِ شَأْنِهِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ فَاعِلِ النِّعْمَةِ مِنْ إِكْرَامِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَالْإِسَادَةِ بِذِكْرِهِ، وَرَفَعِ قَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ .

كما أنه في جعل كل من المغضوب عليهم والضالين اسما دلالتيه على

الثبوت والدوام فلا يرجى لهم خير ولا هدى .. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ

كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٢.

- سؤال آخر: ما فائدة دخول " لا " في قوله تعالى " وَلَا الضَّالِّينَ " ..

فلم يعطف على المغضوب عليهم بقوله: " والضالين "؟ .. فائدة ذلك تكمن في عدة وجوه:

أولها: جيء " بلا " لتأكيد النفي لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على ﴿ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ثانيها: للفرق بين طريقتي المغضوب عليهم والضالين ليتجنب كل واحد منهما الآخر .. فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به .. واليهود فقدوا العمل .. والنصارى فقدوا العلم .. ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى.

ثالثها: لئلا يُفهم أن المباينة بين الذين أنعم الله عليهم، وغيرهم من المغضوب عليهم والضالين لمن جمع بين الضلال والغضب دون من لم يجمعهما .. فإنه لو قال: غير المغضوب عليهم والضالين .. لتوهم أن المباينة لمن جمع بين الغضب والضلال .. فلما ذكر "لا" جعل المباينة لكل صنف.

- سؤال آخر: لماذا قدم الغضب على الضلال .. في قوله: ﴿عَبْرَ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟ .. ولماذا جعل المغضوب عليهم اسم مفعول والضالين أسم فاعل؟

والجواب:

- إن المغضوب عليهم أشد ضلالا وجُرما لأن من علم وجدد وترك .. استحق الغضب بخلاف من لم يعلم .

- إن بناء الغضب على اليهود بصيغة "المغضوب" .. يصطحب معه ختم الزمان بوصمة الغضب الأول واستمراريتها في كل الأجيال المتعاقبة .. فما يُذكر يهود أي جيل إلا قيل فيهم ولهم: لقد خُتم عليكم بالغضب أبدا .. إنكم الذين وقع عليهم غضب ربهم .. إنكم المغضوب عليهم !!

ومنها: أنه جاء في الحديث الصحيح أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى .. واليهود أسبق من النصارى .. فناسب أن يبدأ بهم.

- ويفيد أيضا عدم اجتماع اليهود والنصارى وانفاقهم حتى في ضلالهم  
وغيهم .

- ويشير اسم الفاعل في قوله " وَلَا الضَّالِّينَ " إلي ثبوت التهمة عليهم فقد  
ضلوا بإرادتهم .. ولا تفوت الإشارة إلى إحياء المد اللازم المتصل في قوله "  
وَلَا الضَّالِّينَ " ومقداره ست حركات .. مع إظهار ألفها الوسطية .. على عكس  
" الْمَعْصُوبِ " بدون هذا المد إلي كثرة هؤلاء الضالين ووفرتهم وهم  
النصارى، ومن ضل من الأمم الأخرى، ومن ضل من المسلمين أيضا ..  
وذلك بالمقارنة بالمغضوب عليهم وهم اليهود حيث جاءت بدون المد اللازم  
لتدل بذلك على قلة عددهم.

**وختاما:** فإن عجائب هذه السورة الكريمة لا تنتهي، ومازلنا على ساحل  
شواطئ بحرها حتى لو ظننا أننا في غماره .. فمما تفردت به هذه السورة  
الكريمة " من أحكام التجويد " .. عدم وجود التنوين، والإخفاء، والقلقلة ..  
لتكون سهلة يسيرة ميسرة على من استقام لسانه، وخلا من اعوجاج الدخيل  
والغريب عليه .. بما يوحي بفرضية تعلم تلاوتها بأحكام التلاوة .. فلا أعدار  
لمن لم يحاول أو ادعى الصعوبة.

ومن عجائب هذه السورة الكريمة ما ذكره العلماء من أن هذه السورة لم  
يذكر فيها سبعة أحرف من حروف الهجاء وهي "الثاء" و"الجيم" و"الخاء"  
و"الزاي" و"الشين" و"الطاء" و"الفاء".

ولعل السبب في ذلك أن مدلول هذه الأحرف يُشعر بالعذاب المنافي  
للرحمة التي تظلل السورة الكريمة.

(1) فالثناء: تدل على الويل والثبور قال تعالى: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا

وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ الفرقان: ١٤.

(2) والجيم: أول حرف في اسم جهنم، قال تعالى:

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجر: ٤٣.

(3) والخاء: تشعر بالخزي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

الْكَافِرِينَ﴾ النحل: ٢٧.

(4، 5) وأسقط الزاي والشين لأنهما أول حروف الزفير والشهيق للنار

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ هود: ١٠٦.

وأيضاً "الزاي" تدل على الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ﴾ ٤٣ ﴿طَعَامُ

الْأَيْمِ﴾ الدخان: ٤٣ - ٤٤. والشين تدل على الشقاوة ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ

عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ المؤمنون: ١٠٦.

(6) وأسقطت الظاء لقوله تعالى على سبيل التهكم والسخرية بأهل

جهنم ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ٣٠ ﴿لَا ظِلِّيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ﴾

المرسلات: ٣٠ - ٣١.

وأيضاً فإن هذا الحرف يدل على لظى جهنم

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى﴾ ١٥ ﴿نَزَاعَةَ لِّلشَّوَى﴾ المعارج: ١٥ - ١٦.

(7) وأسقطت الفاء لأنها تدل على الفراق ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْفِرُونَ﴾ وتدل أيضاً على الافتراء ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ طه: ٦١.

فإذا قيل ما الحكمة في إسقاط هذه الأحرف من الفاتحة مع أن في بعض هذه الأحرف ما يوجب النعيم كالجنة مع الجيم - كما أنه لا حرف من بقية الحروف إلا وهو مذكور في شيء يوجب نوعاً من العذاب؟.

لقد تولى الفخر الرازي الإجابة عن هذا السؤال في ج 1 / 225 وهو أن الله تعالى قال في صفة جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ الحجر: ٤٤ .

والله تعالى أسقط سبعة من أحرف الفاتحة، وهي أوائل ألفاظ دالة على العذاب - تُبين على أن من قرأ هذه السورة وآمن بها وعرف خصائصها صار آمناً من دركات جهنم السبع يوم القيامة - ولعله يكون من أسرار الأحرف المقطعة على رأس بعض سور القرآن أنها قد خلت من هذه السبعة أحرف في إشارة بديعة إلى رسائل الرحمة المتبادلة بين السورة الكريمة وهذه الأحرف - والله تعالى أعلم.



**الفاحة: السبع المثاني  
"سر القرآن العظيم"**





## الفاحة: السبع المثاني سر القرآن العظيم

### الفاحة:

- هي عرفة كتاب الله التي يجب أن يحج ويفد إليها سائر المصلين في صلواتهم وفي كل ركعة من ركعاتهم .. إنها القبلة أو الكعبة القرآنية التي يطوف حول معاني آياتها السبع كافة سور القرآن وآياته .. لأنها السورة التي

قال فيها رسول الله ﷺ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " (1) .. وهي التي روى فيها ابن كثير عن بعض السلف " الفاتحة سر القرآن وسرها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

### نَسْتَعِينُ ﴾ .

- ولقد تبين لنا بجلاء أثناء تناولنا لفاتحة الكتاب في مقدمة معاني الفتح .. وبيان منازل الفاتحة .. وكذلك ونحن نطوف مع آياتها آية بآية أن الفاتحة حقاً هي مسعى آيات وسور الكتاب الكريم التي تروح وتغدو في مضمار إجمال آياتها ومعانيها.

ولما كان الهدف من كتابنا هذا " نظرات قرآنية ... " أن نبين ونؤكد ما سبق أن قلناه في مقدمة هذه السطور من أن فاتحة الكتاب هي مجمع القرآن كله .. فلقد انشرح صدر الباحث أن يفرد لهذا المعنى والمضمون فوق ما بينه أثناء الدراسة فصلاً إضافياً خاصاً به يكون مسك الختام.

1- ابن ماجة في سننه ج 2 / ص / 1244 حديث رقم 3785 .

وستكون هذه الدراسة على شقين:

**الشق الأول:** منهما بيان علاقة الفاتحة ببعض سور الكتاب الكريم على

سبيل التفسير الموضوعي على مستوى السورة الواحدة.

**الشق الثاني:** من الدراسة سيكون من خلال تتبع المعنى أو المضمون

الواحد في طول القرآن وعرضه مبينا أن هذا المعنى أو الموضوع يدور حول

مركز مجرة آيات الفاتحة .. وذلك على سبيل التفسير الموضوعي على

مستوى القرآن كله

**الشق الأول:** التفسير الموضوعي لبعض سور الكتاب الكريم في ضوء

علاقته بالفاتحة.

قيل: إن من أسرار تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني أنها تثبت في

التنزيل .. فلقد نزلت مرتين مرة بمكة بعد المدثر .. ومرة بالمدينة .. وسبب

ذلك التنبية على شرفها وفضلها وارتباطها بالكتاب كله مكّيّه ومدنيّه.

ولقد أوضحنا عند التعرض لبيان سر تكرير ﴿إِيَّاكَ﴾ في ﴿إِيَّاكَ﴾

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿﴾ أنها تنتهي بمجرى المعاني إلى نهريْن أو بحرين

رئيسين يلتقيان وفي ذات الوقت بينهما برزخ لا يبغيان فيخرج منهما اللؤلؤ

والمرجان .. حيث يجمع النهر الأول بين معاني " الإلهوية والعقيدة

والعبودية " على نحو " نعبدك إليها رحمانا مالكا ليوم الدين " .. وهذا النهر

يلتقي في غالبه مع نهر معاني القرآن المكي على وجه العموم .. ويجمع النهر

الثاني بين معاني " الربوبية والشريعة والاستعانة " على نحو " ونستعين بك

ربا رحيمًا هاديًا إلى الصراط المستقيم " .. وهذا النهر يلتقي في غالبه مع نهر معاني القرآن المدني على وجه العموم أيضًا.  
ولأجل ذلك فإننا سوف نجد أن بعض نماذج السور التي نختارها قد جاءت على نظم معنى آية واحدة من آيات الفاتحة أو آيتين أو بعض آيات ..  
كما أننا سوف نجد أن بعض السور قد جاءت على نظم بعض آية من الفاتحة.

## الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الاستهلال بالحمد في سور الكتاب الكريم له مواقع فريدة .. وهذه السور شأنها كشأن السور المكية تتحدث عن العقيدة، وعن المكذبين الذين يكذبون بالوحي والرسالة والبعث والحساب والجزاء، وكلها تدعو إلى حمد الله على نعمة الإيمان التي أنعمها على الإنسان ومن ثمَّ كان حريًا به أن يؤمن ويشكر لا أن يكفر وينكر.

ولكن لكل سورة جوها الخاص وطريقتها في العرض الخاص .. ففي إطار بيان هذا المعنى والمغزى العقائدي يستهل الكتاب الكريم عند نهاية ربه الأول وشروعه في الربع الثاني من الكتاب بالحمد على نعم الله المادية المتمثلة في خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم بعد ذلك يقابل الذين كفروا ذلك بالكفر والجحود ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿

الأنعام: ١ .

- وعند مركز القرآن ومنتصفه تقريباً .. يستهل الكتاب الكريم سورة الكهف بلون جديد من الحمد على نعم الهداية بالقيم المعنوية المتمثلة في الكتاب والرسول .. في إشارة بديعة إلى أن هذا الحمد بموقعه الفريد في منتصف الكتاب يشير إلى أن تلك النعمة هي أعظم النعم وأرفعها منزلة .. فهي كقَب الميزان بين كفتي الحمد على النعم المادية المتمثلة في الأنعام قبلها، وسبأ وفاطر بعدها ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ الكهف: ١ .

- ثم يأتي حمد سبأ بلون جديد من الحمد، وهو الحمد على نعمة أن الله هو المالك لكل ما في السموات وما في الأرض .. وهو الحمد الذي يتناسب مع قضية البعث والجزاء التي يركز عليها القطاع الأكبر من السورة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ سبأ: ١ .

- وتختتم سلسلة الحمد على رءوس السور بصورة أخرى من الحمد لله سبحانه وتعالى .. هو فاطر السموات والأرض .. أي منشئها أول مرة على غير مثال سبق، وأنه جاعل الملائكة رسلاً .. متخذاً من هذا الافتتاح الأخاذ مقدمة للرد على المكذبين للرسول.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فاطر: ١ .

كل معاني الحمد في هذه السور تلتقي عند مجمع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ في فاتحة الكتاب .. ويقوى هذا المعنى ويؤيده أنه بمثل ما

استهلت فاتحة الكتاب في ثانية آياتها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾  
فلقد ختمت بمثل هذا الحمد في الآية قبل الأخيرة "أي الثانية من آخر" سورة  
الجاثية.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الجاثية: ٣٦.

وكانما أحيط حمد كل هذه السور: الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر .. بين  
قوسي وطرفي حمد الفاتحة والجاثية حيث يتلاقى طرفي الحمد عند ثني  
صفحة الحمد بينهما.

ولعل هذا المعنى الجميل نلمسه في سنة الجمع بين الحمد عند استهلال  
التلاوة في أول الكتاب وعند ختامه والشروع في بداية إقامة تلاوة جديدة  
لكتاب الله .. ما يشير إلى ذلك الحمد الشامل الجامع لكل ألوان الحمد التي  
جرت بين دفتي الكتاب الكريم أو بين دفتي الاستهلال والشروع بعد طواف  
جميل مع الكتاب في استهلال جديد بالحمد .. ولأجل ذلك سميت سورة الفاتحة  
بسورة الحمد .. لأنها "بيت الحمد".

## الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ سورة الرحمن

لم يرد هذا الاسم في هذه السورة الكريمة إلا مرة واحدة .. ومع هذا سميت السورة باسم "الرحمن" .. فما سر ذلك؟.

إنها مرة واحدة .. ولكنها مرة واحدة فريدة .. مرة واحدة مهيمنة على نص السورة كلها وجوها .. ولذلك كان الاسم الكريم في أول السورة الكريمة آية مستقلة بذاته .. بل وكان اسما وعلما على السورة كلها ولم يتكرر ذلك لغيره من أسماء الله الحسنى .. فكل ما هو موجود في سورة الرحمن من أفعال الله عز وجل سيكون منسوبا للفاعل الوحيد في السورة الذي لم يرد له

فيها اسم أو صفة أخرى، ولم يظهر عبر الآيات إلا باسم " الرَّحْمَنِ " في الآية الأولى منها .. بل إن ظلال الرحمن تمتد خلال سورة الواقعة التي تليها ولم يظهر فيها أيضا اسم آخر من أسماء الله الحسنى .. ولقد أشرنا إلى ذلك في فقرة " أجواء وأصداء الرحمن " في خلال تناولنا للآية الكريمة " الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ " .. فلا حاجة إلى تكريره .. كل ما جاء في سورة الرحمن وسورة الواقعة التي تليها يصب في المقطع الخاص بلفظة " الرَّحْمَنِ " من آية الفاتحة

" الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ "

## مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

### سورة القمر

سورة القمر هي طرف من معاني قوله تعالى في الفاتحة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ

الدِّينِ﴾ .. فلقد استهلّت هذه السورة مطلعها بقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ

وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ

جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ القمر: ١ - ٤ إلى ختامها

بالآيات ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ

صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ القمر: ٥٠ - ٥٥ .

حملة رهيبة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالندُر ليوم الدين ..  
والسورة مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل حلقة منها هي مشهد من مشاهد  
التعذيب للمكذبين .. يأخذ السياق في ختامها بالحس فيضغطه ويهزه ويقول له



﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴾ القمر: ١٦.. ثم يرسله بعد الضغط والهز يقول

له: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ القمر: ١٧

كل هذا الذكر وتلك النذر نجدها مضغوطة مجملة في قوله تعالى:

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ والذي أشار إليه تصريحاً للمكذبين به في السورة

الكريمة في قوله تعالى: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴾ ٤٦ إِنَّ

الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ

سَقَرٍ ﴿ القمر: ٤٦ - ٤٨ .. في مقابل المؤمنين المتقين المصدقين بيوم

الدين ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ

﴿ القمر: ٥٤ - ٥٥ ﴾

## سورة الزلزلة وأخواتها:

هي واحدة من السور الدالة على موقف يوم القيامة المهيب مثلها في ذلك سورة العاديات والقارعة والغاشية... والألفاظ المختارة لموقف يوم القيامة في كل هذه السور بالغة الإثارة قويه الوقع إما بعنفها: كالزلزلة والرج والدكّ والنسف والرجف والمور والصيحة والانشقاق والطامة والغاشية والواقعة والبعثرة والانتثار.. وإما بدقتها: كمثل ذرة والهباء المنبث والعهن المنفوش والفراش المبتوث والسراب والدخان.

يقول صاحب الظلال عن هذه السورة الكريمة " إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة .. هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار .."

وهذا هو طابع الجزء كله يتمثل في هذه السورة تمثلاً قوياً ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ

الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا

٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿ الزلزلة: ١ - ٥ .

ونلاحظ هنا ظاهرة بيانية مطردة قل أن تخطئها في أحداث اليوم الآخر في سور هذا الجزء الأخير من القرآن .. وهو أن القرآن يصرف الحدث عمداً عن محدثه، فلا يسنده إليه، وإنما يأتي به مبنياً للمجهول، أو مُسنداً إلى غير فاعله على سبيل المطاوعة أو المجاز .. إذ في البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث بصرف النظر عن محدثه .. وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث في طواعية تلقائية إذ الكون كله مهياً للقيامه على وجه التسخير والأحداث تقع تباعاً وتلقائياً ولا يكاد الإنسان يلتقط أنفاسه وهو يتساءل ﴿ مَا لَهَا ﴾؟ .. حتى يأتيه الخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ .. ثم يفاجأ بالإفصاح عن الفاعل المركوزة معرفته في بؤرة الشعور والوجدان ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ وأمرها أن تمور موراً، وأن تزلزل

زلزالها، وأن تخرج أثقالها .. فأطاعت ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴾ الانشقاق : 5

﴿ مُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ الزلزلة: ٤.. لأن الذي أمرها هو: " مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ "

ولا يكاد الإنسان يلتقط أنفاسه وهو يتساءل ﴿ مَا لَهَا ﴾ .. حتى يفاجأ

ويواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ

النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّرُؤَا أَعْمَلِهِمْ ﴾ الزلزلة: ٦ ذاهبون إلي حيث تعرض

أعمالهم الدقيقة الزهيدة بالميزان الدقيق بقدر ما يوفيهم أعمالهم الجليلة

العظيمة ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ الزلزلة: ٧ .. ويوفي

الكافرين من أعمالهم الجائرة الظالمة فلا يدع مثقال ذرة شرا إلا ويزنها

ويجازي عليها ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ الزلزلة: ٨ ..

فهذا يوم الحساب يوم المداينة .. يوم ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

# إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

## 1- سورة هود

محور السورة الرئيس يدور حول قضية الألوهية، وتثبيت العقيدة في قلوب المدعوين إلى التوحيد .. ومن ثمَّ كثر في هذه السورة الحوار بين الرسل وأقوامهم لتثبيت هذه الحقيقة .. وسياق السورة يتحدث عن حقائق العقيدة، وحركتها عبر التاريخ البشري .. ويبين السياق في الختام التعقيبات والتعليقات المبنية على هذا السياق في المقدمة وفي قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

- لقد استهلّت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿الرَّكِنُ أَكَمَّتْ

ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ وكان المضمون الأساس والرئيس

لهذا الكتاب إجمالاً هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هود: ٢

ولقد عبّر عن هذه القضية الكلية إجمالاً من خلال لفظة بديعة بالرسم

القرآني.. بإدغام حرفي "أن" و"لا" الناهية في كلمة واحدة بهذا الرسم "أَلَّا"

دلالة على إجمال وعالمية رسالة محمد ﷺ ثم ذكر الوسيلة إلى تحقيق مضمون هذه العبودية، ويشير إلى عظمة الرسالة الخاتمة المهيمنة على كل

الرسالات السابقة بقوله: "إِنِّي" حيث أظهر نونين (فلم يقل إِنِّي) إشارة إلى

الإحكام والتفصيل معاً وأيضاً إلى الإنذار والبشارة معاً ثم ذكر الوسيلة إلي

تحقيق مضمون هذه العبودية ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ هود: ٣.

ثم ختم مضمون الكتابة والرسالة ببيان يقرر فيه عاقبة التولي عن دعوة الإيمان والتوحيد ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .. وبين أن أحدًا من الكافرين لن يفلت من هذا العذاب ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هود: ٤ .

- لم تكن هذه الدعوة مبتدعة ولا قولاً غير مسبق .. لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم .. ولقد كان مضمون رسالة نوح هو نفس مضمون رسالة محمد ﷺ في النهي عن عبودية غير الله بذات النص والكلمات ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هود: ٢٦ مع فارق بسيط هو فك الإدغام بين حرفي الإدغام على هذا الرسم ﴿ أَنْ لَا ﴾ لأن هذا أول موطن لتفصيل الدعوة الإجمالية التي تصدرت أول السورة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ هود: ٢٥ - ٢٦ ، إضافة إلى محلية رسالة نوح.

وعلى خلاف أول السورة قال هنا " إِنِّي " بنون واحدة لأنها رسالة لأحد الرسل تضمنت الإنذار فقط ولقد بيّن أيضاً أثناء الرسالة أن أحدًا لن يفلت من

المصير ﴿هُورِبْكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هود: ٣٤ بمثل ما كان في قوله

تعالى في أول السورة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

- ونفس الرسالة والفحوى قالها هود لعاد ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ

يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنتم إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

هود: ٥٠

وذكر نفس الوسيلة التي تصدرت رسالة محمد ﷺ إلى قومه في أول السورة

﴿وَيَقَوْمِ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ هود: ٥٢.. وقال

في إشارة إلى رجوعهم إلى الله ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

هود: ٦٠ .

- نفس الرسالة ترددت إلى ثمود من خلال أخيهم صالح ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ

أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ

الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ هود: ٦١

- قالها لمدين أيضا أخوهم شعيب ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ

يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: ٨٥..

وأشار إلى رجوعهم إلى الله في قوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ هود: ٨٤ كل الرسل إذن قالوا هذه الكلمة ودعوا هذه الدعوة الثابتة ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ .. ومن ثم انعطف عجز السورة على صدرها فاختتمت بمثل ما استهلته به ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هود: ١٢٣... وكان قد استهل من قبل أولها ﴿الرَّكِنُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هود: ١ - ٢.. وقال بعدها ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هود: ٤.

هذا المضمون العظيم لتوحيد وعبودية الله سبحانه وتعالى استودعته فاتحة الكتاب بين شطري. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

## 2- التوبة والمرتحة والكافرون

المحور المشترك الذي يجمع بين هذه السور الثلاث هو النهي عن موالة المشركين وكذلك مفاصلة أعداء الله .. وقد تبين ذلك من خلال نظره سريعة إلى استهلال واستفتاح أول آية في كل من السور الثلاث، وانعطافها على الآية الختامية في كل من هذه السور الثلاث فضلا عن سياق الآيات بين طرفي الاستهلال والختام.

فأول التوبة: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

التوبة: ١ .

وختامها: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة: ١٢٩ .

وأول المرتحة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾

المرتحة: ١

وختامها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنْ

الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ المرتحة: ١٣ .

هذا المضمون تكفلت به الآيات القصار في سورة "الكافرون" مختمة أيضا

بمفاصلة أعداء الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ



﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ

عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿الكافرون: ١ -

كل هذه المعاني كفلتها آية سر الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

## أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

(1) سورة البقرة " الصراط المستقيم والوسطية "

دعت فاتحة الكتاب إلى الصراط المستقيم .. وقد فسر المفسرون الصراط المستقيم بأنه الطريق الوسط بين طرفين: تطرف المغضوب عليهم ممن حرفوا اليهودية .. وتطرف الضالين ممن انحرفوا بالديانة النصرانية عن أصولها السليمة ..

ومن ثم دعت سورة البقرة التي تلي الفاتحة إلى التماس هذه الهداية إلى

الصراط المستقيم في كتاب الله ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ البقرة: ١ - ٢ .. وأوضحت صفات وسمات الذين أنعم الله عليهم

بهذا الصراط ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: 3 - ٥ .

ثم جمعت السورة الكريمة بين الصراط المستقيم والوسطية في مكان واحد هو وسط السورة الكريمة تماما في إشارة بديعة إلى أن الإسلام هو الصراط المستقيم وهو دين الوسطية الذي يفصل بين تطرف أهل التقصير من اليهود الذين حرفوا كتاب الله، وتطرف أهل الغلو من النصارى الذين ابتدعوا الرهبانية ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٤٤﴾  
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿البقرة: ١٤٢ - ١٤٣ .

وفي آية جامعة مجملة نكتفي بذكرها حيث أوضحت مجمل تعاليم الصراط المستقيم طريق الوسطية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿البقرة: ١٧٧ .

ثم تشرع السورة بعد ذلك حتى ختامها إلى بيان تفصيل هذه الآية الكريمة  
لتنتهي السورة ببيان تحقق صفات وسمات الذين كانوا على طريق الوسطية  
والصراط المستقيم.

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ  
وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتِبَ عَلَيْهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا  
وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ البقرة: ٢٨٥ .

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن الوسطية والصراط المستقيم الذي هو  
الإسلام هما وجهان لعملة واحدة .. أوهما معاً لون من المناسبة بين فاتحة  
الكتاب والبقرة التي تليها.

(2) سورة النور " بين النور والصراط المستقيم وطاعة الله والرسول "

ورد في أول آية النور بسورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾  
النور: ٣٥

وقرب ختام الآية الكريمة جاء قوله تعالى: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ

لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ النور: ٣٥ .

وختمت الآية السادسة والأربعين بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقال في الآية الرابعة والخمسين: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

ثم أشار في ذات الآية الكريمة إلى ثمرة هذه الطاعة فقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ

تَهْتَدُوا﴾ في إشارة بديعة إلى شعاع الهدى الذي يسري ويربط بين النور

والصراط المستقيم وطاعة الرسول ﷺ فدل بذلك على أن نور الهدى يتمثل في

الصراط المستقيم وطريقه هو طاعة الله والرسول. وهذا يدلنا على أن

الصراط المستقيم مظهره ونوره قبول الاحتكام إلى الله ورسوله في كل شيء،

والطاعة الكاملة في الظاهر والباطن. فسورة النور واسمها النور حافلة

بالأحكام والتوجيهات والتشريعات الهادية إلى ذلك الصراط المستقيم والذي

أشارت إليه فاتحة الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

﴿ بَيْنَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

﴿ وَآهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

### 1- سورة الأنعام ودعاء الاستفتاح:

دعاء الاستفتاح الذي نستهل به الصلاة هو مركب مزدوج:

نصفه الأول دعاء إبراهيمي صرف لأبي الأنبياء إبراهيم ورد في الآية

79 من سورة الأنعام: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٩ وهذا الدعاء

متحقق في الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

والنصف الثاني من الدعاء: هو دعاء محمدي صرف لسيد الأنبياء محمد

ﷺ.. وقد ورد في الآية 162 من سورة الأنعام نفسها ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

وَنُصْرَتِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.. وهذا الدعاء متحقق في الفاتحة

أيضا في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

والسؤال الآن: كيف التحم الدعاء المحمدي بالدعاء الإبراهيمي في

مركب مزدوج واحد على ما بينهما من عشرات الآيات وآلاف الأعوام في

السورة الكريمة؟

والجواب: أن ذلك لم يكن إلا عبر وصلة قنطرة الصراط المستقيم

الموصول والممتد بينهما في الآية 161 ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

الدعاء كله والوصلة البديعة التي بينهما نجد معانيها في قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

## 2- السور الأربع الطوال وسورة العصر:

نرى السور الأربع: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة .. كلها جاءت على

نظم سورة العصر .. فقد ذكرت فيها أربع صفات على الترتيب:

1- ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ 2- ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

3- ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ 4- ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

والسور الأربع المذكورة جاءت على نفس الترتيب: فسورتا البقرة وآل

عمران يجمعهما اسم واحد .. فلقد سماهما الرسول ﷺ "الزهرابين" .. قال

رسول الله ﷺ: اقرأوا الزهرابين البقرة وسورة آل عمران (1) .. كما يجمعهما

استهلال واحد من حيث الأحرف المقطعة.

﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ البقرة: ١ - ٢ ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ آل عمران: ١ - ٢ .

1- فضل قراءة القرآن - ج2 ص 1987 ح 1910.

فسورة البقرة هي سورة الإيمان المطلوب وهو الإيمان ببعثة محمد ﷺ فجمعت دلائلها. فبدأت بالإيمان واختتمت بالإيمان.

وسورة آل عمران سورة الإسلام وهو طاعة النبي ﷺ .. وعمل الصالحات وذلك لأن الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان .. وقد جاء فيها:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران: ١٩ .

روى النواس ابن سمعان الكلابي قال: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: " يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ ، تَقَدَّمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وَآلِ عِمْرَانَ " . وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ ، قَالَ: " كَانَهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَانَهُمَا حِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ ، يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا"(1).

- ثم جاءت سورة النساء وهي سورة القسط والمواصاة وإيفاء الحقوق

.. فقد بدأت السورة الكريمة بتلك الوصية: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ

الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: ١ .

والسورة كلها مع تشعب معانيها تدور حول هذه النقطة ولعل قوله تعالى

في سورة العصر ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ﴾ يرمي إلى هذه النقطة.

---

1 - باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ج 4 ص 232 ح 1338.

- ثم جاءت سورة المائدة .. وهى سورة الإيفاء والقيام بالعهود الإلهية التي يوجبها المسلم على نفسه منذ دخوله في رحاب الإسلام .. فقد بدأت السورة بتلك المطالعة بدون أي تمهيد أو مقدمة تنبئها على خطورة الأمر وأهميته ..

حيث قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ولعل قوله في سورة

العصر ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يرمي إلى تلك الحقيقة .. فالمراد بالصبر هو الاستقامة على العهد الذي يبرمه المؤمن ويوجبه على نفسه حين ينتظم في سلك الإسلام .. ونستأنس بهذا المعنى في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

الْبَأْسِ﴾ البقرة: ١٧٧ .. فالصبر والإيفاء بالعقود والعهود لا يفترقان

هذه السور الأربع وسورة العصر التي تحوى معانيها كلها متضمنة في قوله

تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٧ ﴿

### 3- الفاتحة أم الكتاب .. والبقرة سنام القرآن:

كل ما في سورة البقرة يصب في فاتحة الكتاب .. لكنى سأكتفي بالعلاقة بين أعظم سورة وهي الفاتحة وما رواه الدارمى في مسنده عن الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح، أربعاً من أولها، وآية الكرسي، وآيتين



بعدها، وثلاثا في خواتيمها) وفي رواية: ( لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق) (1).

**الفاتحة وأول البقرة:** إن تتبّع منهج السياق في التفسير يبين أن الطوائف الثلاث التي وردت في سورة البقرة حتى الآية 20 قد ذكرت صفات فئات ثلاث وهي: المؤمنون والكفار ثم المنافقون .. وهي تفصيل لما أجمل في آخر فاتحة الكتاب .. فالمنعم عليهم هم المؤمنون .. والمغضوب عليهم هم الكفار .. والضالون هم المنافقون .

**أعظم سورة وسيدة آي القرآن:** إن سيدة آي القرآن وهي آية "الكرسي" تأنس بظلال أعظم سورة وهي الفاتحة بداية من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. ثم تمسك خواتيم سورة البقرة بزمام هذا الملك في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ البقرة: ٢٨٤ .. ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِءِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٢٨٥ .. إلى آخر السورة الكريمة عند مجمع قوله في فاتحة الكتاب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ .

1 - مسند الدارمي - باب فضل أول سورة البقرة ج2 ص 362 ح 3383.

وأخيراً .. فإن ما ذكرناه وأوردناه في هذا الشق .. وهو علاقة الفاتحة بسور الكتاب الكريم .. هو قطرة من فيض .. ففاتحة الكتاب لا ينضب عطاؤها ولا يجف نبعها مهما كثر وراها وروادها .. ولا نملُّ من تأكيد وتكرير ما قيل عنها: إنه لو وضعت بجانبها أي سورة من سور الكتاب أو آية منه لناسبتها بوجه من الوجوه .. فكل معاني وسور القرآن وآياته مكيه ومدنيه .. كما سبق أن أشرنا ينتهي مجرى المعاني فيهما إلى نهري الفاتحة:

"تعبّدك إلها رحمانا مالكا ليوم الدين" حيث تستوفي معاني "الألوهية والعقيدة والعبودية" .. و"تستعين بك ربا رحيمًا هاديًا إلى الصراط المستقيم" حيث تستوفي معاني "الربوبية والشريعة والاستعانة" .. والحمد لله رب العالمين.

الشق الثاني .. التفسير الموضوعي على مستوى القرآن كله وعلاقته بفاتحة الكتاب.

يوضح الإعجاز القرآني في الرقم "19" أن الفاتحة هي مجمع القرآن على النحو التالي:

1- أول ما نزل من سور القرآن سورة العلق .. وهي تتركب من 19 آية .. وعند نزول جبريل عليه السلام بالقرآن لأول مرة أحضر معه 19 كلمة

بالضبط هي: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: ١ - ٥.

وهذه الكلمات تتركب من 76 حرفا .. وهذا العدد يساوي عدد حروف البسمة مضروبا في عدد كلماتها  $76=4 \times 19$ .

2- عندما نزل جبريل عليه السلام بالوحي في المرة الثانية أحضر الآيات

الأولى من سورة القلم حتى قوله تعالى: ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيَدَّهِنُونَ ﴾

أي 38 كلمة " 2×19".

3- عندما نزل جبريل عليه السلام بالوحي للمرة الثالثة أحضر الآيات الأولى

من سورة المزمل حتى قوله تعالى: ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ المزمل 10

أي 57 كلمة " 3×19".

4- عندما نزل جبريل بالوحي للمرة الرابعة احضر الآيات الأولى من سورة

المدثر حتى الرقم 19 نفسه حيث يقول الحق عز وجل

﴿ عَلِيَّهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ المدثر: ٣٠.

5- عندما نزل جبريل بالوحي للمرة الخامسة أحضر سورة الفاتحة التي تبدأ

بالتسعة عشرة حرفاً ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وكانت الفاتحة هي أول

سورة كاملة ينزل بها الوحي الأمين عليه السلام .. في إشارة بديعة إلى

العلاقة بين البسمة ورقم 19.. وإثبات أن القرآن كله مضمون بين آيات

الفاتحة .. ويشير إلى ذلك أن القرآن الكريم يتركب من 114 سورة وكل

سورة تفتتح بالبسمة ماعدا سورة التوبة .. وتم تعويض هذه البسمة في

سورة النمل ليصبح عدد البسمات 114 وهو يساوي " 6×19" .. وكذلك

يساوي عدد حروف البسمة 19 مضروباً في عدد آيات الفاتحة الست

الباقية 6×19=114.

- أتريد مزيدا من عطاء السورة في هذا المعنى.. فانظر إلى ما فيها من تعريض فإنك قبل أن تقرأها تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم امتثالا لأدب

القرآن: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨ .

تقول: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ من هذا الجنس الطريد من رحمة الله

.. ثم تقول: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. ومن حولك كانوا يقولون: بسم

اللات، بسم العزى، بسم الأب والابن والروح القدس .. والآن يقولون بسم الشيعوية، بسم الاشتراكية، بسم الرأسمالية .. وفي ذلك تعريض بمقولاتهم الباطلة.

وإذا كانت البسمة مما يُدعى أنها ليست من متن السورة فقد تضمن

متنها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ وفي ﴿ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ تعريض بالمعطلة والدهريين والملاحدة على التعميم..

ثم: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريض بهؤلاء ومنكري البعث معا..

ثم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي نخصك بالعبادة وطلب العون ..

بمعنى نعبدك ولا نعبد سواك .. نستعينك ولا نستعين غيرك .. أي نوحدك ولا

نشرك بك شيئا .. ثم إذا قلت ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فلقد سألت طريق العدالة

والاستواء الذي تبدأ منه الحنيفية وتتصلت من كل صور الانحراف والغلو والاعوجاج سواء عند اليهود أو عند النصارى.

- كل ذلك هو ما تناول تفصيله الكتاب الكريم على امتداد سوره وآياته .. وهكذا تعقب الفاتحة أم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم كما وصفها رسول الله ﷺ بشذى التعريض ينشر أريجها .. ويفتح من أبواب عطائها كوثرًا يفيض علينا هداية إلى الصراط المستقيم وإعانة على اتباعه والتزامه . أتريد مزيداً من عطاء السورة الكريمة؟ إن ذلك يكمن في رسائل الإشارات بين السورة الكريمة والأحرف المقطعة على رأس السور الأخرى.

فإن أول ما نزل من هذه السور ذات الفواتح المقطعة سورة القلم وعلى رأسها ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يليها سورة (ق) وعلى رأسها ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ثم سورة (ص) وعلى رأسها ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ لقد جمعت هذه السور بين ثلاث سمات لم تجتمع لغيرهن من سور الكتاب.

هذه السمات على الترتيب هي:

- 1- أنها أول ما نزل من السور ذات الأحرف المقطعة في فواتحها.
- 2- أن فواتحها جميعاً بدأت بحرف واحد من الأحرف المقطعة.
- 3- هذه الفواتح وردت كبعض آية وليست كأية مستقلة كبعض الفواتح الأخرى في إشارة بديعة إلى أن هذه الفواتح هي مفتاح بقية الآية ومفتاح لما بعدها من آيات.

ما دلالة ذلك؟:

إن هذه الفواتح بمثابة أولى اللبانات والدعائم والأساسات التي سوف يركز عليها قواعد ومحاور مادة الكتاب الكريم.

ففاتحة الكتاب التي هي أم الكتاب، حيث تحوي مجمل الكتاب تتهايف وتتراسل بإشارات بديعة مع هذه الفواتح الثلاث.

فإن الـ (ن) في "الْعَلَمِيَّتْ" و"الرَّحْمَنِ" و"الدِّينِ" تشير إلى قوام مثلث العقيدة التي يركز عليها القرآن المكي. هذه الرؤوس هي الرسالة، والذات، والمعاد .

"فإن رَبِّ الْعَلَمِيَّتْ" تشير إلى أن الرسول ﷺ من العالمين وإلى العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ .

والذات في "الرَّحْمَنِ" تشير إلى الاستواء والهيمنة لأنه:

﴿عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ وأنه ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۙ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .

و"مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" تشير بذاتها إلى البعث والمعاد، فضلا عن أن الـ (ن)

تمهد للانتقال من العقيدة في "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" التي هي قوام القرآن المكي إلى

الشعيرة، ثم الشريعة في "وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" التي هي قوام القرآن المدني.

يمثل هذه الشريعة بقوة قوله تعالى: "الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" حيث يشير حرف الـ

(ص) إلى "الصِّرَاطَ" وأن مضمونه في القرآن ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾

وتشير "ق" "المُسْتَقِيمَ" إلى طبيعة وكيونة القرآن المجيدة القويمة المستقيمة

﴿قَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

وهكذا ينتهي مجرى معاني هذه الأحرف المقطعة عند نهري الفاتحة السابق  
نكرهما:

نعبدك إلهاً رحماناً مالكاً ليوم الدين ونستعين بك رباً هادياً إلى الصراط  
المستقيم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

من النماذج المميزة التي تمثل عنواناً متميزاً للتراسل والتواصل بين

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور: و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

انبثاقاً واتساقاً مع بسملة الفاتحة مبدأ وأساس الكتاب:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وتفصيل هذا التراسل والتواصل كما يلي:

\* ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

-الله: الله نور "بذاته" في الباطن والظاهر .. بالتستر والتحجب ..  
وبالتجلي .. شق أستار معرفته من العماء والخفاء بنور التجلي بالكشف والخلق

والإيجاد: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ﴿ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ :

- الرَّحْمَنُ : وتجلي نور الله الأتم إستواء على عرشه .. بنور اسمه الأخص :

" الرَّحْمَنِ " .. ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ﴿ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ ﴿ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ ﴿ الرَّحِيمِ ﴾

- الرَّحِيمِ : ومن نور اسم " الرَّحْمَنِ " برحمته العامة للخلائق .. انبثق نور الله

برحمته الخاصة للمؤمنين منهم .. نور اسم: " الرَّحِيمِ " .

ومن نور اسم الرَّحْمَنِ .. ونور اسم الرَّحِيمِ .. كان مجمع النورين: " إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " : " تعبدك إلهاً رحماناً ... ونستعين بك رباً

رحيماً... " .

فهو ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ بأوسع الصفات على أوسع المخلوقات .

وهو ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : مبدأ تجلى الله سبحانه وتعالى على

كونه كشافاً وخلقاً وإعلاناً .

ومن ثمَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : مبدأ القصد الوجودي من العبد إلى

الرب تعالى بالعبادة والاستعانة .



وهذه الآيات الكريمة " .. ينبعث هتافها صدىً للهتاف والابتداء الوجودي:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. الذي هو مبدأ إرادة الله ومشيتته روحاً

وأمرًا وقرآناً .. ومبدأ هوية الكون من الله خلقاً وإيجاداً: " كن "

ومن سياق نور هتاف ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: كلمة ومعنى .. ينبثق

نور الهتاف كذلك منها .. " حرفاً ومبنىً "

فإن كلا من آية طه ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وآية النور ﴿ اللَّهُ نُورٌ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وآية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تقع متوافقة

ومتطابقة مع عدة حروف ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. فعدة كل آية:

أربع كلمات وتسعة عشر حرفاً بالتمام .. وهذا التمام في التطابق العددي

يأتي وحياً توفيقياً وتوفيقياً .. كما يأتي برهاناً وتصديقاً وتوثيقاً لتطابق المعنى

فيها !!.

\* " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " وأركان ودعائم الإيمان: قال ﷺ في الحديث

المشهور الذي رواه مسلم في "كتاب الإيمان عندما سأله جبريل عن الإيمان "

... أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وشره" (1).

1- رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم 1 - (8)

لقد أودع سبحانه وتعالى معاني وأصول التوحيد الواردة في الحديث الشريف في لباب آيات الحمد التي على رءوس السور في الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر .

- فالإيمان بالله في الحديث الشريف يتعاقب مع حمد الفاتحة والأنعام

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ الأنعام: ١ .

- والإيمان بالملائكة يتعاقب مع حمد فاطر

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى

وثلث وربع ﴾ فاطر: ١

- والإيمان بكتبه ورسله تضمنه حمد الكهف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ

الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ الكهف: ١ .

- والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره .. سعى له حمد سبأ:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ سبأ: ١ .

هكذا بين طرفي أو قوسي الحمد الشامل في ثانية آيات الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢ .. والآية الثانية أيضا من آخر الجاثية وهي من الحواميم ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الجاثية: ٣٦ .

استقت آيات الحمد في أوائل الأنعام والكهف وسبأ وفاطر من مشكاة نور الحمد بين القوسين .. ولأجل ذلك يأمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوه في سورة غافر وهي من الحواميم أيضا على نور الهداية بالإيمان والدين الخالص.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ غافر: ٦٥ .

### \* الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَأَرْكَانُ وَدَعَائِمُ الْإِيمَانِ

في الحديث الشريف السابق الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان نجد أن:

- الإيمان بالله يتعانق مع قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣ ..

وقد وقع لفظ " الرَّحْمَنُ " - بالعناية والاختصاص - بديلا عن لفظ " الله " في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الإسراء: ١١٠ .

- والإيمان بالملائكة يتناسق مع قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ

هُم عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ الزخرف: ١٩- والإيمان بكتبه يتعلق بقوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن: ١ - ٢... وقوله تعالى:

﴿ حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا

عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت: ١ - ٣ .

- والإيمان بالرسول يشير إليه قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس: ٥٢ .

- والإيمان باليوم الآخر والغيب نلمسه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ يس: ١١ .. وقوله تعالى: ﴿ عَلِمُوا

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ الحشر: ٢٢ .

- والإيمان بالقدر خيره وشره نجده في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يُرْدِنَ الرَّحْمَنُ

بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ يس: ٢٣ .

وكما كان ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ واقعا بين طرفي الآية الثانية من

سورة الحمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ..

والآية الثانية في الترتيب من آخر الجاثية ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الجاثية: ٣٦ .

نجد أن هيمنة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي الأخرى تقع بين طرفي ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الآية الثالثة من الفاتحة، والآية الثالثة ترتيبا أيضا من آخر سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الحشر: ٢٢.. وهذا عين الكمال والإحاطة والإعجاز.

### \* مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ :

أوضحنا عند تناول آياتنا الكريمة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في أولها في  
فقرة:

أولاً: " المالك - أو مالك يوم الدين " مدعمين قولنا بالشواهد القرآنية أن ملك الله يتضمن مفهوم الملكية البسيطة المستفادة من ملكية الناس لبعض متاع الدنيا ..

### وتزيد عليها بوجوه أوضحناها:

منها أنه سبحانه وتعالى يملك مخلوقاته كلها جليلاً ودقيقاً لا يشاركه في هذه الملكية أحد .. وأنه سبحانه وتعالى يملك أن يضيف إلى كونه مال ليس فيه .. وأوضحنا أن من آثار ملكه أنه تبارك وتعالى يحي ويميت حين يشاء ومتى يشاء ولا يشاركه في ذلك أحد .. وأن من آثار ملكه أيضاً أنه يعلم

عن كونه كل صغيرة وكبيرة .. بل إنه يعلم ما يجول بخواطر البشر وما تنطوي عليه صدورهم .. بل ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وكما كانت البداية منه فإن النهاية تكون إليه، ولأجل أنه المالك فهو الرزاق الحق لأنه يملك الإيتاء والنزع لملكه ممن يشاء، ويملك أن يعز ويذل من يشاء. فلا حاجة إلى تكرار الشواهد وليرجع إليها في فقرتها .

\* المناسبة بين الرحمن والرحيم وأسمائه الحسنی: " ملك - مالك - ملك " أولاً: المناسبة بين الرحمن والرحيم .. وملك ومالك

التلاوة بالقراءتين " ملك يوم الدين " ، " مالك يوم الدين " مناسبة للرحمة من كل الوجوه في " الرحمن الرحيم " التي وردت قبلها .. فـ " ملك " اسم ذات أقرب إلي " الرحمن "

ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٢٦ ..

فهي من معاني الألوهية .. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ الأنعام: ١٢.

و"مالك" بدلالة الفعل في اسم الفاعل أقرب إلى "الرحيم" فهي من باب

الربوبية ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ يس: ٥٨ ومن ثم ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ

عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ الأنعام: ٥٤.

- الجمع بين القراءتين يفيد إذن أنه إذا توجهت عنايتك إلى استحضار

عظمة الذات المقدسة "الرحمن" في ذلك اليوم المهيب ترجح لديك اختيار "ملك

يوم الدين" خاصة وقد قلت قبلها "الْحَمْدُ لِلَّهِ" وختمت بعدها في آخر الناس "

مَلِكِ النَّاسِ " .. فهو هنا "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ"

- وإذا توجهت عنايتك إلى استحضر رحمة ربوبيته في ذلك اليوم

المهيب ترجح لديك "مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" .. خاصة وقد قلت قبلها "رَبِّ

الْعَالَمِينَ" وقلت بعدها في أول الناس "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ"

وتأمل اللف والنشر بين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول سورة من

الفاتحة.. و﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿الناس: ١- ٢﴾ في آخر

سورة من الكتاب .. ثم عد وقل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جامعة شاملة كل ذلك.

حصاد القراءتين إذن يفيد هذه المعاني: "الْحَمْدُ لِلَّهِ ... " "الرَّحْمَنِ"

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ .. وذلك باستدعاء الأسماء "الله - الرحمن - الملك "

وكذلك معاني " ... رَبِّ الْعَالَمِينَ " "الرَّحِيمِ " "مَلِكِ " .. وذلك

باستدعاء صفات "الرب - الرحيم - المالك "

\* ثانيًا: المناسبة بين ملك والرحمن: في سياق فاتحة الكتاب يرد قوله تعالى

بهذا الترتيب ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. وفي ختام سورة

القمر ثم الاستهلال بسورة الرحمن .. كان التناسب والترتيب على عكس ما

جاء في الفاتحة .. حيث بدأ بالمليك وثى بالرحمن ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ  
مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴾ القمر: ٥٥ "الرَّحْمَنُ" .. فما سر ذلك؟.

إن استحضار واستدعاء النسبة بين ألفاظ أسمائه الحسنی "الله" "الرَّحْمَنِ" ..  
"الرَّحِيمِ" .. والتي اجتمعت كلها في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ على رأس  
فاتحة الكتاب يكشف عن كثير من أسرار هذه النسبة التي جعلت من:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الهتاف الواصل بين سور القرآن وآياته  
- إن اسم الجلالة "الله" يشير إلى الذات الإلهية في عليائها بما حوته من  
معاني الجلال والبهاء والجمال .. فكيف تجلت هذه الذات الإلهية على العرش  
والوجود؟

لقد شاعت الإرادة الإلهية أن يكون تجليها بسم "الرَّحْمَنِ" وهو الاسم الذي اقترن  
بالاسم الأعظم لله تعالى فقال ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ في أول فاتحة الكتاب  
وعلى رءوس سور وآياته .. ولم يشأ المولى سبحانه وتعالى أن يستهل كتابه  
بسم القهار أو الجبار مثلا .. إنه ذات الاصطفاء والتجلي الذي استوى به  
سبحانه وتجلي به على عرشه ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ طه: ٥  
ثم كان من علياء العرش تنزُّلُ واتساع مشيئة النشر والبسط للرحمة بالعباد  
والمخلوقين باقتران اسم "الرَّحِيمِ" باسم "الرَّحْمَنِ" لتسع رحمته كل شيء  
﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ الأعراف: ١٥٦ .



وهكذا كان الترتيب والتجلي من علياء الذات الإلهية إلى رحمة الرحمن على عرشه .. إلى رحمته التي وسعت كل شيء على كونه .. يشير إلى ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال .. " جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن وليدها خشية أن تصيبه"<sup>(1)</sup>.

بعد أن أوضحنا ذلك نعود إلى مناسبة الترتيب بين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في إشارة بديعة إلى بيان شكل ودورة العودة إلى

المالك الحق ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بعد انتهاء دورة الناموس الأرضي الدنيوي، والتهيؤ للمثول أمام ناموس الآخرة .. بما يشير إلى إعلاء مقام رحمة العدل والميزان للصالحين والطائعين .. في مقابل الطالحين والعاصين.

ويشير إلى ذلك ختام صورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمُّ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ

الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿الحشر: ٢٣ - ٢٤ .

<sup>1</sup> - صحيح مسلم - باب في سعة رحمة الله تعالى - ج8 ص 96 ح 7148 .

الرغبة والجمال للصالحين والطائعين في أسمائه "الرحمن - الرحيم - السلام -  
المؤمن - الحكيم".  
المهيمن - العزيز - الجبار - المتكبر".  
الرهبة والجلال للطالحين والعاصين في أسمائه " الملك - القدوس -

وأما مقام ختام سورة القمر "... عند مليك مقتدر" "الرحمن" .. فإنه ملك خاص  
وتجل خاص في سياق خاص وجو خاص .. إنه سياق صورة النعيم بطرفيه  
لأحبائه وأوليائه الطائعين .. طرف نعيم الحس والجوارح .. وهو ما صورته الآية  
الكريمة ﴿ إِنَّ الْمُنَّيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴾ ﴿٥٤﴾ وطرف نعيم القلب والروح نعيم

القرب والأنس والتكريم ﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

لفظة ﴿ مَلِيكٍ ﴾ فوق ما لها من حظ ونصيب لفظة "ملك" و "مالك" من حيث  
أصل الاشتقاق وقربهما وجوارهما من ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبلهما، هاهي تستأثر  
وحدها بتجلي الاسم الكريم عليها مرة أخرى من خلال أول آية في سورة الرحمن  
التي تليها: ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ .. في أنعم وأرق تجليات الرحمة في ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي  
وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ مريم: ٦١ .. إلى جانب النعيم بالجوارح الأثير في هذا  
اليوم ﴿ وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴾ الفرقان: ٢٥ .. حيث  
يتجلي الملك الحق وهو ملك "الرَّحْمَنِ" لمن يستحقون تجلي رحمته عليهم ﴿ الْمَلِكُ  
يَوْمَ يَذُ الْقُ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الفرقان: ٢٦ .. وهذا مقام رحمة الفضل والإحسان بالقرب من  
عرش الرحمن .. ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ طه: ٥ .

\* (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) :

القرآن كله سلسلة من ذهب متماسكة الحلقات آخذ بعضها برقاب بعض ..  
وقال الإمام الرازي " إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" .  
وجاء في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي .. وقال أبو بكر العربي  
"ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني  
منتظمة المباني".

تُرى ما هي هذه الكلمة؟

لا شك أنها كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " .

لا شك أنها الكلمة الطيبة التي مثلها سبحانه بالشجرة الطيبة .. فجعل معرفة  
الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته تشبه الشجرة الطيبة بكل  
منافعها وظلالها .. وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

إبراهيم: ٢٤ - ٢٥ .

لم يقتصر سبحانه وتعالى على الشجرة مثلاً تشبيها بل جعلها واقعا ملموسا  
فجعلها موضع ومحط الرضا والمبايعة على التوحيد والإيمان ﴿ لَقَدْ

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح: ١٨ .

وفضلا عن ذلك كانت هناك ثمرة أخرى هي قمة الثمرات.

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ

التَّقْوَى ﴾ الفتح: ٢٦ .

ولا شك أن قمة كلمة التقوى هي "لا إله إلا الله" ..

ولذلك قال بعدها ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ . الفتح: 26.

ومثل سبحانه وتعالى في المقابل الكفر والجحود بالشجرة الخبيثة التي اجنتت

من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ إبراهيم: ٢٦ .

وأشار إلى ثبات كلمة التوحيد في المقابل بقوله: ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ إبراهيم: ٢٧ وفي المقابل

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ إبراهيم: ٢٧

وكان عاقبة كلمة الكفر والجحود أيضا شجرة كريهة نص عليها الكتاب الكريم

﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ الصافات: ٦٢ - ٦٤ .. وبين هذه العاقبة

أيضا في موطن آخر ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٤﴾

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ الدخان: ٤٣ - ٤٥ .

حيث هو الموضع الوحيد في كتاب الله الذي مُدَّت فيه "تاء" "شَجَرَتْ" وذلك لتتحقق تزقمها بالأكل الفعلي منها، ويدل على ذلك قوله "فِي الْبُطُونِ".

- كل معاني التوحيد ونقيضه مودعة في أمانات قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ التي روى ابن كثير فيها عن بعض السلف "الفاحة سر القرآن وسرها" ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والآن فلنتناول بعض نماذج هذه الآية الكريمة التي تطوق معاني القرآن كله .. والحقيقة أن المجال وكل الكلمات ما كتب منها وما لم يكتب بعد لا تستطيع ولن تستطيع أن تفي بهذه الآية الكريمة ولا بشرط منها ولأجل ذلك يكتفي الباحث بنموذجين:

**النموذج الأول:** عن انس بن مالك أن النبي ﷺ قال "الدعاء مخ العبادة"<sup>(1)</sup>.

يبدو للنظر حين ينظر في هذا الحديث أنه مستفاد من نظم قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

---

1 - سنن الترمذي - ج5 ص 316 ح 3371 .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ  
كَفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥ - ٦ .

فالآيتان بنظمهما تؤديان نفس المعنى .. ذلكم المعنى الذي يتضمنه الحديث ..  
فإن السياق في الآيتين جاء أولاً بلفظ "الدعاء" .. ثم تحول عنها إلى لفظة  
"العبادة" مع أن المدلول هو هو لم يتغير .. وهذا تلميح إلى أن الدعاء والعبادة  
بينهما قرابة ماسة ورحم مشترك .. وأن الدعاء هو جوهر العبادة وروحها أو  
مخها وحقيقتها .. وهو ما عبر عنه قوله تعالى في سورة البقرة ..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ  
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ البقرة: ١٨٦ .

### النموذج الثاني: سورة الكوثر وما تلاها من السور:

جاء في كتاب "إنعام النظر في نظام الآي والسور" للدكتور محمد .. عناية  
الله سبحانه: " ويبدو لي بعد التأمل في نظام هذه السورة - يقصد الكوثر -  
كأن القرآن أكمل وختم بهذه السورة العظيمة، وأما السور التالية لها فهي  
تكملة لها وتبيين لمحتوياتها"

— فسورتا "الكافرون" و "الإخلاص" بمثابة التكملة والتبيين لقوله تعالى:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ الكوثر: ٢ .. كأنه قيل "فصل لربك وحده، وأنحر  
لربك وحده، وناد في الناس أنك برئ من الشرك وأهله وآلهته، فقل يا أيها

الكافرون لا أعبد ما تعبدون، وإنما الذي أعبده هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد".

— وجاءت بينهما سورتا "النصر" و "الهدى" وكان ذلك في غاية الروعة والحكمة .. فإنهما لم يكن لهما مكان أنسب من هذا .. والذي يثير العجب أنهما وضعتا بين سورتين شقيقتين متماسكتين للغاية .. ولكن هذا الوضع لم يחדش تماسكهما، بل زادهما تماسكا إلى تماسك بشكل عجيب .. وذلك من

جهتين: الأولى: أن هاتين السورتين بمثابة التكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الكوثر: ١ وقوله تعالى: ﴿إِن شَاءَكَ هُوَ

الْأَبْتَرُ﴾ الكوثر: ٣.. كأنه قيل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١)

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ النصر: ١ - ٢.. ورأيت

عدو الله قد تبَّ، وتبَّت يداه، ورأيت الكفر قد تمزق وانتقضت عراه، فحينئذ يتحقق هذا العطاء الإلهي الكريم في أعلى وأجلى صورته .. ويفرض وجوده على الجميع بحيث لا يبقى منكر على إنكاره .. وينكشف أن الأعداء هم الأباتر على عكس ما زعموا .

الثانية: أن إعلان البراءة الذي تضمنته سورة الكافرون، معناه إعلان الهجرة

والجهاد كما جاء ذلك واضحا في قول إبراهيم والذين معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ

إِنَّا بَرَاءٌ لِّكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ

وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الممتحنة: ٤ .

وإذا كانت الهجرة وكان الجهاد فلا بد أن ينزل النصر كما قال تعالى:

﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ محمد: ٧ .

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصف: ١٣ .

علما بأن تلك الآية إنما جاءت لتبشر المؤمنين بما يترتب علي الجهاد من جزاء كريم وبلاء عظيم .. وإذا جاء النصر فلا بد أن يكسر جناح الشرك، ويؤذن له بالغياب .. فارتباط هاتين السورتين كالذي في قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء: ٨١ .

فلما انتصر الحق وانتكس الباطل وفتحت مكة لجنود الإسلام أبوابها، وعادت الكعبة إلى أهلها وأوليائها، وأصبحت كحالتها يوم أسست مرفأً للتوحيد وموئلا للإيمان ومثابة للناس وأمنا .. وعاد الحق إلى نصابه، وأرزَ الشرك إلى أبحاره .. حينئذ ختم على هذه الصحيفة الخالدة بختم التوحيد وجاء الأمر الإلهي يجلجل في الكون:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ

يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١ - ٤ .. فكان هذا إيذانا برفع لواء التوحيد عاليا خفاقا، وكان إيذانا بانتكاس الشرك وانحصار ظلمه وظلمته تماما في البيئة المؤمنة التي رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالقرآن هاديا وإماما.

ثم جاءت المعوذتان .. وهما بمثابة التكملة لمفهوم "الصمد" والتبيين له .. فإن الصمد هو الذي يُستعاذ به ويُلجأ إليه ضد العدو .. فعلمنا الله كيف



نستعيز به ونلجأ إليه حتى لا نقع في وحل الشرك ونكون بمنجاة من الشيطان .. فإن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ركن من أركان التوحيد وسلاح من أسلحة المؤمن، ومن لم يحمل هذا السلاح أوشك أن تخطفه الشياطين.

- ويضيف الباحث أن كل هذا مودع بين راحتِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾.

ويزيدنا اطمئناناً وركونا إلى هذا النظام وتلك المعاني أنها تتفق تماماً مع الكلمات الخالدة التي نطق بها النبي ﷺ يوم فتح مكة، إذ قال وهو آخذ بعضادتي باب الكعبة " لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده"<sup>(1)</sup>

فإن "لا إله إلا الله" ناظر إلى سورة الكافرون .. و"وحده لا شريك له" ناظر إلى سورة الإخلاص .. و"صدق وعده" ناظر إلى سورة الكوثر .. و"نصر عبده وأعز جنده" ناظر إلى سورة النصر .. و"هزم الأحزاب وحده" ناظر إلى سورة الذهب.

ولعل السر في جمع النبي ﷺ بين سورتي "قل يأيها الكافرون" و"قل هو الله أحد" في حَجَّه وبعد طوافه وعند مقام إبراهيم للقرابة الماسة بينهما، فإن من هديه ﷺ أنه كان يراعى في قراءته الترتيب .. اللهم إذا كان هناك سبب ونسب مباشر بين سورتين فكان يراعى ذلك .. وبعد .. فكل روافد هذه المعاني تصب في نهر

ومجمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

1- السيرة النبوية لأبن هشام : مصطفى السقا وزملاؤه 412/3 .. وزاد المعاد لابن القيم ج 2 ص 165.

\* ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾ .

إذا أردنا أن نحدد الغاية والغرض في سورة الفاتحة فإننا نلمسه في أول دعاء قرآني ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ التي جاءت في سياق العبودية والاستعانة الخالصة لله وحده، فكانت الثمرة المرجوة إزاء التمهيد لها من حمد وثناء وتمجيد وعبادة المصدر الواحد.. وهو ما عبر عنه الحديث القدسي: "هذا لعبدي ولعبي ما سأل" (1) .. والحقيقة أن هذا الدعاء والالتماس يستوعب الكتاب الكريم كله .. ففي سورة الفاتحة طلب للهداية إلى الصراط المستقيم .. وفي أول البقرة مباشرة في أول السور التالية لفاتحة الكتاب بيان لكيفية حصول ذلك باتباع القرآن الكريم والتقوى ﴿الْمَعْرُوفِ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١ - .. وإن هذا الدعاء ليمتد فيشمل الدنيا والآخرة .. وذلك لأن الصراط المستقيم ليس صراطا واحدا بل صراطين: أولهما صراط الدنيا .. ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المؤمنون: ٧٣ .. وثانيهما صراط الآخرة ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ المؤمنون: ٧٤ .

1 - سبق تخريجه .

ويجمع بين الصراطين معا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ  
أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الملك: ٢٢ .

لأجل ذلك فإن الوقوف عند ساحل هذه الآية الكريمة فقط يحتاج إلى  
آلاف من المجلدات وآلاف من العلماء .. ولن يفوا بهذه الآية الكريمة حقها،  
لأنها بإيجاز تحوى الغرض والغاية من الكتاب كله الذي قال فيه المولى  
سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ  
كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٠٩ .

ولأجل ذلك فسوف أشير إلى ما تناولته هذه الدراسة عن هذه الآية  
الكريمة وليرجع إلى الشواهد في مواطنها .. وذلك بالإضافة إلى التطواف مع  
بعض الإشارات الموضوعية لهذا الصراط المستقيم:

### **أولاً: إشارات ما سبق تناوله أثناء الدراسة:**

1- من ذلك أشارت هذه الدراسة إلى أن الصراط المستقيم هو طريق  
التواصل والتراسل الذي يبدأ منه دين الحنيفية كما بشر بها إبراهيم  
عليه السلام وينتهي إلى دين الإسلام الذي جدد الحنيفية بعد أن  
درست وانحرف بها بعض أهل الكتاب عن الطريق القويم الذي  
يحارب في صورته المختلفة الانحراف والتطرف والإعوجاج سواءً  
عند اليهود أو النصارى أو المسلمين ويشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١ .

ويشير إلى أن هذا الصراط المستقيم هو الإسلام قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ .

2- من ذلك أيضا ما توصلت إليه الدراسة من أن الفرقان هو الصراط

المستقيم .. وأن تفاصيل الفرقان والصراط المستقيم هي الوصايا

العشر التي أنزلت على موسى ويشير إلى ذلك قوله تعالى في

الصفات عن موسى وهارون ﴿ وَءَاتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١٧)

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الصفات: ١١٧ - ١١٨ .

وكل ذلك نجده تفصيلا في المبحث الرابع وعنوانه: الصراط المستقيم

والفرقان والوصايا العشر.. ومن مجموع هاتين الإشارتين نجد أن الصراط

المستقيم يتضمن إجمالا كل معاني الحنيفية والإسلام والفرقان والوصايا العشر

التي نزلت على موسى.

3- من ذلك أيضا ما أوضحتها الدراسة من أن الصراط المستقيم يجبي

إليه ثمرات كل ما ورد في الكتاب الكريم من دعاء النبيين وأولياء

الله الصالحين والراسخين في العلم.. فليرجع إليه في فقرة "الصراط

المستقيم يجبي إليه ثمرات كل شيء"

## ثانياً: بعض الإشارات الموضوعية للصراط المستقيم:

1- في سورة آل عمران آية 51 جاء على لسان عيسى عليه السلام بلسان الرسول:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ آل عمران: ٥١ .

وفي الآية 36 من سورة مريم جاء على لسان عيسى عليه السلام بلسان

النبي ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ مريم: ٣٦ .

وفي الآية 64 من سورة الزخرف وتشير إلى النزول الثاني لعيسى ﴿إِنَّ اللَّهَ

هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الزخرف: ٦٤ .

فهذه ثلاث آيات متشابهة الكلمات والحروف لا تختلف إلا في حرف

العطف في آية مريم، وضمير الفصل " هو" في آية الزخرف – الذي هو

للتأكيد – وكلها واردة على لسان عيسى بن مريم عليه السلام .. مع أن منها

المدني " آل عمران " .. ومنها المكي "مريم والزخرف" .. وقوله فيها ﴿هَذَا

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ نسبة إلى ما في يس 61 ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ﴾ يس: ٦١ .

مما يبين أن الصراط المستقيم هو صراط "لا إله إلا الله " .. أي صراط

وحدانية الله تعالى .. التوحيد الخالص الذي لا يشوبه أية شائبة شرك في

ألوهية ولا في ربوبية ..

والمتدبر في هذه الجملة ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ . يجد أنها أجملت خلاصة الأديان السماوية وما ينبغي أن تجتمع عليه أهل هذه الأديان .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ .

وهنا نلاحظ أن سيدنا محمدًا ﷺ قد طالب أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما طالبهم به عيسى عليه السلام، كما ورد في الآيات السابقة .. وهذا هو المحور الذي تدور عليه عجلة الحياة السعيدة، والذي تدور عليه عمارة الأرض، وخلافتها بما يكفل للبشرية أن تعيش في طمأنينة وسلام وأمن .. وبغير هذا فلا أمن ولا طمأنينة ولا سلام، ولو عقدت آلاف مجالس وندوات للحوار بين أهل الأديان .. فلينتبه الغافلون ..

2- **الترباط والتواصل بين سورتي الشورى والزخرف** يبدو جليا من خلال الصراط المستقيم الذي يربط ويوصل بينهما .. فضلا على أنهما من عائلة آل "حم" نجد أنه قد جاء في الزخرف آية 43... ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. وفي آخر الشورى .. ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

ولاحظ التكامل بين الآيتين حيث إن آية الزخرف تكمل آية الشورى .. بمعنى أن الإهداء إلى الصراط المستقيم مشروط فيمن يدعو إليه أن يكون هو على صراط مستقيم مثل: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

يوسف: ١٠٨.

- وفي الشورى توجيه للنبي ﷺ بخصوص الدعوى ﴿فَادْعُ<sup>ط</sup> وَأَسْتَقِمَّ﴾  
الشورى: ١٥ .

وفي الزخرف ﴿فَأَسْتَمِسْكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ<sup>ط</sup> إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾  
﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف: ٤٤ .

وهناك كثير من ضروب الترابط والتشابه بين السورتين ليس هذا مجالها .. ولكننا اقتصرنا على الصراط المستقيم الواصل بينهما.

3- الصراط المستقيم .. أيضا يثري التكامل بين ما جاء في سورة يونس:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يونس: ٢٥.

وما جاء في سورة الأنعام ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام: ١٢٦ - ١٢٧.

فآية الأنعام مكملة لآية يونس لأنها تبين الذين استجابوا للدعوة إلى دار السلام بما كانوا يعملون .. ثم لنلاحظ التكامل بين قوله تعالى في يونس

﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وبين قوله في الأنعام ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ حيث المشيئة مرتبطة بما كانوا يعملون.

#### 4- من هم أهل الصراط المستقيم؟

التكامل بين ما جاء في الفاتحة والأنعام والنساء والعنكبوت والبقرة.. يوضح ذلك. في الفاتحة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وفي الأنعام ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ الأنعام: ١٢٥ ..

وقال بعدها ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ الأنعام: ١٢٦ .

وفي مواضع أخرى يبين مَنْ هُوَ لاء المستحقون لهذه الهداية:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ

وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ النساء: ١٧٥ .

ومثل ذلك ما جاء في سورة العنكبوت ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

وقد بين المولى من خلال المقابلة في سورة النحل أن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ النحل: ١٠٤ .

وقال في البقرة بعد أن بين صفات المؤمنين الذين التمسوا هداية الصراط المستقيم في الفاتحة.



﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: .. وختم صفات الإيمان

بخاتم حصول الهداية والفلاح فقال: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٥.

5- الطريق المستقيم .. والرشد .. والتي هي أقوم .. والصراط المستقيم:  
التكامل بين ما جاء على لسان الجن في سورة الأحقاف والجن والإسراء،  
يثري معنى من معاني الصراط المستقيم ..

فلقد جاء في سورة الأحقاف وصف القرآن على لسان الجن بأنه يهدى إلى  
صراط مستقيم:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا

أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا

كِتَابًا أَنْزَلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ

طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الأحقاف: ٢٩ - ٣٠.

وفي سورة الجن وعلى لسان الجن أيضا جاء وصف القرآن بأنه يهدى إلى

الرشد: ﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا

﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ الجن: ١ - ٢ .

ثم جاء الوصف الأكمل والأشمل من الحق سبحانه وتعالى مباشرة:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء: ٩.

وكانت التي هي أفوم هي عينها الصراط المستقيم الذي أفصح عنه التكامل بين ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ في الفاتحة .. وقوله تعالى بعدها في البقرة ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

## 6- صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ:

ويوضحه التكامل بين سورتي النساء والعنكبوت

ففي العنكبوت قد جاء ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ .

وبنفس رقم الآية في النساء جاء قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩ .

التكامل واضح، واختلاف الألفاظ يفيد في إثراء معنى الآيتين إلى جانب المساهمة في إيضاح كل منهما بالأخرى .. فمثلا قوله في العنكبوت " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا " .. يفسرها قوله تعالى في النساء " وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ " . وقوله في العنكبوت: " لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا " يفسره " فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ " أي هم جميعا من أصحاب "الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" " صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ " كما في الفاتحة.

## 7- بين الفاتحة والبقرة إجمالاً:

سورة الفاتحة تنفر من المغضوب عليهم والضالين .. وسورة البقرة تعدد الأسباب التي أدت ببني إسرائيل إلى ذلك الحضيض، وتقلب صفحات من تاريخهم البغيض.

- آخر سورة البقرة ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ كأنه تفصيل لقوله تعالى في الفاتحة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بل كل العبادات المذكورة في السورة

الكريمة مطوية في آية الفاتحة هذه

- في سورة الفاتحة طلب للهداية إلى الصراط المستقيم .. وفي أول البقرة

بيان لكيفية حصول ذلك باتباع القرآن الكريم والتقوى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .. ثم

يأتي التفصيل الشامل في ثنايا سورة البقرة في توجيهاتها والأحكام التي اشتملت عليها.

## الختام بين الفاتحة ... والقرآن بين البيت المعمور ... والبلد الأمين

نسبة الفاتحة من القرآن كنسبة البيت العتيق أو البيت المعمور من البلد الأمين .. فإذا كانت الفاتحة هي بيت القرآن فإن البيت المعمور هو مأوى ومهوى من يقصدون البلد الأمين.

- فالأساس في الفاتحة الذي بني عليه قاعدة التوحيد الخالص نجده في:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فباسمه يكون كل ابتداء وباسمه تكون كل حركة وكل اتجاه .. ولأجل ذلك سميت الفاتحة " الأساس " الذي استجلب معه الحمد والثناء والتمجيد .. ولأجل ذلك فهي بيت الحمد

كذلك فإن الأساس والقاعدة التي بني عليها بيت الله هي التوحيد الخالص

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

الحج: ٢٦.

- وأما رفع قواعد التوحيد وبناء عمارته وإظهارها وتفعيلها في الوجود ..

فإننا نلمسه في: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بمثل ما نلمسه في رفع

قواعد البيت العتيق وكعبة التوحيد ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧ .

- الحصاد والقطف والجنى الداني لثمرات تأسيس ورفع قواعد التوحيد  
الخالص .. نلمسه في ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ  
عَلَيْهِمْ ﴾ .

بمثل ما نلمسه في الثمرات التي تجبى إلى بيت الله الحرام

﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾  
القصص: ٥٧

- ولقد جمع المولى سبحانه وتعالى بين الكتاب وعلى رأسه أم الكتاب،

والكعبة البيت المعمور في قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾

فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿ الطور: ١ - ٤ .

فكأنما الكتاب الكريم هو ﴿ الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ الذي يحيط ويطوف حول كعبة

الفاخرة ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ .. ومنها يصعد الكلم الطيب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ سبع عشرة مرة كل يوم

على أقل تقدير ليكون موصولاً بـ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ إلى حيث عرش "

الرَّحْمَنِ " حيث تجلت رحمته ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ .

تم بحمد الله

## المصادر والمراجع

- 1 - الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي. مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.
  - 2- الإشارات القرآنية للسرعة العظمى والنسبية - منصور محمد حسب النبي - دار المعارف
  - 3 - الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- لعائشة عبد الرحمن دار المعارف - القاهرة
  - 4 - إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة - محمد شملول. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - القاهرة .
  - 5 - إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني - صلاح عبد الفتاح الخالدي- دار عمار للنشر والتوزيع - عمان.
  - 6- إمعان النظر في نظام الآي والسور - محمد عناية الله أسد سبحاني - دار عمار.
  - 7- البلاغة بين التنظير والتطبيق - عبد الحميد هنداوي - دار عمار.
  - 8- بلاغة القرآن الكريم - ظافر بن غرمان العمري - مكتبة وهبة - القاهرة.
  - 9 - البيان في روائع القرآن - تمام حسان - عالم الكتب - طبعة خاصته تصدرها عالم الكتب ضمن مشروع مكتبة الأسرة .
  - 10 - التعريض في القرآن الكريم - إبراهيم محمد عبد الله الخولى - دار البصائر - القاهرة
  - 11 - تفسير ابن كثير - ابن كثير- دار المنار.
  - 12 - تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - للقاضي أبي السعود
- دار الكتب العامة - بيروت - لبنان .

- 13 - التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم - عبد العظيم إبراهيم المطعني  
- مكتبة وهبة - القاهرة.
- 14 - تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي - مكتبة أخبار اليوم - القاهرة .
- 15 - التفسير الكبير - للفخر الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان.
- 16 - تفسير القرطبي - أو الجامع لأحكام القرآن الكريم - للقرطبي - دار الريان  
للتراث.
- 17- التكامل السياقي - عبد الوهاب رشيد صالح - دار عمار.
- 18- تهذيب مدارج السالكين - عبد المنعم صالح العلي العزى - دار المطبوعات  
الحديثة - السعودية.
- 19 - التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية - احمد سعد محمد - مكتبة الآداب -  
القاهرة.
- 20- حجية الدلالة السياقية في التفسير - عبد الوهاب رشيد صالح - دار عمار .
- 21 - دراسات جديدة في إعجاز القرآن - عبد العظيم إبراهيم المطعني - مكتبة  
وهبة - القاهرة
- 22 - دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم - عاطف المليجي.
- 23- دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم - منير المسيري - مكتبة وهبة.
- 24 - رسم القرآن المعجز - عاطف المليجي .
- 25- روح المعاني - للألوسي - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت لبنان.
- 26 - صحيح مسلم بشرح النووي- دار الحديث - القاهرة.
- 27 - عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل - أبو العباس احمد بن - البناء  
المراكشي - دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان.
- 28- الفاصلة في القرآن - محمد الحسناوي - دار عمار.

- 29 - فتح الباري - بشرح صحيح البخاري - احمد بن على بن حجر- دار الريان للتراث.
- 30- فواصل الآيات القرآنية - السيد خضير - مكتبة الآداب.
- 31 - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق.
- 32 - كتاب أسباب النزول - أبو الحسن الواحدى النيسابورى - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- 33 - كتاب أسرار البلاغة - للجرجاني - مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة.
- 34 - كتاب دلائل الإعجاز - للجرجاني - مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة .
- 35 - الكشاف - للزمخشري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 36 - الكشف والعيان في علوم القرآن - سمير عبد العزيز شلبوة.
- 37- كيمياء الصلاة - أحمد خيرى العُمري - دار الفكر - دمشق.
- 38- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - فاضل صالح السامرائي - دار عمار.
- 39- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ابن قيم الجوزية، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع
- 40 - معجزة القرآن - محمد متولى الشعراوى - سلسلة كتاب اليوم.
- 41 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي -دار الحديث - القاهرة.
- 42 - المفارقة القرآنية - محمد العبد - مكتبة الآداب - القاهرة .
- 43- المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.



- 44 - من أسرار التعبير القرآني - محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة .
- 45 - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم - محمد أمين الحضري - مكتبة وهبة - القاهرة.
- 46 - من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم - محمد أمين الحضري - مكتبة وهبة - القاهرة.
- 47 - من بلاغة النظم القرآني - بسيوني عبد الفتاح فيود - مصطفى الحسين الإسلامية - القاهرة.
- 48 - من روائع البيان في القرآن - حامد السيد على - مطابع الولاء الحديثة - المنوفية.
- 49 - النظم الفني في القرآن - عبد المتعال الصعيدي - مكتبة الآداب - القاهرة .
- 50 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - لبقاعي - دار الكهف العلمية - بيروت - لبنان.

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
3	إهداء.....
7	تقديم.....
17	مقدمة.....
25	من فتح الكتاب إلى فاتحة الكتاب.....
34	زلفى بين يدي فاتحة الكتاب.....
43	* من منازل الفاتحة .....
45	دلالة صدارتها.....
52	دلالة تكرارها.....
63	كثرة وتعدد أسمائها.....
72	دلالة تفرد آياتها على غير مثال سبق.....
74	فرض قراءتها كاملة غير مجزأة.....
76	الفاتحة التي لم نقدرها حقها.....
79	* الاستعاذة.....
95	* بسم الله الرحمن الرحيم.....
100	بسم الله.....
104	الله الرحمن.....
113	الله - الرحيم.....
115	الله الرحمن الرحيم.....
116	من بين يدي (بسم الله الرحمن الرحيم) .....

135	* الحمد لله رب العالمين "حمدني عبدي".....
142	منزلة الحمد من البسمة.....
146	الحمد لله بين جناحي الرحمن الرحيم.....
155	أجواء الحمد والتسبيح القرآني بين الرحمتين.....
169	* الرحمن الرحيم "أثنى علىّ عبدي".....
184	أجواء وأصداء الرحمن.....
202	الرحمن والميزان.....
212	من إشارات عالم الرحمن.....
212	أجواء وأصداء الرحيم.....
227	لطائف الختام
231	* مالك يوم الدين "مجّدي عبدي".....
233	أولاً: الملك – أو ملك يوم الدين.....
237	ثانياً: بن قراءتي ملك يوم الدين ومالك يوم الدين.....
243	ثالثاً: مالك يوم الدين.....
260	تتمة .. وكما هو سبحانه ملك ومالك .. فهو سبحانه "ملك".....
273	* إياك نعبد وإياك نستعين "هذا بيني وبين عبدي".....
276	أولاً: النظم.....
288	ثانياً: سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.....
294	ثالثاً: سر الصرف في الفعلين.....
296	رابعاً: سر تكرير إياك وثمراتها.....

315	* اهدنا الصراط المستقيم هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.....
320	اهدنا.....
339	الصراط المستقيم.....
354	مباحث الصراط المستقيم.....
389	الصراط المستقيم يُجبي إليه ثمرات كل شيء.....
399	* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
401	حكاية الاسم الموصول ومضمون الصلة.....
412	صراط الذي أنعمت عليهم .. وأصناف المكلفين.....
414	احتراس .. وتميز.....
412	الاحتراس بالوصلة البديعة.....
419	التميز.....
425	من أسرار النظم والبيان.....
435	* الفاتحة: السبع المثاني: سر القرآن العظيم.....
438	الشق الأول: التفسير الموضوعي على مستوى السورة الواحدة....
461	الشق الثاني: التفسير الموضوعي على مستوى القرآن كله.....
495	الختام: بين الفاتحة والقرآن... بين البيت المعمور والبلد الأمين...
497	المصادر والمراجع.....
501	الفهرس.....

### \* مؤلفات الباحث:

- 1 - نظرات قرآنية (سورة الكهف)
- 2- نظرات قرآنية (فاتحة الكتاب)